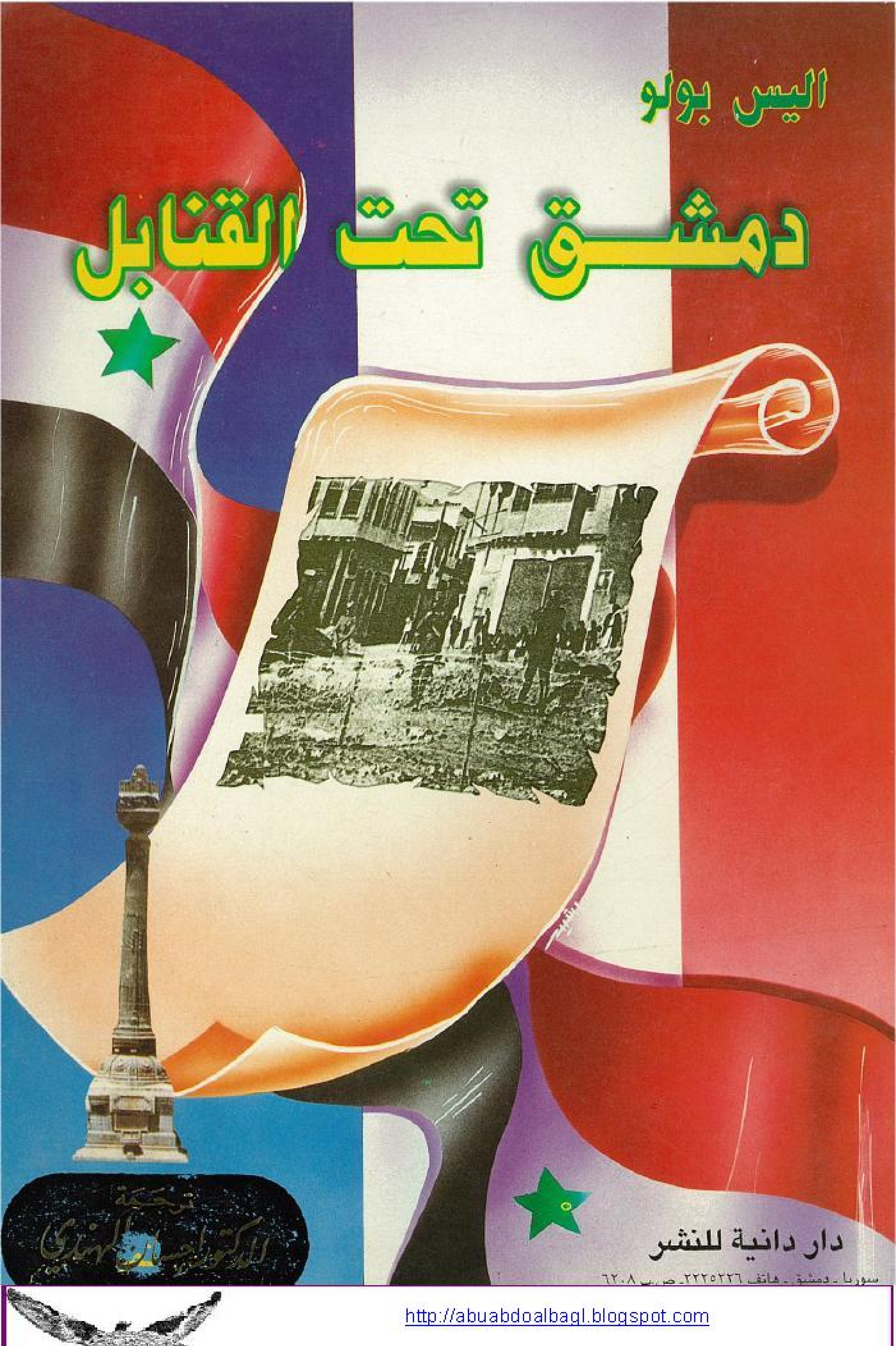

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

اليس بوللو
ALICE POULLEAU

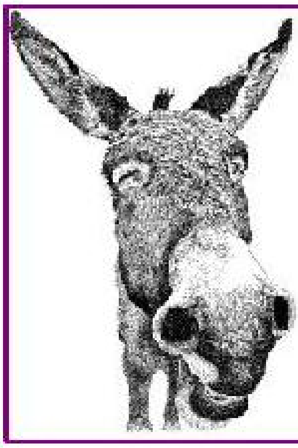

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

دمشق
تحت القنابل

ترجمة
الدكتور احسان الهندي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

مطبعة الحمامي - دمشق

طبع من هذا الكتاب / ١٠٠٠ / نسخة

مقدمة الناشر

مهما تدانت السنون أو تباعدت.. ومهما أخفى غبار الزمن مافي جعبته من وقائع وتاريخ قديم.. تبقى دمشق ملتقى الحضارات!!.. درة في جبين الشرق، بل في جبين العالم أجمع، ففي كل جزء فيها تاريخ متصل يحكي قصة الحضارة الخالدة، ففيها ازدهرت دولة العرب، وامتد اشعاعها الحضاري الى أنحاء العالم في الشرق والغرب..

ودمشق الأم!!.. بما تملكه من كنوز الجمال والتاريخ، لاتخص أبناء وطنها فحسب.. بل تخص الإنسانية جمعاء، فهي أمٌ.. والأم تحتضن الكثير من الأبناء.. ذاك الخير والعطاء مابرره المستعمرون بالأحقية لهم من سلب ونهب وحق غير مشروع..

وقائع متعددة نخطها من خلال صفحات مترجمة لنكشف الغبار عن حقبة تاريخية حاسمة مؤلمة من تاريخ سوريا، ومواجهتها للإنتداب الفرنسي.. والتي تحاول دائماً أن تحافظ على الإنسانية الحرة ومعانيها المقدسة السامية..

شريط سينمائي نستعيد من خلاله بعض الذكريات القاسية، ونعتصر مخزوناته الوثائقية، عبر دوي القنابل المدمرة.. وأصوات الرصاص الطائش القاتل، وكيف تصدى لها شعبنا العربي الأبي الذي يعرف تماماً موقعه ودوره الريادي المتميز تجاه الغريب المستعمر المتسلط، سواء توافرت لديه شروط الدفاع أو الوسائل، أو كانت محجوبة عنه.. لايهمه سوى الحفاظ على أن تبقى: «دمشق قلعة الصمود والتصدي»..

«دمشق تحت القنابل».. تبقى العبرة الماثلة أمام الجميع، لايدركها إلا من يتمتع بالفكر النيّر والعقل المدبر القادر على تحليل كل الاحتمالات وتفنيد أدق التفاصيل، وتوقع المفاجآت كي يتم بلوغ الغايات، تلك مغامرة تصل الى المخاطرة، لتستحق التضحية المخضبة بالدماء الزكية لترسم دمشق بسمة الحزن على شفاه عذبة نقية..

«دمشق تحت القنابل».. صفحات ترجمت عن الفرنسية للكاتبة الشهيرة ALICE POULLEAU، تصف لنا من خلالها مأساة أيام عاشتها ضمن أحضان دمشق بين عامي /١٩٢٤-١٩٢٦/م، والتي شهدت فيها أحداث الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي، وكذلك ترسم لنا صورة عذبة عن دمشق وهي واقفة صامدة تحت قصف المدافع والقنابل، وثوار بسطاء لايملكون إلا مشاعر وطنية جياشة قوية عتيدة جبارة لاتقبل الذل أو الإهانة..

حقبة من تاريخ صامد لدمشق موثق.. تقدمه الدار ساعية كعادتها اغناء القارئ العربي بما هو مفيد، وإبراز كل ماهو غامض وخفي كي تكون الحقيقة التاريخية أمام أعين القراء جلية واضحة..

وكلنا أمل أن نكون قد قدمنا الجديد للمكتبة العربية.. وهذا دأبنا

والله الموفق..

الناشر

أليس بوللو

مـؤلفـة هـذا الكتـاب «أليس بوللو» "ALICE POULLEAU" فتاة فرنسية شابة اشتغلت بالصحافة زمنا طويلاً وأيام الحرب العالمية الأولى. شاركت كفتاة وطنية بدورها في تلك الأيام الصعبة وكانت ممرضة تعتني بالجنود الفرنسيين الجرحى الذي أصيبوا في المعارك وقد فقدت في تلك الحرب أخويها الشابين اللذين تجندا للدفاع عن بلادهم وهي توضح ذلك في كتابها هذا وهي على درجة عالية من الثقافة، وثقافتها متنوعة في التاريخ والجغرافية وعلم النفس والآداب والاجتماع، والسياسة، وهي تعشق السياسة وتعشق الحرية. وتدافع عن كل حركات التحرر العادلة وتناصرها أينما وجدت ولم يكن مبدأها «انصر أخاك ظالماً ومظلوماً» بل كـان «قل كلمـة الحق. . .» وهي تمتلك قدرة كبيرة على تحليل الشخصيات وفهما بعمق والحكم عليها حكماً صائباً وحيادياً ونلاحظ ذلك في هذا الكتاب حيث تصف الأشخاص. وسنرى كيف تصف الأمير الجزائري. وكيف تصف أبناء حوران الذي جاؤوا الى دمشق وكيف تصف أبناء القرى المجاورة الذي دخلوا دمشق بعدما قصفت بيوتهم.. فهذا الفلاح العجوز يرمي في الجدول بطاقة المرور الذي منحه إياها المفتش الفرنسي.. أمر مضحك في مأساة تُبكي.. وهؤلاء القادمون من حوران شعورهم طويلة، وقد جدلوها جدائلاً طويلة... الخ.

يعتبر هذا الكتاب أيضاً أهم وثيقة تاريخية عن تلك الفترة من حياة شعبنا العربي السوري، واضافة إلى كونها وثيقة تتحدث عن مظالم الفرنسيين وعن عشق شعبنا للحرية. فهي تصف شعبنا في ذلك الوقت من الناحية الاجتماعية: أهل دمشق كيف كانت أحوالهم ومعاشهم وأيامهم..؟ فهي تصف لنا مثلاً حين جاءت الى مدرسة للإناث لترسم زخارف الباب القديم ومدقته النحاسية الأثرية، فتصف لنا كيف أن البنات لما رأوها اندهشن وضحكن ونادين معلمتهن لترحب بالفرنسية الغريبة.. الخ.

كما وتصف أهل ريف دمشق وصفاً جميلاً.. وتصف أيضاً جمال المدينة بناؤها وشوارعها وطيبة شعبها وجمال بساتينها ومتنزهاتها، وتصف الباعة والأسواق والعائلات وأهم الشخصيات الاجتماعية البارزة وترجع أهمية كتابها هذا الى أن المؤلفة تكتب اليوميات بصدق وحيادية، فكانت مذكراتها أهم وثيقة عن تلك السنوات، وأهم كتاب تاريخي يصف حوادث الثورة اليومية. ومن الممكن أن نعتقد أن الله سبحانه قد أرسل هذه الفتاة لتعيش في

دمشق تلك السنوات وتكتب بإنصاف عما تشاهده. وهي تعتقد ذلك إذ تقول في مقدمة كتابها: «إن قوى غامضة تقودنا نحن البشر إلى المكان المقرر أن نكون فيه في الساعة المحددة من قبل.. ذلك لكي تصدر عن فتاة فرنسية شهادة حيادية لا تحوي إلا كلاماً صادقاً وعادلاً».

لقد أحبت «أليس بوللو» دمشق وأهلها، وأحبت الشعب السوري كله. وصارت لها علاقات صداقة حميمة مع أهم الشخصيات في البلاد.. فهي تصف لنا من تجتمع معهم وتستمع الى آرائهم وتدافع عن قضاياهم القومية، منهم الشهبندر، و الجزائري، والبكري، ومشايخ الدروز وغيرهم. .الخ لقد أحبها السوريون. . و ذاعت شهرتها هنا وصارت حين تمر في الشوارع يعرفها الناس بأنها المنصفة ويعرفها الثوار.. وكانت الوحيدة بين الفرنسيين التي لاتخشى أن يقتلها الثوار، ومن الممكن أن نقول اليوم بعد تحليل كتابها بأن «أليس بوللو» كان لها تأثير في تحريض الثوار على الثورة وعلى المطالبة بحريتهم وقول كلمتهم.. فحين تلتقي بأبناء هذا البلد وخاصة المتنورين منهم كانت تحدثهم عن الحرية، وعن ظلم المستعمر الفرنسي لهم.. وعن حقوق الإنسان التي يتوجب عليه أن يطالب بها.. وكانت تقول بالتلميح أحياناً وبصراحة مطلقة أحياناً أخرى. تقولها أمام جمع من السوريين: «أنتم السبب في كل مايحصل لكم!!» نحن في فرنسا قاتلنا المستعمرين وتحررنا..» قالت هذا قبل أن تطلق أية رصاصة ضد الفرنسيين، وفي ذلك الوقت كان الشهبندر يحيك مع الرجال الوطنيين وأهمهم مشايخ الدروز. كان يحيك خطة الثورة. كما ذكر في مذكراته.

كانت «أليس بوللو» ذات شأن في بلادها فرنسا فهي شخصياً ساهمت في حرب التحرر الفرنسية وقدمت أخويها شهيدين فداء للوطن. وعلى هذا كانت لاتخشى السلطات أبداً، وجاءت الى سوريا تحمل بطاقة صحفية وتصريح بالمرور والعمل الصحفي موّقع من الخارجية الفرنسية، وكانت تبرزه هنا حين الضرورة ونلاحظ من كتابها أن سلطات الانتداب هنا كانت تخشى جانبها، ومجبرة بنفس الوقت علي تسيير أمورها وتركها تعمل بحرية، تكشف الحقائق، وترسل رسائلها الى فرنسا وأحياناً الى السلطات الفرنسية، وقد حدثتنا كثيراً عن مراقبة الرسائل وتأخرها وعن زيارة الصحفي «دو كيريللوس» الذي زار دمشق وعاد يحمل تقرير مزيفاً، وبأنه كان لايريد أن يعرف شيئاً أصلاً، ولايريد أن يحمل معه شيئاً وكانت «أليس» ترسل مقالاتها أحياناً الى بعض الصحف الفرنسية، وتحدثنا عن نشرها ويمكن القول أن مقالاتها ومراسلاتها الصادقة الى فرنسا كان لها تأثير على كشف حقائق الثورة هناك

وكشف مفاسد سلطات الانتداب فقبلت فرنسا أخيراً بمطالب الثوار والرضوخ اليهم وأقيمت أول حكومة وطنية يتزعمها رجل سوري وصدر عفو عام عن الثوار.

وبعد انتهاء الثورة تختم المؤلفة كتابها هذا وترسله ليطبع في فرنسا في مطبعة "BRETTEVILLE FRERES" وتسافر الى وسط سوريا لتكتب هناك كتابين آخرين، وقد صدرا في فرنسا وهما:

- سبع قصص من سوريا "Sept Histoires de Syrie"

- في بلاد العاصي "Au Pauy de L´ORNT"

وقد بحثت في كثير من المراجع الفرنسية الضخمة عن معلومات عن هذه المؤلفة فلم أجد أي ذكر لها ولم تطبع كتبها طبعات جديدة، وقد صدر كتابها هذا في سنة ١٩٢٦، أي في نفس السنة الذي أنهت كتابته فيها ويتضح من الكتاب أن المؤلفة حين كانت في سورية كان عمرها حوالي أربعين سنة، وكانت على قدر من الجمال والأناقة، وكانت فتاة عذراء لم تتزوج بعد وكانت شجاعة الى حد كبير تسير وحدها في شوارع دمشق الخطرة، وتحت قصف القنابل، والحرائق وتهديد الثوار وكانت لها مبادرات عديدة وجريئة، وتتوسط أحياناً لدى السلطات الفرنسية وتعرض عليهم اقتراحاتها وآرائها، لكن السلطات كانت تناصبها العداء وتراقب تحركاتها، وقد وكل بها جواسيس خاصين يراقبون تحركاتها واتصالاتها.

وأخيراً. فهذا هو كتابها يعرفنا أيضاً على شخصيتها العظيمة. وقد ترجمناه ترجمة حرفية، وحذفنا أحياناً الأشياء التي لاداعي لذكرها الآن وبإمكان القارئ أن يعود الى الأصل الفرنسي فيطلع عليها. ونشير أيضاً الى أن المؤلفة كانت تجيد اللغة العربية واللهجة الشامية وقد ذكرت في كتابها هذا مئات الكلمات العربية كما سيتضح للقارئ.

الثورة السورية:

وللحديث عن بداية الثورة نعود الى مذكرات الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، يقول: بتاريخ ١٦ نيسان ١٩٢٢ تسلمت رسالة تعلمني بزيارة المستر كراين «المبعوث الأميريكي» لدمشق وبضرورة استقباله والتحضير لذلك ووصل المستر كراين واستقبله العديد من الرجال الوطنيين والمثقفين والوجهاء، وشرحوا له مظالم الفرنسيين بإسهاب، وعرضوا عليه المطالب الوطنية والتي تتمثل بالاستقلال التام، والوحدة السورية العربية، وترك شؤون الخلافة الاسلامية في بني عثمان وزار كراين معالم دمشق وأحيائها، وزار ضريح ابن تيمية والتقى بطلاب مدرسة الحقوق. وأخيراً تجمع الناس لوداع كراين وتحول الوداع الى مظاهرة احتجاج ضد فرنسا. وكان الفرنسيون يراقبون تحركات الرجال الوطنيين وجرى توقيف عدد كبير منهم ثم انطلقت مظاهرة احتجاج من الجامع الأموي، وأوقف الجيش الفرنسي ثلاثين متظاهراً، وسجن الشهبندر في سجن القلعة بدمشق، ومعه الكثير من الرجالات الوطنيين، وكان الشهبندر يرسل رسائله من السجن الى الوطنيين والمثقفين يحرضهم فيها على الثورة والتظاهر ضد الحكومة الفرنسية ثم نقل السجناء الى قلعة بيت الدين في لبنان وأخرجوا بعد ذلك.

عقد الوطنيون أول اجتماع لهم في بيت القاسم الهيماني في أوائل آيار ١٩٢٥ حضره الأمير حمد الأطرش ممثلاً للدروز. ودار الحديث حول اشعال الثورة. وجرى الاجتماع الثاني في بيت الشهبندر في «عرنوس» حضره عدد كبير من وجهاء الدروز والثائر سعيد عكاش ممثلاً عن منطقة وادي بردى والربوة. وأقسم الحاضرون على تحقيق الوحدة والاستقلال.

وبعد ذلك بأيام بدأت الاضطرابات في السويداء وفي ٢١ تموز ١٩٢٥ تظاهر فيتان من بني معروف بإشارة من أعيان الدروز ونادوا بسقوط «كار بيللية» وانتخى الدروز وحملوا سلاحهم. وحدثت المعركة الأولى ومن هنا بدأت الثورة السورية وامتدت بسرعة الى دمشق وضواحيها وتجاوب معها السوريون في سوريا كلها فقد قاد الشيخ صالح العلي الثورة في جبال الساحل السوري، وقامت الثورة في حماة وحلب وتدمر ودير الزور واستمرت الى أن رضخ الفرنسيون لمطالب الثوار وقد حاصر الثوار دمشق لمدة تسعة أشهر بكاملها وانقطعت عنها كافة طرق الاتصال. وكاد الثوار أن يحتلوا دمشق ويقضوا نهائياً على الوجود الفرنسي

لكنهم أخطأوا حين لم يدخلوها . . ويقول الدكتور شهبندر في مذكراته إن أفدح خطأ ارتكبناه هو أن هجومنا على دمشق لم نكمله ولم ندخل دمشق تماماً وقد بقيت دمشق لمدة تسعة أشهر تحت رحمة الثوار، وكانوا في هذه المدة يدخلونها حين شاؤوا . . . وفي كتابنا هذا تتحدث المؤلفة كيف أنها كانت تراهم في شوارع دمشق في وضح النهار . . وكيف أن حفظ الأمن في دمشق أصبح تحت رعايتهم، لا تحت حماية فرنسا .

إنها شواهد رائعة على بطولات شعبنا السوري، وإنها حقاً من أعظم الثورات في العالم، وإنها دليل على أن شعبنا الواعي والسياسي بالفطرة لا يسكت أبداً على الظلم وهذا يعني أيضاً أن شعبنا حين يساند سلطة تكون سلطة عادلة حقاً .

جثث الشيوخ والأطفال القرويين العزل الذين فتك بهم الفرنسيون
انتقاماً لهزائمهم المنكرة من الثوار العرب الأبطال

A DAMAS
SOUS LES BOMBES

Journal d'une Française pendant la révolte Syrienne

1924-1926

Alice POULLEAU

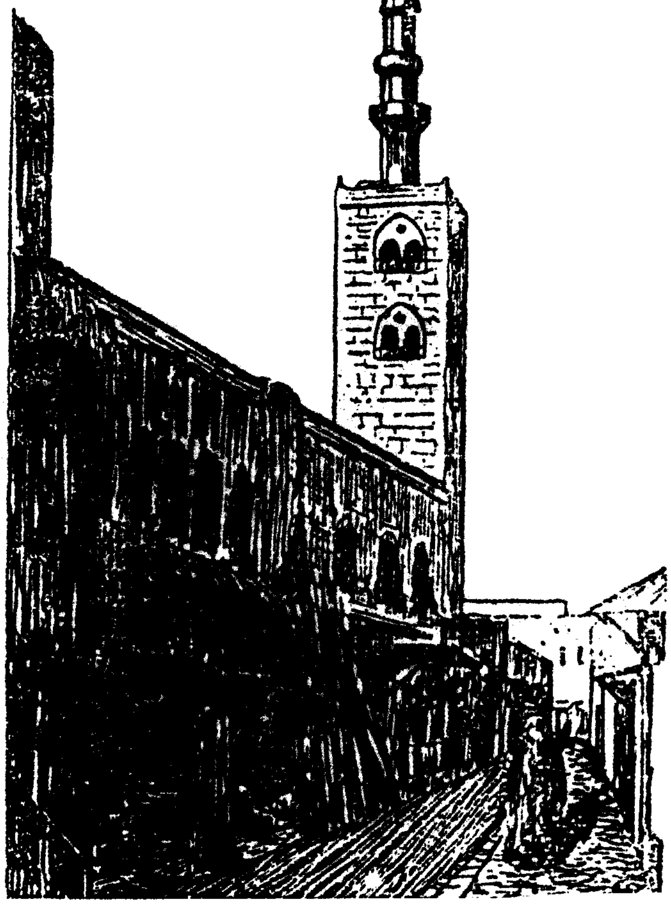

الصفحة الأولى من الكتاب . وهذه النسخة موجودة في المكتبة العامة في جامعة دمشق تحت رقم POU/953.1
وقد صدر الكتاب في فرنسا عن مطابع الأخوين «بريتقل» .

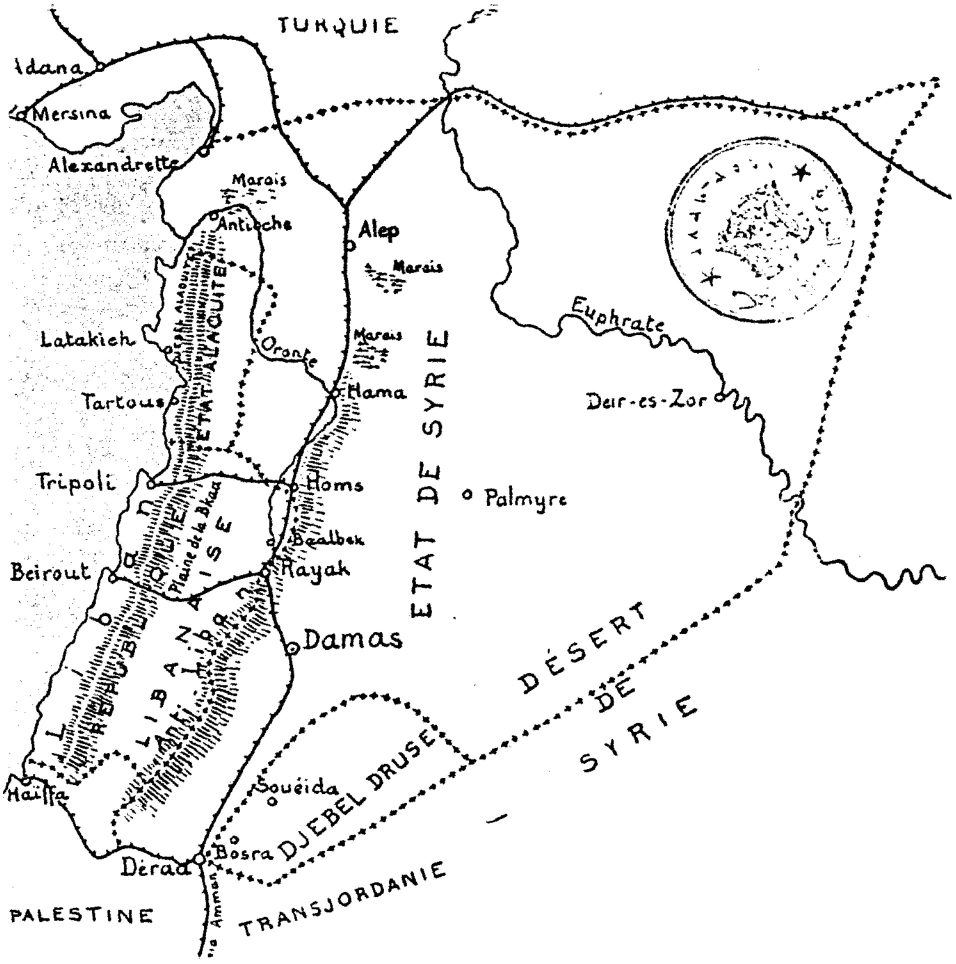

خارطة سوريا وتقسيماتها - من وضع المؤلفة

الأهــــداء

Ce livre, écrit sous les obus, tandis que leurs fils s'entretuaient, je le dédie aux mères de France et de Syrie qui souffrirent des mêmes maux.

De nombreux Français, écrivains ou journalistes, dont aucun n'assista aux événements de Damas, ont, depuis la guerre, beaucoup parlé de la Syrie, toujours pour l'accabler, rarement pour la plaindre.

N'est-il point juste qu'après tant de témoignages partiaux, erronés ou incomplets, répandus par la presse, un témoin inconnu, une Française, se levant du milieu du peuple syrien avec lequel elle vécut, fraternelle, aux moments les plus critiques, dépose en son nom au procès de la Syrie pour y dire le mot de la fin.

Alice Poulleau
1925.

الأهداء:

أهدي هذا الكتاب الذي كتب تحت قصف القنابل الى الأمهات الفرنسيات والسوريات اللواتي عانين نفس الآلام.

وإن كثير من الفرنسيين كتّاب أو صحفيين، منذ نهاية الحرب حتى الآن تحدثوا طويلاً عن سوريا رغم أن أياً منهم لم يعش أحداث دمشق، وكانوا دوماً ينحون عليها باللائمة، ولم يناصرها إلا قليل منهم.

أليس من العدل بعد كل هذه الشهادات المتحزبة التي نشرتها الصحف مغلوطة أو ناقصة، أن ينهض شاهد مجهول، هو فتاة فرنسية، من وسط الشعب السوري عاشت معه بإخاء في أحلك اللحظات حرجاً، لتدلي بإسمها الشخصي بالكلمة النهائية في القضية السورية؟

« أليس بوللو »

١٩٢٥

مدخل

كان ذلك في ربيع عام ١٩٢٣ حين وصلت الى سوريا وشهدت ثورتها، فقد وصلت اليها من سهول دلتا النيل التي تتميز بالحرارة والرطوبة معاً ومن هناك، كنت أزور كل سنة فلسطين وكنت أتوغل في أراضيها كل مرة أكثر من المرة التي من قبل.

وبعد تلك الرحلة العظيمة التي اجتزت بها الصحراء تحت ضوء القمر الذي يأخذ في الشرق لوناً يشبه الحليب في بياضه، تمكنت من التمتع بمنظر ساحر لبساتين رفح وغزة واللد، التي تتضوع بأريج البرتقال.

وتمتعت بمشاهدة خليج حيفا المتلألئ، الذي يستدير على شكل صدفة عند سفح جبال الكرمل المغطاة بأجمل الأزاهير: (ورد كف الهر الذهبي) و(شقائق النعمان) الأورجوانية. و(النسرين الكبيرة)، وأعجبت كل الإعجاب بخضرة ونضارة سهل فلسطين الذي ورد ذكره في التوراة، والذي يمتد أمام جبل الطور كما يمتد البساط أمام المذبح وفي تلك السنة قررت أن أتوغل أعمق في جهة الشمال، فأعبر مناطق حوران وأصل الى دمشق، فأرى مدينة الينابيع هذه وبعلبك. ولبنان، ثم أعود على طول الشاطئ من بيروت الى حيفا عن طريق صور وصيدا. وفي هذا الرحلة شاهدت سوريا أخرى ومن بيسان في جنوب بحر الجليل، شعرت فجأة بأن روح المناظر الجديدة تختلف عن التي قبلها ووصلتني من الجبال البعيدة نسمة ريح محملة برطوبة الثلج الذائب.

وبعد أن اجتزت منطقة، ساماك "SAMAK" بدت لي قمة جبل الحرمون العالي، الذي يسيطر على صحراء من الصخور البركانية والأراضي الحمراء التي تشقها بعض السيول ذات المياه المضطربة ممر قاسٍ لكنه حلو، بخيوطه البسيطة وألوانه الهادئة المنسجمة بدون أية عوائق طبيعية، وكان ينم بجملته عن بلد مفكر لايكترث بالأحزان، بلد عركه الدهر على مر الزمن، وعاش منذ أقدم العصور في الحدود الأولى للزمن كما هو يعيش الآن على حدود الصحراء.

هكذا بدت لي سوريا للمرة الأولى عندما توغلت فيها عبر أراضي بيسان «BASAN» القديمة وكان منظر الناس ينسجم مع هذ المنظر "DECOR" الروحاني الديني الذي يأخذ

طابع العظمة والوقار وكانت تنسجم معه أيضاً أزياء الفلاحين أو البدو وحركاتهم وتعبيراتهم.

وبالمقابل صدمتني بكل عنف شخصيات وتعابير الفرنسيين، من مدنيين وعسكريين ممن أصادفهم في كل قرية أو مدينة.. فلقد بدوا لاينسجمون أبداً، وهذا ماينفر، مع المحيط والجو العام تماماً كما تتنافر المعزوفات المصطنعة اليوم التي نسمعها في المقاهي وغير ذلك.. مع سيمفونية من روائع «باخ» إذا ما أدخلت ضمنها!

وكان وقع ما رأيته قوياً جداً علي، حتى أنه بقي حياً في مخيلتي، ويشهد على ذلك كثير من صفحات الدفتر الذي رافقني في رحلتي ولقد صدمت بكل شدة، لدرجة أن ذلك الحماس الحقيقي الذي كنت أشعر به مسبقاً، بمقابلتي لأبناء وطني في بلد مازال أجنبياً بالنسبة لي، قد زال، إذ لم أجد أي رابط مشترك يجمع بيني وبينهم بعد أن قابلتهم!!.

لقد قدر لي أن أعرف تماماً الفرنسيين عندما يكونوا خارج بلادهم في، في مختلف البلاد في أوروبا، وأفريقيا.. ولم يكن دوماً حكمي لصالحهم، ولكن الأمر هنا أشد سوءاً. فلقد صدمت، بل جرحت بكرامتي الوطنية، لأنه كان يقال إننا دعينا الى سوريا بناء على رغبة كامل شعبها بوجودنا في بلده، وها أنا أرى هذا الشعب قد ظلم وعومل بفظاظة وعدم تفهم، مما أحنقني وجعلني أشعر بميل لإنصافه [1]

فمنذ ربيع ١٩٢٣ تمكنت من أن ألاحظ حركة كراهية شديدة لفرنسا، أثارتها غباوات وحماقات كثيرمن مواطنينا، قد بدأت ترى النور بين أوساط الشعب السوري.

فمن الناحية السياسية، ومن خلال محادثاتي مع مختلف الناس، وخاصة في دمشق، فقد تمكنت أن ألاحظ أن الاستياء يعم هنا أيضاً الأوساط كلها، وأن سوء التفاهم يزداد حدة بين سوريا وفرنسا، أما المطالب الوطنية فتنصب على النواحي التالية التي سجلتها كما ذكرت لي تماماً: إن الشعب السوري لم يقبل الانتداب الفرنسي بأي شكل من الأشكال، وكان على الدوام يرغب بالاستقلال الكامل، أما فرنسا التي كان يجب أن يقتصر تدخلها في سوريا على شكل نصائح أو حماية للأمن الداخلي فقط، فقد أخذت تعامل سوريا كمستعمرة، وتديرها

(1) هذا أهم اعتراف ورد من المؤلفة في كتابها.

بطريقة تسلطية جائرة. لقد اقتطع منها في الشمال جزء من أراضيها [1] لتنفيذ اتفاق انقرة [2] الذي عقده الفرنسيون مع الاتراك ثم جرى تقسيمها الى دويلات مستقلة أديرت بأسلوب كيفي [3]وبعد هذا كله، قامت السلطة بتكميم الصحافة الحرة والأفواه الحرة، وبامداد الصحافة الرسمية بالمال الوفير، والغاء حريات الاجتماعات، وتأليف الجمعيات بحيث لايستطيع السوريون أن يدافعوا عن حقوقهم إلا في خارج بلادهم: في مصر وأميريكا... فالسلطات البلدية مثلاً في ظل الفرنسيين. كانت أسوء وأقل حرية من السلطات البلدية التي كانت في عهد النظام العثماني البغيض. ذلك لأن المفوض السامي احتفظ لنفسه بالحق المطلق في ممارسة السلطتين التشريعية والتنفيذية ولمّا احتجت جماهير السكان على ذلك عوملت بعنف شديد.

وفي لبنان نجد أن تنسيبات المجلس الإداري التي كانت محترمة في ظل الاتراك لم تعد كذلك في الانتداب الفرنسي، حتى أن الأمر وصل الى نفي أعضاء المجلس لمدة معينة، وذلك لأنهم اتخذوا قراراً بطلب الوحدة السورية وقد انصبت الشكوى بشكل خاص على أن الحكومة الفرنسية لم تقم بأي تحقيق. وكانت تكتفي لمعرفة الحالة في سورية بقراءة التقارير الرسمية التي ترسلها المفوضية العليا فقط..

وهكذا نجد بأنه منذ أربع سنوات والأحقاد تزداد، وخيبات الأمل تتوالى حتى عند من كانوا أصدقاءنا فيما مضى، ولوحظ وجود انفصام شديد في الصداقة الفرنسية- السورية منذ العام ١٩٢٣ وبقي هذا الانطباع في ذهني بعد أن عدت الى مصر، ولم يكن غير ذي تأثير على القرار الذي اتخذته بأن أسكن دمشق في السنة التالية.

إن قوى غامضة تقودنا نحن البشر الى المكان المقرر أن نكون فيه في الساعة التي حددت مسبقاً لذلك. فإذا كنت قد تنزهت في طرقات الغوطة المزهرة في شهر نيسان ١٩٢٣، فذلك بالتأكيد قد حدث لكي أعيش بعْد عامين في دمشق تحت القنابل، ولكن تصدر عن واحدة مَن أفراد شعبي، في هذه المعركة المتحزبة، شهادة حيادية لاتحوي إلا كلاماً عادلاً واحتجاجات قلب انساني.

لقد نسخت هذه اليوميات كما هي مكتوبة في الأصل، دون تعديل، لأحفظ لها الصيغة العفوية التي ترافق عادة الانطباع الأول وحيوية الشاعر الأولى، وذلك لأن إحداث أي تغيير

---

(1) هو لواء اسكندرون الذي اغتصبته تركيا

(2) جرى هذا الاتفاق عام ١٩٢١

(3) جرى تقسيم سوريا الى أربع دويلات هي: (حلب، دمشق، جبل الدروز، جبل العلويين، لواء اسكندرون)

فيها، سيسيء الى الحقيقة التي استهدف خدمتها قبل كل شيء، وسيشعر القارئ بأنه يقرأ أحد المراجع التاريخية وليس مجرد أدب عقيم.

٧ كانون الأول ١٩٢٤

اليوم فقط علمت بسفر المفوض السامي الجنرال ويغان "Wigaan" بشكل مفاجيء. وتقول الاشاعات بأن الجنرال قد أقيل بعد أن أعطي مهلة ثمانية أيام يتصرف فيها كأي وصيف بسيط ويتدبر أمور عودته الى فرنسا وقد أحدث هذا النبأ اضطراباً كبيراً في بعض الأوساط المسيحية وفي أوساط الجالية الفرنسية هنا، وخاصة بعد أن أعلن اسم المفوض السامي الجديد فقد ساد الذهول والتجهم على وجوه المدنيين وتمارض أحد المسؤولين كي لايستقبل أحداً وأخذ الضباط يتناقشون ويبحثون في ذواكرهم عن أية معلومات سلبية عن الأدوار التي لعبها الرئيس الجديد الجنرال ساراي في مقدونيا والبلدان الأخرى ولاحظت بدهشة أن المسلمين هنا هم وحدهم المسرورين لهذا الخبر، ويتباهون بإظهار سرورهم هذا، وكأنهم ينتظرون منه أن يكون «المسيح الموعود» ورحت أسألهم عن سبب بهجتهم فقال لي أحدهم: «يكفي أن الجنرال ساراي تحرري» وشاع هذا الرأي في الأوساط العديدة ولمسته ولمست الفرح عند أخواتهم الشابات السوريات من صديقاتي هنا اللواتي يهتممن بالسياسة بنفس الشغف الذي نجده لدى الفرنسيات في حق الانتخاب.

١ كانون الثاني ١٩٢٥

اعتقدت بسذاجتي بأن الاتحاد بين دولتي دمشق وحلب بعد تقسيمهما هو حدث تاريخي هام في تاريخ سوريا، ولهذا أسرعت بالذهاب الى سراي الحكومة لكي أسجل أحداث هذا اليوم الهام السعيد للأجيال السورية، ويا لشد ما دهشت حين وصلت الى ساحة المرجة، إذ وجدت أن أهل الشام لايكترثون أبداً بهذا الخبر بل يمرون عابري سبيل في الشوارع والساحة وينتقلون كما هو الحال في أيامهم العادية وكأن الأمر لايعنيهم.

ورغم ذلك كنت أرى مظاهر الفرح والاحتفال عند الرجال الفرنسيين، فكان بعضهم يرتدي الألبسة المزينة بالريش والقبعات المثلثة الأضلاع، وكذلك بعض المتنفذين السوريين كأصحاب العمائم الذين وصلوا بالعربات في الوقت المناسب، حين كانت الفرقة السورية

تقف بثبات كبير : رجال ذوو شوارب ضخمة وعيون وحواجب فينيقية يحملون أسلحتهم المسدلة الى جانب أقدامهم وكان رجال الخيالة يمتطون الخيول الشامية الجميلة ويؤدون عرضاً عسكرياً جميلاً ورقص خيول عربية مدربة .

بدأ الاحتفال الرسمي بعزف الأبواق النحاسية وألقيت بعد ذلك الخطابات ، ثم عزفت الأبواق من جديد وتم التقاط الصور التذكارية قبل أن ينتهي الاحتفال ويذهب كل في حال سبيله وفي ذلك الوقت وقف أحد المؤذنين في الشرفة العليا من مئذنة مسجد يقع على ضفة نهر بردى ، وراح يدور دورات كاملة على الشرفة كي يصل صوته الى كل الجهات داعياً الناس الى الصلاة : «الله أكبر» بشيء من الاستسلام يصل الى حد اللامبالاة إن الفكرة التي أدهشني ، سماعها حول هذه القضية سمعتها عدة مرات في المحال التجارية (ففي هذه المحال يستطيع المرء أحياناً أن يبادل الناس أحاديثاً ممتعة) وخرجت منها بنتيجة هامة : هي أن فرنسا قد ابتعدت عن قلوب الشعب بعد أن مزقت سورية وقسمتها الى دويلات عديدة ، وهي تحاول الآن عبثاً إعادة توحيدها .

الأحد ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥

ذهبت اليوم الى مرصد «تيمورلانغ» TAMERLAN[1] ومنه يمكن التمتع برؤية مناظر الغوطة والبادية الجميلة ، وهناك التقيت بعدد من ضباط الصف المزهوين بقوتهم وقامتهم ، وألقيت عليهم أسئلة عديدة ، لكن جل ما أدهشني جهلهم المطبق ، فرغم مرور سنتين على اقامتهم في دمشق لا أحد منهم يعرف معالمها أو التنقل من مكان الى اخر وبرغم جمال هذه البلاد وسحرها الآخاذ العجيب فقد ظل هؤلاء جميعهم لامبالين ، وهؤلاء هم بالطبع أبناء وطني .

الاثنين ١٩ كانون الثاني ١٩٢٥

تنزهت اليوم في منطقة الصوفانية ، وهي أحد أطراف مدينة دمشق الجميلة التي أشتهي أن أزورها مرة أخرى . فهي جزيرة صغيرة تغفو بين فرعين من فروع نهر بردى تصل اليها بعبور جسور ريفية بسيطة وتنتشر على ضفافها المقاهي العديدة التي يدخن زوارها التنباك بشراهة وهم يتمتعون بمشاهدة خيول البلد الجميلة تصول وتجول ، وفي الصيف ترى الصبية

(1) وتقصد قبة السيار في سفح جبل قاسيون

والرجال الأشداء يستحمون في ماء النهر.

ولم أصدق عيني ماتراه في هذه الضاحية، ترى أي مسؤول همجي قد ارتأى أن يقسم النهر الغزير الى قنوات عديدة !! وأن يجمع قرب بوابة «الشيخ رسلان» القديمة في هذا الاطار جمال الطبيعة الأزلي، مجموعة من الآليات البالية وأواني التوتياء الرخيصة قرب ممرات مرصوفة بالحصى كما هي الحال في حدائق «بوڤار» و «بيكوشيه»؟ ترى هل هذه هي حضارة فرنسا التي حملتها الى دمشق.. ؟ وإذن فإن المسيئين للحق العام ليسوا كلهم في السجون!؟ أرعبتني حقاً هذه الفوضى وجعلتني أركض كالتائهة.

٢٣ كانون الثاني ١٩٢٥

مقهى حديقة الصوفانية الذي زارته المؤلفة عام ١٩٢٥

يجب أن نعتقد بأن المسيح الموعود يؤدي في لبنان مقالب تفوق المعجزات:

فقد أخبرني بعض القادمين من بيروت بآخر أعمال الجنرال ساراي في هذا المجال وقالوا: «لما أراد ساراي أن يتخلص من الجنرال فاند نبرغ دعا المجلس الاستشاري اللبناني لأن ينتخب بدلاً عنه، كالسيد «كايلا» مثلاً الذي جند للإنتخابات كل أفراد عائلته وأقاربه وإن

جميع الانتخابات التي أجراها المجلس الاستشاري أسفرت عن نجاح شخصية لبنانية معروفة مما أدى الى صدور أمر بحل المجلس نهائياً، فمن كان يصدق ياترى بأن جنرالاً جمهورياً يصدر مثل هذا الأمر . . . ؟

ودمشق هذه الأيام تنتظر وصول هذا العاهل الجديد. ولهذه الغاية شيد جسر جديد فوق نهر بردى ليصل بين محطة الحجاز وفندق فيكتوريا الذي يماثل فندق «ريتز» عندنا في باريس .

ويبدو أن هذا الجسر مقدس فلا يجوز أن يمر عليه أحد قبل ذلك الرجل الذي ينظم لنا أقدارنا . . . ! وسوف يربطون شريطاً حريرياً على عرض هذا الطريق المقدس ليقوم «ساراي» بقص العقدة التي تؤمن له الخلود، تماماً كما كان يفعل الاسكندر الكبير . . . ! كل شيء ممكن هذه الأيام . . . !

٢٩ كانون الثاني ١٩٢٥

لم أحصل اليوم على جريدة «اوريان» لأنها أوقفت عن الصدور لمدة شهرين .

وقد ذكرت جريدة اليقظة منذ بضعة أيام بالأحرف الكبيرة هذه العبارة :

«لماذا نتكلم إذا كنا لانقول بكلامنا شيئاً . . . . !؟» وحملت نفس الرأي كل من صحيفة «الأرز» وصحيفة «الأحوال» وصحيفة «المعرض» وعلى هذا بقيت صحيفة «لاسيري» الناطقة باسم الفرنسيين هنا، وهذه لم تتوقف عن الصدور، وتنطبق عليها عبارة ڤولتير الشهيرة :

«اللهم احمني من أصدقائي، وأما أعدائي فأنا أتكفل بهم . . . !»

وحدث هذا كله بسبب (قضية الكلاب) التي جرت في لبنان، فقد وجهت بعض الانتقادات لمشاريع السيد «كايلا» الاصلاحية، فرد عليها بالمثل المعروف : «الكلاب تنبح والقافلة تسير» وبسبب وجود خصومة بين «كايلا» وبعض الشخصيات اللبنانية، فقد تصدت إحدى الصحف العربية للدفاع عن هؤلاء تحت عنوان كبير يقول : «حديث كلاب» فنشأت قضية الكلاب وأوقفت الصحيفة، وليلعن الله كل من يفكر بالسوء في هذا الأمر .

لكن . . . ! اللعنة على الشيطان . . ! لماذا يتدخل السوريون دوماً ويتحدثوا في القضايا التي تعنيهم . . !؟

٤ شباط ١٩٢٥

هذا هو اليوم العظيم، لكنه بدأ وكأنه مساء مظلم لأن رجال الشرطة قمعوا مظاهرة كبرى سبقت وصول الجنرال ساراي "SARRAIL" وبرغم هذا فقد بدت مظاهر الاحتفال في كل مكان من المدينة وزينت دمشق بحلة العيد منذ الصباح. ونصبت الأعلام في الشوارع وأصبح بوسع الناس المغلوب على أمرهم والمأسوري الحريةو التفكير أن يتعرفوا على شارة المثلث الذي يرمز الى الماسونية الفرنسية والمعلق في أعلى قوس النصر المنصوب في شارع بردى. . وفي تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر هذا اليوم كنت أقف على سطح أحد المنازل في حي الصالحية "SALEHIYE" وكنت من هناك أشرف على الشارع وعلى الأسطحة الأخرى اشرافاً تاماً كان في الشارع جماعات من الناس تنتظر الموكب الموعود وكانت الأرصفة شبه فارغة من المتفرجين الآخرين.

وأطلقت المدافع قنابلها بشكل موثر فتألقت في السماء الزرقاء بوميض ساطع غريب أنار جبل قاسيون بلون قاتم فاقع وأخيراً وصل الموكب ورأيت الجنرال ساراي يقص بيده الشريط الحريري هناك، أمامنا فالمرء يشعر بريبة لا يستطيع الجنرال أن يفعل لأجله شيئاً. ومقابل ذلك الشارع من اتجاهنا كان أفراد كتيبة الخيالة يجلسون على الرصيف ويتحلقون حول علمهم الأخضر وهم ينتظرون وصول سيادته. وسرعان ماصدرت الايعازات بصوت قوي فرأيناهم يمتطون جيادهم بخفة السنجاب ويتهيؤن، ونزلت من مرصدي العالي فرأيتهم على ظهور جيادهم وصل السعاة مسرعين كالعاصفة ودوت المدافع من جديد وتبعهم فرسان «الحرس السوري» بملابسهم الصفراء «الكاكي» "KAKI" الملونة بالفضي والأحمر، وعيونهم عاتمة تحت «قلابقهم» "KOLBAK" السوداء وخلفهم مفرزة الخيالة الفرنسية "SPAHIS" وهم جنود عجيبون يرتدون معاطف واسعة تخفق كالرايات وشالات الزينة، لكن. . . ! ماهو ذلك الشيء العجيب الذي يبدو أن هذا الموكب يطارده. . ؟ خلف هذه الزوبعة من الخيول الجامحة كانت تسير بسرعة سيارة الجنرال المنتظر، الذي كنت أظنه مازال بعيداً. . ! لكنه كان يقف في سيارته بزيه العسكري البراق الساحر، ويطل منه وجهه المكدود بلون القرميد يعترضه شاربان أبيضان وكان رأسه صغيراً وسحنته قاسية ونظر إلي بتمعن بعينيه الثاقبتين وكان في نظرته ريبة وفضول ملحين عندما رفعت ألة الكوداك التي أحملها كي ألتقط له بعض الصور.

ومن الواجب أن أقول هنا بأنه لم تبدر من جمهور المتفرجين أية تحية أو هتاف استقبالي

حميم أو حتى ابتسامة صغيرة تعبر عن الفرح بوصوله، لكن خيم على الجميع صمت جنائزي لم تكن تعكره إلا أصوات حوافر خيول المفرزة الفرنسية «سباهي» "SPAHIS" (١) الذين كانوا يرافقون الموكب، وقد أطلق لها فرسانها العنان. ثم مرت العربات الأخرى مليئة بالضباط ذوي الأشرطة المذهبة والأوسمة المتلاطمة، وآخرون ذوي الطرابيش والعمامات البيضاء المتنفعين. لكن هذا كله لم يحظ باهتمامي ففي تلك اللحظة شاهدت منظراً حماسياً بدا به الموكب الرسمي أمامه خامداً يدعو للهزء فإن هذا المشهد أعادني عدة قرون الى الوراء

فتخيلت نفسي وكأني أشاهد دخول جيش عمر بن الخطاب الى دمشق مفترضة عدم وجود هذه الأبنية الحضارية الضخمة وأعمدة البرق الحديثة، وذلك هو المشهد: سمعت صراخاً حاداً ينبعث من مكان ما، وشاهدت الرؤوس البشرية تتقدم لترى عن قرب ذلك المشهد الغريب. فخلف علم أخضر يعلوه هلال كانت الجياد الجميلة تسير وتصهل وتضرب الأرض بحوافرها وقد امتطاها فرسان (٢) يرتدون عباءات من الحرير المطرز بالذهب وبألوان بنفسجية فاقعة أو قرميدية يخفون أفواههم بالكوفيات "KEFFIYEHS" والعمائم "ECHARPES" واستل هؤلاء سيفوهم الفولاذية البراقة وهم ينظرون الى الجمهور بعيونهم القاسية بفخر وزهو وراحوا يتدافعون ويتزاحمون بطريقة فوضوية عشوائية لكن بحماس يجعلنا نقارن قواتهم الغريزية العفوية التي لاتقاوم بالنظام المتجلد المقيد الذي يسير عليه الغرب وقام هؤلاء بعرض جميل آخاذ يشبه عرض الجند الذي كان يجري قديماً، وفيه بعثاً لتاريخهم المجيد المليء بالمآثر. وبعد مرور هؤلاء صار الجمهور ينشد أناشيد حماسية وهي غناء غريب يذكرنا في رتابته ولحنه بأغاني البرابرة وأشار الي الشروال (٣) جاري بأن أنظر الى ذاك المشهد: (بحر متلاطم يتقدم منا بمظهر غريب مذهل)، وتراجع الشروال الى الخلف وهو يصرخ قائلاً: (الجمال... ! الجمال.. !) ياله من منظر بديع خيالي.. ! فقد اندفع موكب الجمال راكضاً.. حيوانات تتنفس قوة وهي تمد أعناقها الطويلة فتبدو شبيهة بالحيوانات الأسطورية المنقرضة.

كانت الجمال تتزاحم وتخب وهي تضرب الأرض في سيرها وتهز بإيقاع فوضوي وحركات عشوائية أجسامها وأجسام راكبيها المدهشين مثلها. وكان هؤلاء ينشدون أغان حزينة تشبه نواحاً جنائزياً أكثر من شبهها بالأناشيد الحماسية التي تؤدى عادة في الاستقبالات

---

(١) السباهي: كتيبة من المغاربة وقد تحدث عنهم ديغول في مذكراته
(٢) هؤلاء قد استؤجروا ودفع لهم الأجر لكي يظهروا في الموكب «المؤلفة»
(٣) أي شخص يرتدي الشروال "CHIROUAL"

والترحاب. وكانوا يرددون الأهزوجة المغناة الثلاثية الدرجات بحماس متزايد، وكلما رددوها أكثر كانو يقتربون من حالة التفاني لدرجة أنني تساءلت مندهشة مذعورة فيما إذا كانوا أثناء اقترابهم مني سيطيحون برأسي بضربة سيف عشوائية تلبي غريزتهم القتالية المتوارثة إذا مافقدوا زمام أنفسهم. فشعرت في تلك اللحظة بخوف وقلق لذيذين، ولم يهدئني سوى تفكيري بأن باب منزلي مفتوحاً وهو على مسافة خمس خطوات فقط خلفي وكل شيء في المشهد الذي كنت أراه، كان يتدافع ويتلاطم ثم يختفي بسرعة وسط غيمة كبيرة من الغبار.

وكان جبل قاسيون يعيد أصداء تلك الأصوات العجيبة. ولاريب أن الجن الذين يسكنوه سيدهشون حين يرون أن الطقوس التي كانت تجري عند دخول «الأمراء المسلمين الفاتحين إلى مدينة دمشق الطيبة قد انبعث من جديد للترحيب بشخص غريب. وقد ذهبت احدى صديقاتي الى حفل الاستقبال الذي أقيم في دار المندوبية وأخبرتني بعد ذلك بأن الحضور كان قليلاً جداً حتى أنها كانت السيدة الوحيدة التي حضرت الحفل.

الخميس ٥ شباط ١٩٢٥

لم أسمع صباح هذا اليوم إلا جلبة خيول في شارع الصالحية ترافق «السامي» في زياراته، ومن المقرر أن يزور هذا المساء قبر «عبدالقادر»[١] في جامع الشيخ محي الدين بن العربي وفيما كنت أراقب الشارع سمعت ضجة وصراخاً يقول: «هاهم..! هاقد جاؤوا...!» نعم إنهم فرسان الأمس يحملون علمهم الأخضر الذي كان يحمله شيخ جميل المحيا والطلعة وقور وفخور. وكان الباقون يسيرون خلف زعيمهم هذا ويهزجون بأنشودتهم المؤثرة الشديدة الروعة ويالشد ما أدهشتني حقاً لأني لم أستطع أن أمنع نفسي عن متابعتهم لدرجة أني لم أعد أعرف أين أسير فالتفتت فرأيت أننا ننعطف في حي الأكراد.

وفي حي الأكراد مجموعة منازل بدائية فقيرة وهنا المآذن بسيطة التعقيد تشبه تلك التي في صحارى افريقيا ويظللها الجبل الذي يعطي البعد الثالث لهذه اللوحة الفقيرة بلونه القاتم وأرضه المجدبة ويعتبر خط الحافلات العلامة الوحيدة للحياة العصرية في هذا الحي الفقير وعلى مسافة عدة خطوات منه ترى الجامع القديم وهو جامع الولي المبجل الشيخ محي الدين ويضم الجامع أيضاً ضريح عبد القادر صديق فرنسا لكن وياللأسف فإن هذا الضريح لايحوي

---

(١) المقصود هو عبدالقادر الجزائري.

رفاة الأمير الآن وفي هذا الحي لاتجد إلا المسلمين، المسلمين المتمسكين بتعاليم دينهم فقط. ولذا وجدت نفسي وحيدة تماماً بين مجموعة ضخمة من أهالي الحي ولاحظت أن هؤلاء فضوليين بعض الشيء لكنهم كانوا وقورين ومحبوبين أيضاً. وحين وصلت رأيت أرتالاً عرضية من الفرسان تصطف على طول الشارع الذي أضيئت جنباته بأنوار شد جميلة تنير السماء الرائعة الزرقة وهنا خيول جميلة مدربة من مختلف الأجناس والألوان يمتطيها فرسان ذوي وجوه مرد تعلوها الكوفيات البيضاء: عيون مخملية وألوان شديدة السمرة كوجوه العذارى المحاربات والحق أن أحدهم استرعى انتباهي بفضل شعره الأشقر وعينيه الخضراوين العجيبتين بلون مياه نهر بردى.

وشعرت بالتعب من وقوفي في أحد أركان الطريق لترقب كل هؤلاء فقدم لي أحد الرجال وهذه عادة الضيافة الثابتة عند هؤلاء كرسياً حمله من حانوت بائع صغير للأقمشة القطنية والأعلام المختلفة الألوان وأشار إلي أحدهم بأصابعه أنه يتوجب علي الانتظار ساعة أخرى لوصول الجنرال وبانتظاره كانت الحياة بكل صفوفها تتابع بشكل رتيب هنا. وكانت بعض المظاهر مضحكة تماماً. إذ كان الناس كما هو الحال في كل بلدان العالم يريدون المرور في الطريق مهما كلف الأمر متمردين على عناصر الحرس والشرطة الذين يحرسوه. وكانوا يختلقون شتى الأعذار والحجج أمام رجال «الحرس السوري» المسلحين الذي حاولوا عبثاً حفظ النظام وكان عامل التنظيف يقوم باللمسات الأخيرة على تنظيف الطريق المليء بالنتوءات والحفر ويستخدم مكنسة لم يبق من قشها إلا القليل القليل بسبب كثرة استعمالها.

والى جنب كتيبة الفرسان ذوو العلم الأخضر كانت تمر أحياناً الحمير الخجلى المضحكة تشكو من أصحابها الذي كانوا يضربون جوانبها بسيقانهم الطويلة.

وكان العديد من النساء المحجبات بألبستهن السوداء يحملن أطفالهن ذوي الألبسة الزاهية فوق أكتافهن، ويتوارين بسرعة كمجموعة النمل حين تحمل زادها.

وقد خرج من المسجد عجوز ورع نحيل الجسم طويل القامة يخفي رأسه بقبعة صوفية بنية اللون ويتكيء على عكازه الذي يشبه عكاز المسافرين، يمشي وهو يتمم ببعض الأدعية وبأصابعه يقلب سبحته المصنوعة من خشب الصندل ولم يدفعه الفضول أبداً للإهتمام بما حوله. وفي هذا الوقت مرت سيدة تقية ترتدي «الإزار» «وهو اللباس الشرعي الذي تطالب

بفرضه جماعة الاصلاح الديني» وتتوجه نحو المقبرة حاملة بين ذراعيها حزمة من نبات الآس لأن اليوم هو يوم الخميس وكان الجندي لطيفاً كيّساً في تأدية مهمته رغم أنه لم يستطع ايقاف حركة المرور نهائياً: وثمة امرأة عنيدة وولد مشاغب يتجولان هنا وهناك دون اطاعة الأوامر، وهذا العجوز القادم من الريف لم يفهم سبب منع المرور، ورغم التحذيرات والشتائم والإهانات التي صبت عليه إنه اجتاز الشارع بهيئته المبهورة.

وكان هناك أيضاً جمّالاً تضايق بعض الشيء من هذه الأبهات والاحتفالات فهدد الحرس بأنه سيحمل الزينات المنصوبة في الواجهات مع حزم الأخشاب المحملة على ظهر جمله إن لم يسمحوا له بالعبور.

بعد ذلك سمعنا أصوات مزامير فرقة الكشافة وتقدم فتيان الكشافة التابعين لحي الأكراد تبعهم مباشرة الموكب الرسمي بدراجاته وسياراته المثيرة للدهشة في هذه الطرقات المصنوعة أصلاً لترتع فيها الحمير والجمال المتأرجحة ومن جديد رأيت الوجه الأحمر ذا الشاربين الأبيضين يبرز من خلال البزة العسكرية الزرقاء الفاتحة، وخلف الجنرال «ساراي» رأيت الضابط المرافق مرتدياً خوذته العسكرية، ويتبعهم فرسان «السباهي» "SPAHIS" الذين امتد موكبهم على طول الشارع وهم يحملون سيوفهم اللامعة وتبع هؤلاء فرساننا الذين يرتدون الكوفيات وتلتهم عربات أخرى عديدة، وفي واحدة من هذه العربات رأيت رجلين ضخمين يزينان أكمامهما بالشرائط ويجاهدان ما أمكنهما للاحتفاظ بمظهر يتناسب مع ضخامتهما وصفوف الأوسمة التي يحملانها ولهذا فقد اضطرا لأن يتمددا في مقاعدهما متصلبين وكأنهما مومياء مصرية في التابوت الأثري المزخرف وأصبح المشهد طريفاً للغاية حين زادت هيئة وقارهما المصطنعة، ولم يفت الجمهور الاستمتاع بهذا المشهد، فقد ضحكت النساء تحت أحجبتهن السوداء، أما الرجال بأجسادهم النحيلة الطويلة فقد ارتسمت على شفاههم ابتسامات السخرية لوقت قصير وفي سيارة أخرى رأيت بعض المدنيين محشورين كما يحشر السمك في العلب وعرفت واحداً منهم هو صاحب قصر العظم كان وجهه كئيباً ترتسم عليه علامات التقزز وبصحبته عدة رجال مقطبي الوجوه.

ومالت الشمس قبل غروبها ولم تعد تنير إلا قسم العلوي من مئذنة جامع الشيخ محي

الدين، ووقف على شرفتها العليا المؤذن وراح يدعو الناس إلى الصلاة [1] وبصوت متأرجح كان يرفرف بغرابة فوق ضجيج السيارات ووقع حوافر الخيول قبل أن يختلط بهما وهنا بدأ الجميع من رجال الوفد الرسميين يدخلون المسجد حيث استقبلهم الأمير سعيد [2] واغتنم هذه الفرصة عدد من النسوة المغطيات بالشراشف ليشاهدن السيارات عن قرب، وتدافعن وهن ينقنقن كالضفادع بينما اكتفى قسم آخر منهن بالاصطفاف فوق الاسطحة ثابتات مجللات بالسواد. فظهرن تحت السماء الزرقاء زرقة المعدن كأنهن دجاجات مصطفة في سيخ الشي.

وأخيراً خرج الجنرال «ساراي» وهتف له فرساننا لمدة قصيرة، ولأول مرة رأيته يرد التحية ويتكلم مع بعض السادة الوقورين قبل أن ينطلق الموكب في الشارع المجاور ويعود الهدوء من جديد يخيم على هذا المسجد الصغير وهنا رأيت العديد من المؤمنين يخلعون أحذيتهم ويدخلون لأداء صلواتهم التي أخرها الاحتفال وارتفع ضوء الهم عن الشمس العلوي "FLECHE" للمئذنة وأضاء قسماً من جبل قاسيون وبدا قبر هابيل في قمته وعادت إلى المياه ماكانت عليه في هذا الحي، وعادت الحمير الصغيرة تترنح والصبيان يركضون والزبائن يقصدون المحلات ويساومون أصحابها ومازالت المحلات مزينة بالسجاجيد التي علقت كزينة لاستقبال «صديق المسلمين» وأثناء عودتي عن طريق حي المهاجرين رأيت عربات كثيرة تقف أمام دار «المندوبية» ورأيت السيدة ساراي (وهي سيدة ذات مظهر محترم بشكل عام وتجيد القيام بدورها الصعب) تستقبل نساء المجتمع وترحب بهن. ورأيت بعض السيدات يخرجن من المندوبية بمنتهى الأبهة والزينة، ولفتت نظري اثنتان منهن مكحلتا العيون، فقد استئذنتا بالانصراف وودعتا بتحيات كلها تصنع وتزلف، ونزلتا بكبرياء من حي «الجسر» وهما تكادان تنفجران من شدة الفخار المزيف.

وفيما كنت عائدة الى منزلي رأيت موكب الجنرال الذي عاد من قصر العظم بلا شك، كان عائداً بهدوء بحيث لم يبد على وجوه المارة أي مظهر فضولي ولم يطلق أحد منهم أي هتاف.

---

(١) يتضح من هذه العبارة أن المؤلفة تعرف الكثير من ديننا الاسلامي.

(٢) الأمير سعيد الجزائري حفيد عبدالقادر الجزائري

٢٢ آذار ١٩٢٥

هناك قضية كبيرة وخطيرة تهتز لها دمشق كتلك القضية الكبرى التي هزت فرنسا من قبل وهي قضية شرقية بأسبابها ونتائجها، وتتعلق بأحد الرجال الأسياد الذين ركبوا في عربات الجنرال ساراي: وهو بكل بساطة المدير العام للشرطة. وقد سرق كيس الذهب من تاجر فرنسي كان يحاول تهريبه الى بغداد، واستعان لتحقيق سرقته هذه بأن رشى سائق السيارة.

وأسوأ مافي القضية هو أن مدير الشرطة هذا كان الصديق الحميم والمقرب من كبار موظفي الانتداب الفرنسي الذين عجزوا عن التخلص من مثل هذه العلاقات الخطيرة.

وباختصار شديد، فقد كشفت التحقيقات الجارية عن وجود شركاء وضحايا له في كل مكان وعلى هذا قام الشعب الذي كان يرتعب بالأمس من هذا الرجل بالثورة والاحتجاج ضده اليوم.

ولم تبق جريمة نكرة إلا وأُلصقت بهذا الرجل ونشرت الصحف العربية قوائم مطولة بهذه الجرائم وعلقت عليها بإسهاب، فأصبح رئيس شرطة الأمس لصاً شعبياً اليوم مثله مثل كبار نجوم الجريمة في مدينة «بيلفيل» BELLEVILLE فيما مضى.

لا أعرف عن هذا الشخص إلا مارأيته عنه في مآدب الطعام التي كانت تقام في دمشق. ولم يكن اهتمامي به آنذاك يتعدى الموضوعية وخصوصاً فيما يتعلق بالايضاحات التي تقدمها لي هذه القضية عن الحالة الفكرية لأبناء البلد السوري فمن خلال اطلاعي على الصحف المحلية هنا، لاحظتِ في صحيفتي «حط بالخرج» و «أبو النواس» وهما جريدتا الفكاهة في دمشق أنه يمكننا أن نرى فيلماً مضحكاً من ست لوحات لايخلو من الفائدة، وهو وثيقة مهمة لمعرفة الأفكار التي اتخذتها أفكارنا الغربية التي انتقلت من بلادنا الى هنا، وتوطنت في عقول الشرقيين: من رمزية قديمة لاتخلو من فساد الذوق، ولوحات ميلودرامية عفا عنها الزمنُ في بلادنا، وكل أنواع تفاهات الأدب المبتذل التي سممنا بها الشرق وأفكار هؤلاء وعقولهم: وبعبارة واحدة: هذا هو كل ما أخذوه عنا أو تأثروا به (١) ولو قدر لأي منا أن يستمع الى

(١) منذ العام ١٩٢٥ كانت المؤلفة إليس بوللو تحمل لنا الرؤية الصحيحة والأفكار الاصلاحية الصحيحة الكفيلة بتطوير مجتمعنا وتريد المؤلفة أن تقول: أنه علينا أن نبدأمن حيث انتهوا هم لامن حيث بدأوا وهذا في كل المجالات: الفنون والآداب والفكر والصناعة.. الخ ونحن اليوم بحاجة لتطبيق هذا المبدأ بالذات، وترى أن أعظم المفكرين العرب المعاصرين ينادون به «المترجم»

القصائد والأغاني بل حتى الانتقادات التي يستوحونها من عبقرية قومهم وأسلافهم، لاعترف بأنهم قد خسروا فعلاً في عملية التبادل الثقافي هذه [١]

٢٥ آذار ١٩٢٥

حل الربيع وتفتحت الورود حزم وطاقات تزين دمشق هنا وهناك . . وفي هذا الوقت تقوم الرقابة بفتح الرسائل الشخصية أيضاً هذا الصباح تلقيت خطاباً ورأيت أنه مفتوح بسذاجة وسخافة وقد أعيد لصقه بطريقة واضحة: وكانت الأوراق داخل المغلف مطوية بسرعة بطريقة أخرى وغير مرتبة، وكأنها أغلقت على عجل . . أما الخطابات التي أرسلها، فإنها لاتصل إلا بعد مدة طويلة .

٩ نيسان ١٩٢٥

اليوم تعرضنا أنا واللورد بلفور للاشتراك في مغامرة صغيرة وقد انتهت مغامرتي بشكل أفضل فقد كنت في بلدة دمر وداهمني الليل وتُهت بين الجبال الوعرة في مكان مغلق، وقد تكرم بمساعدتي بعض فلاحي قرية دمر الذين أروني طريقي الصحيح وتكرموا فوق ذلك بتسليمي الى عربجي "ARBAJI"[٢] منهم ليقلني الى دمشق .

إن بساطة أهل دمر المحببة وعنايتهم الساذجة بي وكرمهم وضيافتهم أمور أثرت بي كل التأثير ياله من شعب طيب بطبيعته . . ! شعب مضياف وأهل للثقة . ويشعر هؤلاء بسعادة الكبيرة عندما تدخل بيوتهم ويقدمون لك فنجان القهوة الصغير ويسألونك : (هل أنت مبصوطة؟) . فإذا أجبتهم بالايجاب ابتسموا لك وفرحوا وهنأوا أنفسهم على ذلك .

---

(١)- لاحظت المؤلفة بلا شك غنى الشعر العربي قديمه وحديثه وغنى التراث العربي الأصيل وأنه كفيل بالفخر والاعتزاز لكل عربي، وأنه لاحاجة لنا نحن أبداً بتقليد الغرب واستعارة الصور الزائفة منه . واليوم وبعد مضي حوالي مئة سنة على كتاب «إليس بوللو» هذا نرى أن كبار المفكرين العرب تخصصوا في هذا الموضوع بالذات «التراث والمعاصرة والتبادل الثقافي ومن أين نبدأ، على أننا لم نبدأ بعد حتى هذا اليوم» وهم الدكتور محمد عابد الجابري . د. طيب تيزيني . د. سمير الأمين فهمي هويدي وغيرهم . لكن . . . ! ماذا سيكون شأننا اليوم لو أننا منذ ذلك الزمن أخذنا برأي إليس بوللو؟ وهنا يتضح لنا الوعي الكبير عند المؤلفة وجهل الآخرين (. . . . .) في ذلك الوقت «المترجم»

(٢) وردت كلمة عربجي في الكتاب الأصلي باللفظ العربي "ARBAJI" دون أن تعلق المؤلفة عليها، ونلاحظ في هذا الكتاب أن المؤلفة قد استخدمت مئات الكلمات العربية الملفوظة باللهجة الشامية فهي تقول في الصفحة التالية : «أنت مبصوته؟» "ENTE MABSOUTA ?" «المترجم»

أما مغامرة «بللفور» فقد كانت تختلف بعض الشيء عن مغامرتي. فرغم أن الكثيرين نصحوه بعدم المجيء الى دمشق، فإنه غادر الصهاينة اليهود في فلسطين وتوجه الى دمشق وكان يأمل بحصول استقبال رسمي له، ولم يكن يتوقع بأنه سيقابل أهل الشام وجهاً لوجه وبما أنه من الواجب الحفاظ على سلامته، فقد سبقه قطار فرنسي مسلح ودخل الأراضي السورية وحرس قطاره الخاص من قبل الشرطة الذين تمركز خفير منهم في كل محطة، على طول سكة حديد (حيفا- دمشق) وسمعت أن أهالي حوران قد تدافعوا في درعا لرؤيته بفضول ممزوج بعداء واضح.

وفي دمشق ذهب القنصل البريطاني «سمارت» الى محطة القدم ليستقبل «بللفور». وهناك ركب سيارته على الفور كي لايتعرض للبلبة والهتافات المعادية أثناء وصوله الى دمشق لكن تلك الاحتياطات لم تحل دون اجتماع جمهرة من الطلاب عند باب فندق فيكتوريا بعد أن سمعوا النبأ وجاؤوا ليُسقطوا «بللفور» «فليسقط بللفور!» هكذا كانت هتافاتهم بالاضافة الى عبارات أخرى مستحبة،

وقد فرقهم رجال الشرطة، والتئمت مظاهرتهم مرة أخرى واندفعوا بعنف باتجاه الفندق فخاف صاحبة المسكين على زجاج نوافذه وأسرع الى اغلاق المصاريع الخشبية واطفاء الأنوار وعندما تساقطت الأحجار على الفندق وعلى شرفاته وأبوابه وانتصب بين الجموع المحتشدة رجال يحملون شارات سوداء وألقوا كلمات مناسبة قوطعت بالتصفيق الحار وقد تدخل الجيش لايقاف هذا الاحتجاج ثم قام جنود «السباهي» الفرنسيون القساة باستخدام سيوفهم في عدة أماكن، وقيل أنه قد سقط عشرون جريحاً جراء ذلك ثم تم القبض على المتحمسين أكثر من غيرهم، وامتد الأمر الى أن أغلق الجامع الأموي الكبير ومُنِعَ الدخول اليه وأُغلقت المحال التجارية في الأسواق وابتدأ بالتحضير لمظاهرة كبرى لتقوم غداً، وبانتظار برنامج الاحتجاجات قام وفد من وجهاء الأهالي العقلاء بمقابلة اللورد ورجوه التفضل بعدم ايلائهم شرف البقاء في مدينتهم أكثر من مما بقي فيها. ولذا قام باستلام طريق «دمشق- بيروت» وبالسرعة الكلية غادر دمشق ولم يشعر بالهدوء إلا لما ركب قاطرته، ولاريب أنه سيظل يذكر دمشق طوال حياته...!

١٣ نيسان ١٩٢٥

أقيم اليوم قداس كنسي في كنسية الروم الكاثوليك حضره القناصل بمناسبة عيد الفصح، وطريق هذه الكنيسة ضيق موحل، وفي مدخلها باحة صغيرة ما إن دخلتها حتى شممت روائح عطرية غزيرة وسمعت أصوات الثرثرة تخرج من الأبواب إذ كانت فيها مجموعة من النسوة ينقنقن كسرب من الدجاج المحبوس.

كان الكهنة يرتدون ملابس حريرية بيضاء وأوشحة سوداء فبدوا وكأنهم راهبات ملثمات[١] وكان صبيان الجوقة يرتدون ملابس زرقاء فاتحة اللون.

وكان مظهر الكاهن الذي ترأس الطقوس غريباً حقاً بوقاره المصطنع وشعره الملمع بالدهون والذي يشبه شهر الدمية اليابانية، وإن خصلة شعره تشبه خصلة شعر «بارريه» الشهيرة وكان يزين صدره بمجموعة من الأوسمة المثيرة للضحك وبعصابة حمراء تشبه تلك التي يستعملها موظفوا (D.H. P)[٢] لفها حول ذراعه.

وعند المدخل قدم الى مندوب المفوضية العليا بطاقة شرف، فتلطف الضيف بقبولها، وصار يأتي بين وقت وآخر ليقدم له بكل اعتداد التحيات المبجلة.

وكان المنسينيور يجلس على عرش الاسقفية فبدا بمظهره ووجهه الارستقراطي، وبتعابيره الرزينة الحلوة كتمثال بيزنطي قديم يقوم على قاعدته.

أما رجالنا الرسميون فكانوا يجلسون وكأنهم يحضرون مسرحية كوميدية مسلية: وكان «رئيس الاتحاد السوري بلون وجهه المحمر ورأسه الذي يشبه رأس الكوميتادجي» COMITADjI

وكان المندوب السامي يحمل لبدة من الشعر تشبه لبدة الأسد، وبدا عليه التضايق والانزعاج الواضح إذ كان يفتح فمه بين لحظة وأخرى ويتثائب تثاؤبة كبيرة كحيوان جائع.

ويضاف الى هذين عدد من الضباط الكبار كانوا متضايقين نعسين، فأغمضوا عيونهم بلا خجل ليحلموا بالعبارة اللاتينية التقليدية التي تنتهي «تمت الصلاة» "L´ITE MISSA EST" وكان على هؤلاء أيضاً أن يقدموا آسفين بتجربتين أخريتين أيضاً. وهما الذهاب لتقبيل الإنجيل:

---

(١) نلاحظ هنا أن المؤلفة تنتقد رجال الدين المسيحي والمسيحيين بنفس الدرجة التي انتقدت فيها المسلمين «المترجم»

(٢) وردت العبارة كالتالي: (DAMAS- HAURAN- PROLOGEMENTS)

الجنرال سرايل في دمشق. هذا الرسم يمثل سرايل المفوض السامي بين رئيس الدولة السورية صبحي بك بركات وبطريرك الطائفة الأرثوذكسية غريغور يوس الرابع وبعض الأساقفة والكهنة

وهذا ما فعله المندوب السامي بكل سرعة حين اندفع بوجهه المتجهم وشجاعته اليائسة كي ينهي مهمته الصعبة المملة، ويجب أيضاً امساك الشموع أثناء عملية التقديس.

إذ نتذكر بأن الشموع ترمز الى الايمان العميق نلمس بأن هذا العمل، ليس سوى مهزلة كبرى وقد وزعت الشموع ضمن حزم صغيرة كان على كل شخص أن يشعل شمعته من شمعة جاره الأمر الذي سبب اتساخ القفازات البيض بالبقع الشمعية. وأمام هذا المشهد انتاب الخوف اثنين من ضباط الصف، فاتجها نحو باب الكنيسة بشكل عفوي. وظل أصحاب المناصب الرفيعة في أماكنهم مضطرين لذلك يحملون الشمعدانات في أيديهم دون أن يهتموا بما يجري حولهم.

وكان بين هولاء رجل عجوز ذو ذقن صهباء له هيئة «زعيم القوم»، ولم ينس أن يزين عروة ردائه بوردة الاكاديمية "L'ACADEMIE FRANCAISE" آه... ! كم من

اللحظات الحرجة تمر على هؤلاء الرجال الذين يمثلون فرنسا هنا، هؤلاء العلمانيين الذي يحضروا قداساً مسيحياً . . ! انتهى القداس وفرح الكهنة ورجال السلك القنصلي، وساروا رتلاً طويلاً تبعهم جمهور المصلين الى باحة الكنيسة، واصطفت النساء تشرفن من النوافذ ويزغردن للبطريارك، وهذا الحزام كان يمنع حدوث أي مكروه، لأن هؤلاء الحراس بشواربهم المشمعة بشكل جيد كانوا يشبهون صبيان الحلاقين أكثر من شبههم بالمحاربين الأشداء. فهم فلاحون مسيحيون يحتفلون بمطرانيتهم وينشدون باللغة العربية:

«نحن مسيحيون وسنبقى مسيحيون»

وكانت لهجة نشيدهم تشبه اللهجة التي يرتل بها المسلمون أناشيدهم الدينية، ترى هل يختلفون عنهم بشيء إذاً.

وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال حل حبر ناعم وذكي وبشوش محل المشهد البيزنطي الذي كان سائداً منذ لحظات. وفي الساحة جرت معارك طاحنة بين نفر من «الدونكيشوتية»(١) ذوي الطرابيش الذين كانوا يتبارزون بسيوفهم بوقار مصطنع وسط جمهور متحمس كان يزدحم عليهم بشكل مثقل.

ثم انصرف الاشخاص المهمون واهتزت سياراتهم وبينما كانت احداها تقلع وهي ممتلئة بجسد الرائد «الكوماندان» البدين للغاية هتف الجمهور بقوة. . لكن ماذا كانوا يقولون . . ؟ كانوا يقولون «الغزال! . . . . الغزال. . ! لقد ذهب الغزال (٢) وقد جاءت هذه المقارنة في غير محلها الأمر الذي أضحكني بشدة لدرجة أن المنشدين الوقورين وأولئك الذين كانوا يرافقونهم بالتصفيق وقفوا مذهولين بعض الوقت يتساءلون عن سبب ضحكي.

١٦ نيسان ١٩٢٥

حدث اليوم أن قص علي بعض العارفين كيف استقبل الجنرال «ساراي» في جبل الدروز وكيف كان استقباله فاتراً ولم يكن الناس هناك متحمسين وهناك أحد أفراد عائلة الأطرش واسمه «سلطان» وقد دبر عصياناً في الجبل سنة ١٩٢٢ في عهد الجنرال ويغان فقد قال بأن الدروز لم يحتفلوا إلا بالاستقلال.

---

(١) وردت الكلمة في النص الفرنسي : "DONQUICHOTTE" والمقصود بها فرقة العراضة الشامية المستأجرة التي تحدثت المؤلفة عنها فيما مضى.

(٢) وردت العبارة بالفرنسية وبالمعنى العربي : "ALGAZAL..! ALGAZAL..!"

قائد الثورة السورية العام سلطان باشا الأطرش

٣ ايار ١٩٢٥

طوال الخمسة عشرة يوماً الأخيرة سرت ضجة صامتة وهي عبارة عن اشاعات تناقلت سراً وكلها تقول بأن الجبل يعيش في حالة غليان شعبي يثير القلق رغم المظاهرة الأخيرة التي جرت لتأييد الفرنسيين.

والحق أن السبب في ذلك كله هو سوء تصرف الحاكم الفرنسي السيد «كاربيالة» وتحدثت الصحف العربية التي حصلت عليها عن المظاهر العامة لهذه الحالة فتم مصادرتها من الأسواق، ولكن، الصحف المصرية ذكرتها بكل حرية.

ومساء هذا اليوم وفيما كنت عائدة من قرية دمر صادفت أمام التكية ثلاثة عمال مسلمين عائدين من أعمالهم وقد تفضل واحد منهم وهو الأصغر سنا بحمل عدة الرسم التي كنت متعبة منها وقد سألني هذا قائلاً:

- هل أنت انكليزية؟

فأجبته بقولي: - «لا فرنساوي» "La ! Fransaoui"

وعلى الفور انطفأت ابتسامته هو ورفاقه عندما سمعوا جوابي، وهذه هي الحال تجاه الفرنسيين منذ بعض الأيام.

وتكلم كبيرهم بعبارات حادة وأشار باصبعه الى جبل الدروز وقص أخباراً يتم التكتم عنها هنا في دمشق. ومن المحتمل أن يكون قد بالغ بعض الشيء. ولكن يكفي أن أسمع أنا ذلك من هؤلاء الأناس الذين يدل مظهرهم على الطيبة والذين ساعدوني بكل عفوية، حتى أتألم وكأن أحدهم كشف لي عاراً يلطخ شرف عائلتي.

١٠ آيار ١٩٢٥

احتفل جنود الحامية الفرنسية اليوم بعيد «جان دارك» وقاموا بنزهات على ضفاف بردى و «شمسياته» "SHIMMYS" وكانوا يرقصون في مرقص «اولمبيا» برفقة فتيات كاشفات الظهور، ولو أن «جان دارك» نفسها رأتهن لحطمت سيفها على ظهورهن.

كما وزينت المدينة بالأنوار المتلألئة والأعلام المرفرفة، وأطلقت المدافع قذائف مدوية للاحتفال البهيج.

وشاهدت عجوزاً من قرى غوطة دمشق يتمشى منذهلاً مما يراه ومعه أفراد أسرته الذين ظهر الخجل عليهم وارتبكوا بشكل مضحك.

ويمكن القول بصورة عامة أن حماس السكان لهذا العيد كان قليلاً وفاتراً، حتى أن الاحتفالات بدت كالصوت المنفرد يظهر عن بوق يدق في قاعة فارغة.

١٨ آيار ١٩٢٥

زرت اليوم بعض الصديقات المسلمات، وتحدثنا حول الاتجاهات الحالية في السياسية، ويظهر أن «ساراي» يميل نحو الحكم الفردي الاعتباطي، وقد اعترف اصدقاؤه القدامى بذلك هذه المرة لقد احتاروا كلهم من موقفه هذا إذ أنهم اناس بسطاء يعتقدون بأن على المرء أن ينفذ ما وعد به.

إلا أن أفراد حزب الشعب السوري لم يفهموا سبب هذا التحول الذي هو مع ذلك طبيعي للغاية، لأن مظهر التحرر الذي اتسمت به الايام الأولى لحكم الجنرال لم يكن يلائم طبيعته الأصيلة، إذ كان يبدو على الدوام وفي مختلف المناصب حريصاً على سلطته، وكل الأعمال التي قام بها في باديء الأمر كانت واسطة ووسيلة لمحاربة أسلافه، ولكنه لما لاحظ أنه يسير حسب نهج مزيف عاد الى طريقته الأولى.

١١ حزيران ١٩٢٢٥

دعيت الى حضور افتتاح احدى مدارس البنات في حي الصالحية. فلبيت الدعوة وهناك رأيت العديد من الشخصيات المرموقة مثل الدكتور شهبندر، والأمير سعيد الجزائري وبعض المشايخ المتحررين، ونفر من الصحفيين والعديد من نساء الشام، منهن الكاتبة المشهورة ماري عجمي، وكانت بين الحاضرات أيضاً سيدة بدينة محمرة الوجه وذات ملامح مسترجلة. وكانت ترتدي ملابس متعددة الألوان تكشف ذراعيها العاريين وكأنهما ذراعي مصارع الحلبات، وظلت تتفحصني طيلة الوقت الذي تكلمت فيه بهيئة غير ودية مع ابتسامة ساخرة،

مع أني لم أقل إلا كلمات بريئة قليلة تفضل السيد توفيق شامية بترجمتها ودار حديثي حول «أهمية تعليم المرأة في تطوير المجتمع ودرجة التطور التي يمكن أن تصل اليها المرأة في سورية اليوم».

ثم تكلمت بعد ذلك «عن عدم امكانية تلاؤم مناهج مدارس البنات الفرنسية مع طباع وتقاليد النساء الشرقيات» وضربت مثلاً على ذلك هو أن أية تغذية مهما كان مقدار فائدتها لايمكن أن تتلائم مع جميع الأجسام وفي هذا الموضوع قلت بالحرف الواحد:

«ليس من المستحسن أن نزود البنات السوريات بثقافة تفصلهن عن الوسط الذي يعشن فيه وتجعل منهن فرنسيات أو أميريكيات أو ايطاليات أو سويسريات، بل يجب أن يبقين مع تعلمهن الثقافة المدرسية نساء سوريات، فالإنسان كالنبات له جذوره التاريخية السابقة، وإذا زرعناه في غير مكانه نكون بهذا قد حرمناه من انتاج ثماره الخاصة به. وعلى هذا تكون وظيفة المثقف الأجنبي في سوريا هي بأن يدلي بالنصائح لا أن يحل محل الاساتذة الأصليين» (١)

وعندما قلت هذا المقطع سمعت كلمة «طيب» "TAIEB" عدة مرات لكن وجه السيدة قد أصبح كوجه الشيطان، ولم يزعجني ذلك أبداً.

ولما أنهيت كلامي شكرني الجميع، لكن علام شكروني ياترى..!؟؟ وقلت لهم مبتسمة:

«لكن هذه الأفكار منتشرة في فرنسا انتشار جدول الضرب!» فأجابوني همساً وبخوف وحذر:

«نعم! هذا صحيح، لكن هنا لا يمكن أن نقول ماتقولي...!»

فأذهلني كلامهم ولم أفهم سببه أبداً.

وهنا تقدمت السيدة المقتدرة، التي وصفتها وهي تضرب الأرض بقدميها بانزعاج، وسكت الجميع فوراً لأن هذه السيدة كما قيل لي كانت مستشارة «المعارف العامة» في دولتي دمشق وحلب، وعلمت أيضاً شيئاً كنت أتوقعه هو أن هذه السيدة وهي الآمر الناهي هنا كانت تدرس في احدى المدارس الابتدائية في قرى فرنسا ثم وبقفزة واحدة اجتازت كل

(١) تتحدث المؤلفة بوضوح عن ضرورة ارتباط نهضتنا بتراثنا القديم، وهذا مايدعى اليوم بالتراث والمعاصرة. ومعروف أن تطور اليابان قد قام مع المحافظة على التراث الفكري القديم.

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

المراحل والمرتبات الوظيفية وصارت مستشارة المعارف العامة هنا، وذلك كله طبعاً بفضل صلاة زوجها مستشار الشرطة الذي دفعها الى هذه القمة العالية. وصارت الآن تشير بآرائها على وزير المعارف السوري الذي يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة باريس.

١٣ حزيران ١٩٢٥

لقد كتبت الصحف العربية مقالات اعجاب عن محاضرتي تلك، وأمطرتني بالتحيات، وقيل لي إن هذه التحيات ستجلب لي النحس الأسود وقد أعجب الأمير سعيد الجزائري بحديثي المتحرر ودعاني لزيارته في حي العمارة، وفي طريقي تطوع السكان بعض لارشادي الى بيته الذي يقع في طريق ضيق على جانبيه بيوت كئيبة ذات واجهات قديمة وأبواب جديدة مزينة بنقوش حديثة.

كان الخادم ينتظرني عند مدخل البيت، فأدخلني اجتزنا عدة باحات قبل أن نصل الى فناء أبيض ناصع. وكان جدار الإيوان مزخرفاً ملوناً بمجموعة من الألوان الحية، وتحيط به أقواس عربية منحوتة وملونة بعناية وتعقيد. مازال في دمشق عمال مهرة يشتغلون بهذه الصنعة. وهؤلاء العمال ينهون اليوم في داخل المنزل تزيين سقف من سقوف ألف ليلة وليلة.. وهم الوحيدون الذي يعرفون سر صناعته. وهناك عدد من الفتيان يتعلمون منهم هذا الفن الخاص بمدينة دمشق، ذات القصور المليئة بالروائع الدفينة وفي فضاء البيت ترى قطعة مربعة من السماء الناصعة تظهر كالبلاطة من خلال فسحة الفناء وتزينها من وقت لآخر أسراب من الحمائم القادمة من الجامع الكبير المجاور وهنا ظهر رجل متوسط القامة، لايمكن

تقدير عمره بالضبط، وجهه مألوف مرهق بعض الشيء ولكن مظهره العام يفتن منذ اللحظة الأولى بتقاسيم وجهه الجميلة، وبتعابير الطيبة والبساطة التي تمس القلب قادني الأمير الى الصالة الكبرى لكي أحيي جده. وهناك اندهشت للغاية:

هذا الفصل من التاريخ كنت أحب أن أتوقف عنده طويلاً لما كنت صغيرة.. هاهي صورة الأمير عبدالقادر الجزائري الذي كنت أرى صوره في كتبي. معلقة على الجدار الأوسط للقاعة. وهناك لوحة متوسطة الجودة تتحدث عن معركة مقتة وهذه اللوحة الأخرى تمثل «احتلال سمالا» وهي نسخة طبق الأصل عن اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان الفرنسي الشهير «فرنيية» استطعت أن أميز فيها وجه اليهودي الهارب «روشيت» صاحب المصارف، وقد رسمت بطريقة هزلية لتكون خالدة للأجيال القادمة. وفي احدى الفترينات الزجاجية

رأيت الصليب الكبير لوسام جوقة الشرف. وسيفاً ذا قبضة ثمينة مقدم من نابليون الثالث، والبندقية الجميلة ذات الأخمص المزين بنقوش دمشقية وهي هدية من الملكة ڤكتوريا الى الأمير عبدالقادر الجزائري.

وقدم لنا الشاي المعطر بالعنبر، وأثناء ارتشافي كأسي الذي بدا لي كأنه ممزوجاً بماء الكولونيا كنت أراقب الأمير سعيد وأصغي إليه وأقارن بين خصاله الدالة على النبل والأصالة وطيبة قله وبساطته المحببة، وبين غلاظة وتعجرف وحماقة موظفي الانتداب وتخيلت أني أجد فرنسة ثانية هي فرنسا ما قبل الحرب وأني في زيارة لأحد الاصدقاء في حي هادئ من أحياء باريس القديمة، أو في احدى المدن الريفية الوادعة في فرنسا روى لي الأمير سعيد الكثيرعن حياته المليئة بالمغامرات. وتنكيل جمال باشا بأفراد عائلته، وخلافاته الشخصية مع الأتراك والانكليز ونفيه من دمشق الى فرنسا «المنتدبة حسب رأي الأمير» وليست هذه فرنسا التي عرفها الناس حتى ذلك الوقت فلقد أرهقت الشعب وجزأته خلافاً لتقاليدها. قال الأمير كل هذا دون أن يبدو على وجهه الغضب بل بمقدار كبير من الوقار فهذا الرجل الذي تألم كثيراً بسبب ظلم الآخرين ترك نفسه ينقاد لفلسفة هادئة تواكلية تجعل منه دوماً رجلاً طيباً.

يشعر الشخص وهو يتحدث مع هذا الأمير أنه رجل لايقدر على أن يفكر بشيء رديء أبداً ومن السهولة أن تلتمس روحه النبيلة.

والحقيقة أنني شعرت بنوع من الخجل لما سمعت هذا الأمير ابن الأمراء يطلب الحرية من بلادي التي يجب أن تكون آخر دولة يقدم اليها مثل هذا الطلب.

وفي ختام الزيارة شربنا فناجين القهوة على السطح الذي كانت تُرى منه مآذن الجامع الأموي الكبير وهي: «مئذنة سيدنا عيسى» «ومئذنة العروسة» «ومئذنة العربية».

ومن خلال الاسطحة المتراصة المحروقة بأشعة الشمس. وعلى مسافات بعيد بدت جبال الحرمون تحت سماء مليئة بالغيوم «الكولوس» المتلهبة بأشعة الغروب.

وكان الجبل الكبير يقذف بقمته الحادة القاسية نحو الغرب، ولكن من الجهة الأخرى منه توجد النضارة والخضرة وروعة البساتين.

وعدت في طريقي من تلك الزيارة. وقارنت بين استقبال هذا الأمير النبيل الذي يمكن أن يكون جديراً بالترفع عن الناس وبين استقبال أحد موظفي جمهوريتنا الديمقراطية التي تقوم

على مبدأ المساواة ذاك الموظف الذي يسمع منك ماتريد قوله في الردهة كي تكون المقابلة أقصر، بينما تجعلك زوجته المتكاسلة بدون خجل، تضطر للإنصراف ثم العودة لمقابلتها لأنها لم تنه زينتها بعد.

١٥ حزيران ١٩٢٥

قال لي السيد «أ- بيك» بأن الزعماء الدروز بعد أن نفذ صبرهم اغتنموا ذهاب حاكم مدينتهم «كاربيللية» بإجازة كي يطلبوا تغييره ويكون ذهابه ذهاباً بلا عودة، فأرسلهم بيلاطوس الى هيرودوس وبيلاطوس هنا هو «شيغللر» القنصل الفرنسي في دمشق الذي يقال بأنه كان يعرف منذ بضع أشهر أخبار هذه النزاعات عن طريق التقارير اليوميةالتي كان يرسها الى سفارته عدد كبير من ضباط المخابرات في الجبل وحسب ماجرى من قبل كان يريد لفلفة القضية، بهذا يمكن اعتباره أحد المسؤولين الكبار فيها. أما «بيلاطوس» الثاني في هذه القضية فهو السيد «برونيية» العضو في مجلس النواب الفرنسي والذي أرسل بمهمة خاصة الى سوريا، فقال هذا باستقبال الدروز في دمشق في الأيام الأخيرة واعترف لهم بأنه لايملك لهم لاحول ولا قوة فما هي الغاية ن وجوده هنا إذن. . . !؟ لقد أرسلهم بكل لطف الى «هيرودوس» وهو في هذه القضية الجنرال «ساراي» الموجود في بيروت والذي لايريد أبداً أن يعرف عن الأمر شيئاً. وعلى هذا لم يعد الدروز يعرفون بأي نبي جديد عليهم أن يؤمنوا. . . ! آه. . . كم كان عقابهم صارماً لأنهم طالبوا بتبديل الحاكم الفرنسي المعين على مدينتهم، وعوضاً عن أن يتفاهموا معه، وكانوا قادرين على ذلك إذ أن اتفاق ٤ اذار ١٩٢١ الذي نظم الحكم في جبل الدروز يعترف لهم بحق انتخاب حاكم درزي إذا رغبوا ذلك. واستعملوا هذا الحق حين انتخبوا حاكم لهم هو سليم الأطرش الذي كان أول حاكم لهم، لكن لما مات هذا الشخص لم يتمكنوا من تعيين خلف له، ففعلوا مثلما فعل الغاليون في قديم الزمان [١] حين اختلفوا فيما بينهم فدعوا «يوليوس قيصر» يتحكم بهم، وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصيدة «لافونتين» الشهيرة «الضفادع تطلب ملكاً»

تقول كلمات القصيدة:

«طلبت الضفادع ملكاً

---

(١) الغاليون "les gaulois" وهم سكان فرنسا القدماء.

فأرسل ملك الآلهة إليهن
طائر الكركي.
فراح هذا يقتلهن ويأكلهن
ويبتلعهن متى شاء
فاشتكت الضفادع لملك الآلهة
فقال لهن:
هذه هي رغبتكن
أليس من واجبنا التقيد بها؟
كان يتوجب عليكن من البداية
أن تحتفظن بحكومتكن
والآن وقد صرتم الى هذا المآل
عليكن أن ترضين
بهذا الملك الحاكم
خشية أن يأتيكن حاكم
أسوأ منه بكثير»

وقد قرأت هذه القصيدة لصديق هنا فقال لي: «إنها تشبه الواقع بشكل كبير، لأنها هي نفس الكلمات التي قالها نائب القنصل للدروز لما قابلوه».

١٧ حزيران ١٩٢٥

يقوم الجنرال ساراي هذا اليوم بنقل أثاث منزله وتغيير مسكنه. وقد ترك بيته الرسمي في الصالحية منتقلاً الى «قصر العظم» ويقول بعض الأشخاص بأنه قام بهذا العمل بدافع التوفير المالي ويقول آخرون ذلك كان بسبب الحذر والحيطة إذ يريد الجنرال «ساراي» أن يكون قريباً من القلعة المحمية. ومهما كان الأمر فقد عرض منزله للإيجار، ودخلت أنا لأشاهده فحسب، دون السعي أو الأمل باستئجاره.

تجولت في المنزل الجميل، فأعجبني أثاثه الدمشقي الرائع المزخرف بطريقة التنزيل والتعشيق، وعلمت أن هذا الأثاث هو من «الغنائم الحربية» وقد كان للملك فيصل عندما غادر دمشق ويغلب الظن أن الاستيلاء على أثاثه قد تم دون موافقته.

وفي مدرسة دار المعلمات في دمشق حدث نفس الشيء في حي الصالحية، كانت سيدة مسلمة قد أنشأت هذه الدار، وهي متشبعة بالمشاعر المتأججة، وقد تم ابعاد هذه السيدة عن المدرسة بتلفيق مؤامرات ومناورات وتهم بوليسية ضدها وحلت محلها زوجة مستشار الشرطة.

٢٥حزيران ١٩٢٥

شاهدت بأم عيني حادث هام في منزل بعض الأصدقاء هنا، وهذا الحادث قد هيأ لي التعرف على أحد أسباب سوء التفاهم الذي يتفاقم بين السوريون وأبناء وطني فلقد أتى ضابطان وسيدة صغيرة وهم فرنسيون لرؤية المنزل واستئجاره، فدخلوا المنزل وكأنهم فاتحين يقتحمون بلد معاد، وراحوا يتكلمون بصوت عال ولهجة مبتذلة عن كيفية تنظيم اقامتهم المقبلة في البيت دون أن يعيروا سيدة المنزل المستأجرة الحالية أي انتباه رغم انها تركت زوارها خصيصاً كي تريهم الغرف.

أما المرأة التي رافقتهم فقد كانت تنظر الى كل شيء باستخفاف وكأنها في سوق شعبي يبيع السمك.

ولما خرجوا ثلاثتهم، بعد أن حيوا باستعلاء، ارتفعت ضدهم صرخات استنكار كبرى فقيل:

«انظروا..!

هؤلاء الفرنسيين ليسوا سوى فلاحين...!

وصار الحاضرون يروون أحاديث عديدة عن قصص مماثلة لكن لم أكن بحاجة لتلك القصص كي أقتنع بسوء تصرف الفرنسيين هنا، فإن بعض ذكرياتي ومشاهداتي كانت كافية (ترى أهذه هي فرنسا حقاً؟!!

وهل هؤلاء هم فرنسيون حقاً..؟!؟.

ولكن كيف يمكن أن أُفهم أصدقائي الدمشقيين بأن سوريا قد وقعت في قبضة نفر من أبناء الحانات الوصوليين!!؟

أعتقد بأننا أفرغنا في سوريا قمامة بلدنا الفرنسي فواكه البرجوازية الجافة، وفواكه الطبقة الوسطى التي مازال في بلادنا فجة أكثر مما يمكن تحملها. ولو كان لدينا الاهتمام الكافي بهيبتنا

لما سمحنا لهؤلاء الذين لا يزالون في أولى مراحل المدنية أن يكونوا صورتنا المصدرة الى الخارج، والأسوأ من هذا كله هو أنهم هنا يحتلون أرفع المناصب الهامة وأن الفخار الذي يحملونه بسبب تسلطهم يصعد الى رؤوسهم فيُسكرهم، فيعتقدون بأنهم حكام مطلقوا التصرف، ويجب أن تسير أمامهم الجوقات والحرس أينما ساروا. فيثبتون بذلك أن الحس السليم والذوق ينقصانهم.

وذات مرة كان واحد من هؤلاء يطلب بأن نقدم إليه الأعذار المضحكة وقال:

«إني أمثل فرنسا هنا»

هذا مع أن وظيفته لم تكن أكثر من «كاتب محكمة» وشكله منفر للغاية، ولو أن كافروش نفسه [1] قد رآه لقال: «يا لتعاسة فرنسا»

وثمة آخرون يعبرون عن سلطتهم المطلقة بشكل غبي وساذج، وهذا مافعله أحد الضباط الفرنسيين، وكان عائداً برفقة سيدة الى دمشق وفي الطريق منع المسافرين من الدخول الى الحافلة التي هو فيها بحجة أنها محجوزة له، فاضطر هؤلاء الركاب للإنسحاب بهدوء وخوفاً من جنونه، ثم تقدم قسيس ذو مظهر بسيط يريد الدخول الى مقصورته، فطرده الضابط لكن القسيس لم يبالِ بالضابط وصعد إليها.

والغريب في هذه القصة هو أنه لما وصل القطار الى محطة دمشق استقبل القسيس باحترام زائد وحفاوة كبيرة من قبل العديد من الشخصيات، عرفهم ضابطنا: فهم رؤساءه من ذوي الرتب العليا فاضطر أن ينسل بوجهه الأسود من الباب المقابل، لأنه لم يكن يعتقد بأن زميله في رحلته هو أحد الوجوه المعتبرة تماماً في سوريا. إنه معيد في معهد بيروت الديني.

الحقيقة أن أكثر مواطني هنا هم مخجلين الى حد كبير وجاهلين لدرجة يرثى لها: فكل مايعرفونه عن الشرق لايتعدى معرفتهم لبعض الأمكنة العامة التي تتحدث عنها الصحف، وبعض المعلومات القليلة الثابتة والأفكار القديمة التي انتقلت من واحد الى آخر عبر الأحاديث العفوية وهؤلاء يأخذون بعض الحالات الخاصة ومنها يعممون أحكاماً عامة كما يفعل الأطفال الصغار والبدائيين الجاهلين.

والحق أن سذاجتهم مضحكة، فعندهم كل الطموح الذي نعذرهم عليه في أن يلعبوا أدوار الوجهاء واللطفاء والمهمين. لكنهم بقصر رؤيتهم يعتقدون بأن هذه الأدوار تتحقق فقط

---

(١)"CAVROCHE" بطل رواية البؤساء الشهيرة لمؤلفها فيكتور هوغو.

بتأدية بعض الحركات الساذجة بشكل آلي : كعملية تقبيل اليد مثلاً والتي يلجأون إليها مع آنساتهم بدون مناسبة .

فهل من الجائز الحكم على فرنسا من خلال هذا النموذج . . ؟ فالسوريون الذين عاشوا فيها يعرفون الحقيقة تمام المعرفة . ولكن الآخرين وهم الأكثر من عموم الشعب لايرتبطون بأية رابطة مع هذه القلة المختارة ولايعرفون الحقيقة .

وعندما نحاول اقناع هؤلاء بأننا في بلدنا نختلف تماماً عما يرونه هنا ، يسألونا ، وهم على حق ، عن السبب الذي يجعلنا نصدر الى بلدهم الانواع الرديئة . .

١٠ تموز ١٩٢٥

واليوم أيضاً قص علي بعض الناس أخباراً جديدة عن جبل الدروز . ويظهر أنه جرت هناك أحداثاً كثيرة خلال احتفال السويداء بالعيد لكن ضرب عليها الكتمان الشديد ، لأنها تتعارض مع التعليقات التي نشرتها الصحف الموالية للحكومة بحماس شديد .

سمعت أن نفراً من الشبان قد قاموا بشتم أحد مشايخ الدروز الموالين لفرنسا وبضرب أحد ضباط «كاربيللة» حين حاول التدخل وهذا شيء غريب لأنه سبق لهذا الضابط نفسه أن ضرب استاذاً لبنانياً في قاعة الصف نفسها . وقد جاء الاستاذ واشتكى ترى هل كان هذا الحادث انتقاماً أكثر من كونه عمل عدائي ضد الفرنسيين . . . ؟

أراد البعض أن يوهمني بهذا ، كما وأكد لي الرواة من جديد تلك القصة العجيبة عن أولئك المتنفذين الدروز الذين كتبوا الى ساراي طالبين منه تغيير حاكمهم الفرنسي ، لكن لم يتلقوا أي جواب منه .

وأعترف بأن هذا يخيب أملي ويجعلني أعيد النظر في جميع المفاهيم الفرنسية عن السلطة والعدالة والذوق السليم لأني جمح بي الخيال ، فتخيلت لو أن أبناء وطني يعامَلون بمثل هذه الطريقة السيئة في بلادهم . . ! إني أعرف تماماً ما الذي كانوا سيصنعونه لو أنهم تعرضوا لمثل هذه المعاملة فما علي إلا أن أقلب صفحات تاريخنا لمعرفة ذلك . أما إذا كنا غيورين الى هذا الحد على حريتنا ، فليس باستطاعتي أن أفسر بشكل مقبول سبب معاملتنا للدروز بهذا الشكل . . !

ترى ماالذي يفكر به الجنرال ساراي؟

وماهي دوافعه . . ؟

بالتأكيد وراء هذا الاصرار الأعمى على المتابعة في هذا النهج سرٌ أتمنى الوصول إليه، لأنه ليس في مقدور شخص سليم التفكير يحمل مسؤوليات كبيرة في السلطة والحكم وأنه وصل الى سن الخبرة والحكمة تماماً أن يصر على متابعة طريقة لسبب صبياني ويسبب ثورة برفضه طلباً بسيطاً بتغيير المسؤول في مركز ما.

مثل هذه التغييرات تحدث ببساطة وبسهولة في إدارات الدولة كلها، بل وحتى في توزيع الحقائب الوزارية كل ستة أشهر في فرنسا.

١٢ تموز ١٩٢٥

إن دمشق هادئة تماماً هذه الأيام، ولكن المشكلة الدرزية لاتزال حديث الناس والشاغل الأول لهم. لأن أهل الجبل كانوا دوماً على علاقات تجارية مع العاصمة. ونقل التجار المسيحيين العائدين من الجبل أخيراً أخباراً لاتصدق عن أعمال «كاربيليية»

وإذا كان لابد لنا من تمحص شهادات الشهود، فإنه من واجبي القول بأن بعض الأجانب، الذين كانوا يذهبون الى الدروز من وقت الى آخر، قد حدثوني عن التسلط الزائد الذي يقوم به الكابتين: «كاربيليية» وسواء كانت قصصهم حقيقية أم مزيفة فإنها تعطي على أية حال فكرة عن أساليبه وممارساته. ومما سمعته من أقوال الفرنسيين أنفسهم يمكنني أن أتصور «كاربيليية» كرجل نابغة وضع نصب عينيه اصلاح الجبل مهما كلف الأمر وبأسرع وقت ممكن وذلك حسب طريقته الخاصة ويمكن أن نسميه إذا أردنا «روبيسبيير» لكن بدون مقصلة ولا أناقة، أو هو داعية علماني يطوف البلاد الدرزية وهو يحمل في يده «النظام» عوضاً عن الانجيل. والحقيقة أنه حقق في الجبل أعمالاً هرقلية. فشق طرق السيارات والحفريات والأتربة وانشاء المتاحف والمدارس والتشجير، حفر الأنهار لاستجرار المياه من الجبل الى المدينة.

لكن هناك شيء لم يجسر هرقل على فعله رغم أنه كان من أنصاف الآلهة، وهو محاولة تغيير دولة متخلفة كفرنسا في عهد الملك هوغ كابيية الى دولة نصف جمهورية يقوم هو فيها بدور الديكتاتور ضمن مدة لاتزيد عن بضعة أشهر فقط.

ويقال أنه كان يستغل المنازعات القائمة بين أفراد العائلات الكبيرة لكي يوطد سلطته، وكان يرغم الجميع على تنفيذ القوانين الصارمة التي يصدرها ويفرض العقوبات على كل من يخالفها سواء كان هذا المخالف زعيم عشيرة أو مجرد «عتال» حمال بسيط، ومن هنا يظهر أنه

جاهل في فن حكم البشر أيضاً وإذا كانت العقوبات التي كان يفرضها صحيحة فإنها بهذه الحالة تكون مقطبة للهمم أيضاً ومثال ذلك ما فعله مع «فهد بيك الأطرش» وهو واحد من وجهاءا لجبل الكبار، حيث حكم عليه بتكسير الحجارة كواحد من عمال الطرق البسطاء. ولاشك بأنه استوحى هذا العقاب من «وحدات الأشغال التي خدم فيها من قبل» وقد حكم على رجال آخرون بالسجن في قبو الفحم، وكأنهم تلامذة الابتدائية المخطئون وعلى هذا يجب علينا ألا نندهش إذا سيطرت الأفكار السوداوية عليهم عند خروجهم من المعتقلات فمن الطبيعي أن يحدث ذلك لهم.

وثمة قصة أخرى مشهورة، هي قصة القط التي تشبه قصة «الام ميشيل» المعروفة إلا في نهايتها وهذه هي القصة كما رويت لي:

ضاع قط النقيب «الكابتين» ولم يناده من النافذة كما تقول الأغنية، لكنه بدلاً عن ذلك قام بفرض غرامة على سكان السويداء لا تتناسب أبداً مع جرم السرقة المفترض حدوثه. وكان هذا العمل مجرد مزاح من الدروز فحسب، لكنه مزاح يوضح عقلية كل من الحاكم والمحكوم وأخطر مافي الأمر هو أنه متهم بتحقير الزعماء أمام أفراد عشائرهم علنا ويمكن أنه قد قام بذلك بغير وعي مع حكامه التقليديين.

ولم يفكر كاربيللية المتهور بالأخطار التي تنجم عن هذا الموقف الذي اتخذه، ففي مجتمعاتنا الطبقية تتكاتف جميع السلطات، ويعتبر مهاجمة إحداها تهديماً للسلطات الأخرى وأن تمديدها يعرض سلطته بالذات للخطر. لقد قام كاربيللية بكل هذه الأعمال ليجعل نفسه بطلاً في أعين الدورز ومن الممكن أنه كان يتوجب عليه الإنتظار حتى تأتي إرادة التحرير من أوساط الشعب نفسه وذلك حين يصل إلى درجة أفضل في ميدان التطور. فماذا يعرف هذا الكابتين عن المشاعر الحقيقية للدروز...؟

وبعد تلك المرحلة الفردية العنيفة التي عاش بها هذا البلد على نطاق الفرد والعشيرة نجد أنه مازال ينقص سكانه الروح الجماعية بصورة ملحوظة ولذا فهم يختلفون باختلاف مصالحهم الخاصة.

ويبدو أنه يحكم على هذا الشعب من وجهة نظره الخاصة. وأراد أن يخلق جبل دروز جديد حسب أسلوبه الخاص الذي قد لايلائم البلد في هذه المرحلة بالذات.

لقد أراد أن يفلت صبياً شقياً من عقال التقاليد، لكي يفرض عليه تقاليد أخرى قد لاتناسبه أبداً. وبعقلية رجل يتقدم الدولة التي يحكمها بعدة قرون تخيل لهذه الدولة هدفاً ادعى أن سيحققه بصورة إرادية ولكن يظهر أن عملية تحقيقه لم يرافقها المقدار الكافي من حسن المحاكمة.

وإذا كانت الثورات الإجتماعية التي تحدث بسرعة وبفعل شخص واحد تبدو من قبيل المعجزات. فإنها بالمقابل تكون ثورات مصطنعة في غالب الأحيان. إنها تشبه ستاراً جديداً يغطي واجهة عتيقة وكل شيء يتشابه تحت هذا الستار، إنها مصطنعة لأنها تخرق من جهة قانون تطور الأشياء الذي يستلز أن يكون كل تبديل مجارياً لسنة التطور التدريجي ثم لأنها لاتأخذ بعين الإعتبار حالة الشغب الفكري.

إن الشعب الذي يبدو عليه أنه يتقبل بسرعة المفاهيم الجديدة لايعرف قوة المقاومة التي تراكمت عنده بفعل الوراثة والتقاليد والعادات فمثل هذه المقاومة قد تظهر أحياناً في ظروف سخيفة وتحدث ردود فعل قاسية وانتكاسات مفاجئة وإذا كان من الصعب تماماً القيام بتغييرات سريعة، حتى إذا كان القائم بها أحد عباقرة الشعب نفسه فكيف سيكون الحال إذا كان هذا «المجدد» من شعب آخر وعرق آخر وعنصر آخر... ! وله عقلية أخرى ويريد فوق هذا كله أن يحقق بمدة قصيرة لاتتجاوز بضع شهور فقط، درجة من التطور لم تصل إليها دول كبيرة أخرى مثل فرنسا إلابعد قرون عديدة... ؟!

إننا نستطيع دون خوف بأن نصرخ بوجه مثل هذا الرجل ونقول:

«أنت تقامر بحياتك... !»

الثلاثاء ١٤ تموز ١٩٢٥

اليوم هو العيد الوطني الفرنسي، وهنا بدت علائم الإبتهاج والاحتفال بهذه المناسبة قليلة هذا رغم المنصات التي نصبت في ساحة المرجة والألعاب النارية التي زينت في هذا المساء سماء دمشق وأنارته بنجوم جديدة سريعة الزوال، وكان المرح يبدو مصطنعاً بعض الشيء ولقد اعترف لي شاب «طيار» بأن المشكلة الدرزية تسير بصورة سيئة.

١٥ تموز ١٩٢٥

تأكدت اليوم من مصادر عديدة مؤثوقة بخبر شنيع جعلني أخجل إلى درجة أن الدم الأحمر صعد إلى جبيني وسبب لي دواراً واضطراباً لم أشعر به أبداً من قبل: بعد أن عاد زعماء الدروز من بيروت مخذولين قاموا بعقد اجتماع للمداولة في الجبل فخشي «ساراي» من حدوث اضطراب شعبي هناك واستدعى خمسة منهم إلى دمشق ليسمع مطالبهم، وبعد أن استجرهم بهذه الحجة جاء ثلاثة من زعمائهم، وأحدهم هو سلطان الأطرش وهنا قبض عليهم وأبعدهم إلى تدمر.

والحقيقة أن هذا الخبر هدّ قواي فلم أعد قادرة على مواجهة أصدقائي والرد على هذا الخبر. فإن العرب دقيقين تماماً بمايتعلق بشؤون الشرف والضيافة على الأخص، وقد عبرلي الكثيرون عن احتقارهم بشكل أثار حزني كثيراً.

وقال لي أحدهم:

«كنا حتى الآن في سوريا ننظر إلى عبارة «كلام فرنسي» على أنه يعني «كلام شرف» ولكننا الآن نعتبر «كلمة الشرف» الفرنسية لاتزيد قيمة عن كلمة الشرف البونية» وألاحظ بوضوح كيف أن هؤلاء يكنون تعابير الحنق، ويحاولون إخفاء وكبت هذه التعابير كي لاتظهر في وجوهم واضحة وتسبب لي مزيداً من الألم هذا مع أن «ساراي» لايعني كل فرنسا، ولكن كيف أستطيع أن أثبت لهم كل هذا..؟

١٧ تموز ١٩٢٥

قيل لي بأن الدروز عندما علموا بنبأ الخيانة التي جرت في دمشق، لم يفارقوا بنادقهم منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، وهذه هي الطائرات تذهب الأن كي تطر فوق الجبل وتعيد إلى ذهني سنة ١٩١٨ حين كانت الطائرات تحوم فوق باريس

١٩ تموز ١٩٢٥

يتحدث الناس في هذه الأيام عن الكلمة التي ألقاها «صبحي بيك بركات» رئيس الاتحاد السوري وبهذه المناسبة استطعت أن أتبين درجة البغض التي يكنها العرب له ولرجاله من الأتراك الذين يحميهم «ساراي» إن سياسته خالية من أي منطق لأن السوريون كانوا يعتمدون

علينا لنخلصهم من العثمانيين ورغم ذلك نرى اليوم جميع كل الوزراء في دمشق من الأتراك، بينما نجد وجهاء العرب مبعدين عن ميدان السياسية.

٢١ تموز ١٩٢٥

رأيت اليوم بيت الرئيس بركات في دمشق، وكان مزيناً بالأعلام ومحروساً بجنود «الحرس السوري» كانوا ببذاتهم المزركشة وقفازاتهم البيضاء التي يظهر أنها خلبت لهم هم أكثر من غيرهم. لأنهم كانوا يلقون عليها بين لحظة وأخرى نظرات مسرورة. هاهم الجنود الذين يحرسون بابه. . . !

ورافقوا رئيسهم إلى السرايا لكي يتلقى التهاني والشكر بمناسبة خطبته تلك وكانت الأعلام تخفق على امتداد شارع بردى وفي ساحة المرجة، وكانت السيارات تصل محملة بالجنرالات الفرنسيين لكن لم يكن هناك شخصيات سورية تقريباً ومن المدهش حقاً أن يجري احتفال رسمي لهذه المناسبة.

وقد انتشر خبراً أثناء النهار مفاده أن الدروز قد نصبوا كمين طوقوا به جنودنا الفرنسيين واستولوا على عدد من المصفحات وقتلوا ضابطاً برتبة كابتين وإن الفرنسيون أنفسهم يتبادلون هذا الخبر الذي صدموا به وهم يحتفلون بنفس اليوم بخطبة الرئيس السوري.

وعند المساء بدأ الجنود المساكين يمرون متعبين شاحبين وهم يرون رايات الفرح تخفق في السماء، بينما كان رفاق لهم يقومون بتشكيل حاجز أمام المتفرجين بدون أي حماس وقد سبب لي هذا كله الألم الكبير.

٢٤ تموز ١٩٢٥

اشتريت عدة صحف لأعرف الأخبار الهامة، لكن لم أجد فيها أي شيء إذ لم تحو إلا تعليقات لاصغيرة ولاكبيرة. وهنا في دمشق عرف اسم الكابتين القتيل وهو السيد «نورمان» ويقال الآن بأن السويداء كلها محاصرة تماماً، وأنها ستمون بواسطة الطائرات.

٢٩ حزيران ١٩٢٥

يخيم على أهالي دمشق قلق نفسي كبير وقد ساد المدينة هدوء يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة لأن المرء يشعر بأنه معرض لخطر خفي ويذكرني جو دمشق اليوم بمدن الخطوط

الخلفية الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى وهناك سائحتان أجنبيتان في دمشق خافتا من البقاء هنا، واختصرتا الرحلة وسافرتا.

٢ آب ١٩٢٥

دعيت منذ مدة لزيارة مزرعة صغيرة على حدود الصحراء إذ دعتني صديقة لي تقيم في قرية «اس» وتبعد هذه القرية مسافة كبيرة عن دمشق، وفي الصباح انطلقت لزيارتها في السيارة، وكان السائق أرمنياً من سوريا، حدثني هذا الرجل وحاول منذ البداية أن يستغلني ولكنه ابتسم بنعومة لما لاحظ أنني انتبهت لألاعيبه وفي طريقي توقفت ودخلت إلى استوديو المصور «ستيروني» لكي اشتري بعض الأفلام وهناك رأيت «سيرجانت» رقيباً يجلس كي يلتقط له المصور صوراً كما ورأيت منظراً شد انتباهي كثيراً ولاأدري لم بدالي جنائزياً. . . . بل بالأحرى أعرف ذلك تماماً إذ أنه كانت فوق إحدى الطاولات أكداساً من الأفلام المحمضة الموضوعة في مغلفاتها وتنتظر عبثاً مجيء أصحابها، لأن الجنود الذين سلموها للمصور منذ أثني عشر يوماً قد قتلوا كلهم في المعارك الأخيرة. . . . . ! نستطيع الآن أن نلمس نتائج هذا الفيض من البيانات الرسمية من المدينة. . وقد عدت إلى السيارة وقلبي منقبض إلى حد لايوصف فهناك قليل من الجنود فقط في المدينة اليوم، حتى أنه من الممكن القول بأن الجيش قد هجرها بكامله. . . وانطلقت السيارة بنا وراحت تعلو وتهبط في السهل الكبير المليء بالغبار. . . وخرجنا من الغوطة الظليلية ودخلنا طريق مليء بالحفر التي أحدثتها سيارات سابقة.

كان علينا الوصول إلى تلك المزرعة عبر حقول مليئة بالشقوق العميقة، وكانت الجمال تظهر أمامنا فجأة في كل مكان وكأنها كائنات من عالم آخر على مسافة بعيدة منا كانت ترتسم على سطح الأفق جبال الحرمون العملاقة التي كانت تبدو صغيرة لبعد المسافة وعلى مسافة أبعد نحو الشرق شاهدنا خط متعرج من الجبال أثار منظرها قلقي لأنه في تلك الجبال الزرقاء التي تبدو ببراءتها وحلاوتها كالحلم تدور معارك طاحنة ويسقط القتلى وتسيل الدماء. . . . وهي دماء أبناء وطني فرنسا. . !

٣ آب ١٩٢٥

على قمم سلسلة جبال لبنان الشرقية ظهر هذا الصباح رتل من الفرسان البدو، فكان منظرهم فوق أحصنتهم يشبه المشاهد التي تمثلها اللوحات القديمة وكانوا أربعة رجال دخلوا

إلى ساحة المنزل للقيام بزيارة. كان أكبرهم عجوز بعين واحدة ويستر الأخرى بعدسة سوداء لكن الذكاء يتفجر من العين السليمة الباقية والشخص الثاني طويل القامة نحيل الجسد، رأسه يشبه رأس بروتستانتي من القرن السادس عشر، وأنفه متناسقاً تماماً. والشخص الثالث أقصر منه وله هيأة برونزية ويظهر بوضوح لون أسنانه الناصع البياض، أما الشخص الرابع فهيئته متوحشة تماماً وقاسية ووجه قاس الملامح متوحش.

وعلى الفور جلبت لهم السجاجيد وأقداح الماء والسجائر لقد استقبلتهم سيدة المنزل بترحاب كبير وقدمت لهم كل مايلزمهم وظلت محتفظة بكرامتها كأية سيدة مجتمع محترمة ودار الحديث عن أخبار جبل الدروز والحرب التي سببت ثورة قبائل «الرولة» وكانوا يقولون كل مايعرفونه بحدة كبيرة يخيم عليها الأسى ويعدون على أصابعهم القرى التي تم تخزيبها وهم يرمونني بنظرات قلقة فتدخلت سيدة المنزل السيدة «ل. خانم» بكل ذوق وأثنت علي وأقنعتهم بأنني صديقة لها، وأن الفرنسيين «معادن» وليسوا كلهم سواء إذ يوجد في فرنسا بالمقابل أناس كرماء أيضاً فعلق العجوز على كلامها بوقار وقال:

«لم يدخل إلى بلادنا أي خير مع دخول هؤلاء» وقد صادق الباقون على ذلك بحركات إيمائية بأيديهم وبصوت قرقعة خفيفة باللسان وهذه الطريقة شائعة تماماً لديهم. وهكذا نجد الرأي العام يصبح ضدنا حتى عند أصدقائنا أنفسهم.

٤ آب ١٩٢٥

قررت أن أذهب إلى بيروت لزيارة بعض الأصدقاء الفرنسيين هناك ولقضاء بضعة أيام وقد جعلني أصدقائي هنا في دمشق أعدهم بأن أعود إليهم فهل هناك من يعتقد بأني أريد الهروب؟

كلا... ! بل العكس فهذا هو وقت البقاء هنا، وعلي أن اكتب وأجمع الوثائق لأن تلك التي تقدمها الصحف الرسمية هي على درجة من سوء النية بشكل لايمكن الإستشهاد به وتبقى الكلمة الأخيرة وكما يقول المثل الإنكليزي. للرجل الموجود في الشارع.

بيروت من ٥ إلى ١٩ آب ١٩٢٥

انطلقت سيارة الشوفرولية بنا إلى بيروت وكان معي سيدتان أميريكيتان لطيفتان بدا عليهما الفرح بنجاتهما من دمشق التي أصبحت خانقة بكل مافيها حتى هوائها خانق يتنفسه المرء بصعوبة وفهمت أنهما تريدان ركوب الباخرة من بيروت إلى أميريكا كان الطريق خالياً

من السيارات على طول القسم السوري وكانت أمامنا سيارة المندوب السامي تحمل سيدات بكامل زينتهن وقد رافق هذه السيارة العديد من فرسان «الحرس السوري» وقد تبارى سائقانا فيمن يسير بسرعة أكبر لكن سيارة «الشوفوولية» كانت دوماً السباقة حتى أن السيدتين الأميريكيتين قالتا ضاحكتين تعليقاً على ذلك :

«الشعب الأميريكي هو الأول في كل شيء»[1] يالها من مفاجأة طالعتنا في لبنان . . ! لبنان عالم آخر وشعب آخر . فالسلام السعيد يخيم على الجميع[2] والتقيت بجنود كثيرون ، وكانت هيآتهم هادئة مسترخية ، وبالمقابل كان الخطر يهيمن والقلق يخيم في الناحية الأخرى من سلسلة الجبال الحادة التي تلامس أفق البقاع وجعلني هذا الانطباع أفهم بشكل أحسن الحالة الفكرية للسكان هنا ، وخاصة الفرنسيين وقد وصلت مضطربة للغاية وغاضبة بسبب الفضائح التي لاحظت وجودها في دمشق وصلت شاهرة سيف مثل دون كيشوت عندما شهر رمحه ضد طوحين الهواء وصادفت أناساً من طراز «سانشوبانغا بلاسيد» SANCHO-PANGA- PLACIDES أناساً وادعين هادئين ومشغولين بقضاياهم البورجوازية الصغيرة كما هي الحال في فرنسا .

وقام أحد الاساتذة بشرح بيان صادر عن المفوضة العليا ودهش الفرنسيون الحاضرون أمام احتجاجاتي الكثيرة وقالوا بأنني الفرنسية الوحيدة التي تنقصها روح الوطنية لكن هيهات ياأصدقائي ممكن أن أكون الوحيدة التي تعرف ذلك ، لأنني أخذت معلوماتي من مصادر أخرى غير مكاتب السرايا الكبيرة ، لكن أنا الوحيدة التي تجرؤ على قول ماستعرفونه بعد مدة بسيطة والوحيدة التي تجرؤ على خرق ستار الكذب الذي يغلق الظلم ، ويمكن أيضاً أن أكون الوحيدة التي لم تدع نفسها ترتبط بالحبل الذي أنتم مقيدون به ها . . . ! مرحى لكم يا أصدقائي . . . ! قولوا لي فيما بيننا . . من هو الفرنسي أكثر فينا . . ؟

آمل أن يتمكن السوريون من الاجابة على هذا السؤال في يوم ما .

وفي الأيام الأخيرة حضرت عمليات إنزال الجنود في الميناء : إنهم جنود لطفاء لهم هيأة الأغراب وهم يتسكعون هنا! إنهم شبان فرنسيون صغار وخجلون بعض الشيء يبتسمون للفرنسية التي هي أنا ويبادلونها الحديث .

---

(١) نلاحظ روح الدعابة والمزاح عند المؤلفة .

(٢) نلاحظ حالة لبنان في العام ١٩٢٥ والمؤلفة تقارن ذلك مع الحال في سوريا ، ولهذا دلالات كثيرة .

إن الخدمة في الصليب الأحمر تجعل المرأة على مدى حياتها أماً روحية لجنود فرنسا الصغار. أما إذا كانت قد فقدت أخاً لها، كان يشبههم في الحرب، فعندها لاتستطيع رؤيتهم في بذاتهم الرسمية دون أن تعتريها القشعريرة كما وشعرت بأن هؤلاء الشبان الصغار قلقون من شيء ما هذا بعد ماقيلت لهم أشياء سخيفة مضحكة للغاية، لاأستبعد أن تكون نظرتهم إلى سكان هذه البلاد الآن كنظرتهم إلى شعب «نيام- نيام» NIAM- NIAM ودمشق بالنسبة لهم: «دمشق مدينة متوحشة»، «الاسلام تعصب»، «الخداع الشرقي» أعرف كل هذه «الكليشيهات» التي يتبادلونها ولكنهم حسب العادة المتبعة لايعرفون شيئاً عن الحرب ولاعن السبب الذي يحاربون من أجله لقد حرصت كل الحرص على ألا أقول لهم ذلك إذ يتوجب علينا أن نبقي كل الثقة في قلوب أولئك الذين نتطلب منهم بذل التضحية.

أو كما قال جندي رزين شاحب اللون يعمل في فرقة الموسيقا يعتقد بأنه لم يُدع إلى الجندية كي يقوم بهذا العمل الجميل: «علينا ألا نناقش الواجب العسكري» وقد وكل هذا الجندي الفتي هو وزميله من عمره بأن يرافق قطار محمل بالمدافع والذخيرة إلى دمشق هذا المساء فأية مهزلة نقوم بها حين نسلمه آلات موسيقية كهذه !؟؟

وكان علي أن أُدخل إلى قلبه الثقة طبعاً وأهنئه على مهمته، ففعلت واجبي، ووصفت له دمشق على أنها قطعة من الفردوس وعند ذلك التمعت عيناه بالبشر والفضول. وسيتوجه هذا المساء إلى دمشق بقلب أكثر هدوءاً. أما أنا فقد غادرته والدموع تملأ عيني، فهو واحد من أبنائنا المساكين.

منذ بضعة أيام تقوم السلطات بجلب الكثير من الجرحى إلى هنا (١) وقد حدثت مواجهات عنيفة وخطرة في جبل الدروز يوم ٣ آب (٢) وهو اليوم الذي كنت فيه في قرية (سي) أواه.... ! أواه..... ! لهذا السبب إذن كنت أشعر في ذلك اليوم بحزن غريب لم أستطع قهره هنا فقط يمكن للأنباء أن تصل وأمافي دمشق فيسدل الكتمان على كل شيء وقد أسرّ إلي بعضهم بأن رتل الجنرال «ميشو» MICHAUD قد دمر تماماً وأن قافلة التموين قد سقطت بكاملها في مكان الكارثة نفسه. المشفى هنا مليء بالجرحى وكل الناس يتحدثون عن سفر الجنرال ساراي.

وأصر أصدقائي علي بالا أعود إلى دمشق لأن الحالة هناك قد أصبحت كما يدعون جد

---

(١) يتضح من هذا أن لبنان كان بلداً آمناً بالنسبة لجنود الاحتلال الفرنسي.

(٢) حدثت معركة المزرعة في هذا التاريخ.

خطيرة. . . وهذا يعني بالنسبة لي تماماً بأن وقت العودة إلى دمشق قد حان.

دمشق ٢٠ آب ١٩٢٥

لما عدت إلى منزلي في دمشق وجدته منهوباً، فاعتقدت بأن أعمال العداء قد ابتدأت وطالتني ولكن اكتشفت وبكل بساطة أن الشاب الأرمني الذي نقلني بسيارته إلى قرية «سى» هو الذي فعل ذلك. ولم أفتح حقيبة أو جاروراً إلا ولاحظت اختفاء بعض الأشياء بشكل لايتصوره العقل. . . !

لقد سرق كل شيء حتى مواسير الألوان المائية التي كنت أستخدمها و زجاجة ماء الكولونيا الخاصة بي، أخذها لكي يتمكن من استكمال زينته قبل الذهاب إلى الصلاة كما سبق وأن قال لي. سأقدم هذه التفاصيل الفريدة إلى القساوسة الحازمين المكلفين بوعظه.

٢١ آب ١٩٢٥

الحالة اليوم خطيرة حقاً، وقد أنذرني بعض الأشخاص باحتمال قيام الدروز بهجوم على دمشق ونصحوني بأن أسحب الودائع التي أملكها الموضوعة في المصرف.

٢٢ آب ١٩٢٥

يقولون في المدينة بشكل علني بأن الانكليز يموّنون الدروز ويعطونهم مقابل ليرة ذهبية واحدة بندقية ومائة طلقة وكيس دقيق.

لم أرى هذا بعيني، ولكن بإمكاني أن أتساءل إذا كان ذلك صحيحاً ثم ماهي الفوائد التي يمكن أن تحققها حليفتنا المتعاضدة معنا من تغذية النار المستعرة في الجبل حتى تعطي الدروز صفقة مربحة بهذا الشكل. . . . !؟

٢٣ آب ١٩٢٥

طوال هذا النهار ظل يخيم على حي الصالحية قلق واضح أثبتته لي آلاف الحوادث الصغيرة التي كنت أراقبها من شرفة منزلي.

وفي الليل لم أنم إلا بعين واحدة، لكي أتمكن من متابعة المراقبة بالعين الأخرى. والآن هاهو باب مبنى قيادة الشرطة يُطرق بكل شدة في منتصف الليل وتدوي هذه الطرقات في

الشوارع الهادئة: لقد جاء حوذي يشتكي من أن بعض الجنود قد ضربوه ضرباً مبرحاً. وأدهشني كثيراً أن حراس الأمن كانوا معه مهذبين بعض الشيء هذه المرة بالذات وإذاً. . . . فإن هناك شيء غير طبيعي وهذا يعني الحرب بالتأكيد.

٢٤ آب ١٩٢٥

استيقظت صباح اليوم على صوت غريب، إذ سمعت من مضجعي خبب الخيل الكثير، فاندفعت إلى الشرفة علني أرى الدروز أولئك الغيلان الذين يهددوننا بهم وهم يدخلون دمشق.

لكنني أخطأت الظن رأيت عدداً من الشبان يركضون بكل قواهم من أحد أركان شارع الصالحية إلى الركن الآخر فاندفع رجال الشرطة وراء هؤلاء وأوقفوا آخر رجل منهم عند وصوله إلى «الجسر» وسألوه.

- أنت أيها الرجل. . . ! ماذا يوجد. ؟

أعتقد بأنه خاف من سائليه بقدر خوفه من مطارديه إذ أنه تطلع إلى الخلف بهيأة مذعورة وقال:

- لاأدري. . . . ! لقد هرب البقية فهربت أنا أيضاً.

وإذاً فلولا مقابلة رجال الشرطة، لكان من الممكن لهؤلاء أن يظلوا راكضين حتى يصلوا إلى قمة جبل قاسيون. . . . . وإن سبب هذا الخوف الذي لم يكن له أي داع فهو بضع طلقات نارية صدرت عن القلعة عند دخول عدد من السجناء إليها، وأما هؤلاء الراكضين فقد جعلوا كل الناس من حولهم يعتقدون بأن الدروز قد دخلوا دمشق فعلاً والحقيقة أن الدروز قد زحفوا باتجاه دمشق اليوم ولكنهم صُدوا قبل الوصول إليها، وهم الآن كما سمعت، ينتظرون النجدات والحشود لكي يهاجمونا من عدة نقاط ويقال إن هدفهم من ذلك هو إخراج جنودنا من المدينة فحسب إن الموقف مخيف ومثير للقلق، لأن الحامية الفرنسية ليست قوية في هذا الوقت[1] وقد بدأ الجنود بتحصين «الميدان» بعد أن سدوا شوارعه بالأسلاك الشائكة وبنصب الخيام في أرجائه. وصار من المألوف أن ترى في شوارع المدينة أفراد الجيش يمرون باللباس الميداني الكامل وكان كاتب المحكمة البسيط يؤكد للحضور بمناسبة وبدون مناسبة، وبشيء من

(١) بتاريخ ٢٤ آب ١٩٢٥ حدث هجوم أهل الجبل لتحرير دمشق من المحتلين الفرنسيين.

الشجاعة الزائفة ، بأن الفرنسيين قد جمعوا براميل النفط لكي يحرقوا حي الميدان إذا ما حدثت أية اضطرابات لكن تصريحاته هذه وبسبب جهله ، أحدثت ردود فعل سيئة للغاية ، بينما كان هو يريد منها إثارة الرعب فحسب وقد شهد حي باب توما تحولات هامة طوال الأيام الثلاثة الأخيرة فالسكان يقضون لياليهم بخوف وقلق شديدين ساهرين لا يستطيعون النوم يشعرون بأن الدروز في كل مكان يهددونهم ، وقد استطاع الاطفال وحدهم أن يناموا وقامت السلطات بتوزيع البنادق على سكان الحي المسيحي وقال الحكماء هنا بأن هذا عمل خاطئ لأن البندقية في يد غير متزنة يمكن أن تسبب مذبحة كاملة . وقد أدهشني هذا الامر كثيراً ذلك لأنني أتردد كثيراً على بيوت المسلمين الذين يؤكدون لي على الدوام بأنهم يهتمون بحماية المسيحيين كل الاهتمام ، وأنهم لايريدون أن يمسوهم بأي ضرر ، ويؤكدون بأن هذه الحرب ليست حرباً دينية كمايريد البعض أن يصورها استجابة لمصالحه الشخصية ويقول المسلمون

- المسيحيون هم سوريون مثلنا .

وقد روى لي بعض السائقين العائدين من المزرعة والذين ذهبوا إلى المزرعة بمهمة تزويد قطعات الجيش بالماء بواسطة سيارات الرش العائدة لبلدية دمشق فقال : «إن مدير الاشغال العامة مسيو «فيبير» الذي كان يقود حملتهم قد تركهم يقعون في أيدي الدروز لكي ينجو بنفسه من هذا الكمين الخطر ، وذلك بعد أن خلع ملابسه العسكرية لكي يصعب تمييزه وباستيلائهم على السيارات فقد توجب علينا أن نتحمل الغبار طوال الصيف .

وإن السيد «صبحي بيك بركات» قد اتخذ زمام المبادرة فأصطحب شقيقته وأثاث منزله إلى بيروت وتبعه الوزراء لدرجة أنه لم تبقى في دمشق أية حكومة لاستقبال السادة الدروز لو أنهم أتوا لزيارتها من الجبل . . . !

كما وهجر دمشق كل نساء وبنات الضباط الفرنسيين تقريباً مع امتعتهن فأصبحت أنا وحيدة من جنسي أسير في شوارع المدينة .

الجمعة ٢٨ آب ١٩٢٥

مالهذا اليوم المظلم . . . ! يخيل إلي بأني أعيش في ظل ديكتاتورية «سيللا» حيث رأيت أحكام التوقيف والنفي تفرض بالجملة وقد اقتيد أغلب أصدقائي إلى «دار الشرطة ومنهم

الدكتور شهبندر الذي بوغت في «الزبداني» بينما كان يصطاد مع آل المؤيد. بينما أولاده الصغار اللطفاء يبدون حزانى وهم يشيرون إليّ من شرفة منزلهم إشارات صداقة كان يراقبها ويسجلها رجال الشرطة إذ أن مركزهم يقع بمحض الصدفة في مواجهتنا. ولأن اليوم هو الجمعة فإن السلطات تخاف من حدوث اضطرابات في الجامع الأموي. وصباح هذا اليوم قدمت من هذا الجامع احتجاجات على التوقيفات التي حصلت، فجمع عدد كبير من الجنود، قاموا بحراسة المسجد وبسبب الضرورة جمع الحجاب أيضاً: وهنا أرى من مكاني سيدات الصالحية الجميلات اللواتي استنفر أزواجهن بسبب الاستنفار القصوي وهن عدد قليل بقي في دمشق ولم يغادرها إلى بيروت أراهن يذهبن إلى صنابير الماء العامة بحركات كلها تصنع وتأفأف وكأنهن يردن أن يظهرن بأن الظروف وحدها هي التي أجبرتهن على القيام بمثل هذا العمل الوضيع الذي تأنف كرامتهن منه.

وسمعت أنه ستجري مظاهرات احتجاح كبيرة في المدينةاحتجاجاً على توقيف بعض شخصياتها، وعرفت أيضاً أسماء عدد كبير من هؤلاء الموقوفين لكن هذا أمر بعيد عن التصديق: إذ يوجد منهم أناس من جميع الانتماءات السياسية والمعتقدات الحزبية، الأمر الذي يدل بوضوح على أن الاحتجاجية هي حركة وطنية صرفة وقد تم إبعاد جميع هؤلاء إلى جزيرة أرواد حسب الاسلوب الذي يتبعه الإنكليز.

ومن بين هؤلاء السيد «د. بيك» الذي عاش في باريس عشر سنوات وظل على الدوام صديقاً لفرنسا وقد غضبت زوجته الجميلة المثقفة بثقافة فرنسا لدرجة أنها لم تعد تريد أن تتكلم بلغتنا بعد الآن.

ومن بين المعتقلين أيضاً أغلب الرجال الذين شكروني على تحرري يوم تكلمت فيهم في شهر حزيران الماضي وكان بينهم على الأخص وهذا ماحيرني تماماً. أقرباء مقربون للوطنيين من أصدقاء فرنسا الذين شنقهم جمال باشا في ساحة المرجة بتاريخ ٦ آيار ١٩١٦. وبهذا العمل تقلد فرنسا عدوها القديم وتحرم أولئك الذين نمت فيهم روح الحرية من هذه النعمة الكبيرة أما الذين استطاعوا الهرب من بين هؤلاء المطلوبين فقد توجهوا إلى فلسطين، وأصبحوا هناك «لاجئون».

ورغم أن بياناتنا الرسمية تتهمهم بالخيانة، فإننا نستطيع أن نهنئهم على كونهم أفضل التلاميذ الذين استفادوا من الثقافة التي تلقونها منا.

وكما قال لي أحدهم منذ بضعة أيام: «بوسع المرء أن يتعلم من تاريخكم الفرنسي نفسه كيف يستطيع أن ينتزع حريته».

٢٩ آب ١٩٢٥

لم يتقبل الرأي العام أبداً أحكام النفي التي صدرت بحق الرجال الوطنيين وبينما كنت أتجول في الأسواق هذا اليوم شعرت بحزن عميق عندما رأيت التجار الصغار الذين اعتادوا على تحيتي بابتسامة منهم، ينظرون إلي نظرة لؤم أو يعرضون عني بوجوههم وكأنهم لايعرفوني وذهبت إلى دار الحكومة لملاحقة قضية لي وهناك أيضاً سمعت في ردهات المبنى الموظفين يقرؤون الصحف بوجوه متجهمة ويتهامسون فيما بينهم عن أحكام النفي التي فرضها المفوض السامي، حتى أن أحدهم قال: «لقد فقد عقله!».

وهذا اليوم أيضاً رأيت حادثة محزنة تماماً: فلقد أقدمت أرملة شابة كان زوجها الضابط قد قتل أخيراً في الجبل، على بيع أثاث منزلها الصغير الذي أنشأته معه في دمشق وراحت تبيع الاثاث دون أسف وبسرعة كبيرة، لأنها لاتريد أن تحتفظ بأدنى شيء من هذه البلاد يذكرها بمصيبتها أو كما كانت تقول: «لاأريد أية ذكريات من سوريا» وليس بوسع المرء تجاه هذا الأمر إلا أن يقف مكتوف الأيدي، فلا يجد أية كلمة لتخفيف مثل هذا الألم العظيم.

٣٠ آب ١٩٢٥

لم أتلق أية رسالة منذ حوالي الشهرين، وأجهل مصير الرسائل التي أرسلها أنا رغم أني لا أكتب إلا بعبارات بسيطة كي تكون سلطات الرقابة الخفية رحمية بها.

أما الصحف التي تصلني، فكانت سلطات المقصات السحرية تقتطع منها مسبقاً المواضيع التي يحذر عليّ قراءتها. وذلك بالطبع وبرأيهم حفظاً على سلامة تفكيري!..

وإني على الدوام احتفظ في قرارة نفسي بعرفات الجميل نحو السلطة التي حبتني بعنايتها واهتمامها، وسأبقى على ذلك حتماً، وسأبرهن يوماً ما على هذا الشعور! ولكن...! ألست فرنسية..؟

نعم... فرنسية صافية الدم من فرنسا نفسها...!

ثم ألم أبرهن على وطنيتي حين خدمت وطني أثناء الحرب العالمية الأولى...؟

ألم أدفع من أفراد عائلتي ضريبة دم بعد أن دفعت ضريبة المال . . !؟ ألم أفرض على نفسي نفياً اختياريا إلى هذه البلاد كي أخدم بلادي على نفقتي الخاصة . . . ؟

أليس لي الحق باعتباري أحمل مثل هذه الأعباء بأن أشير إلى الأخطاء التي تحط من قدر بلادي وتلطخ شرفها والتي سنحمل كلنا مسؤوليتها أمام التاريخ، حتى ولو كان أغلب الفرنسيين مظلومين لأنهم لم يعلموا بهذه الأخطاء أبداً . . ؟ [1] أنا نفسي سأدفع بكل أسف كأي فرنسي ضريبة الحرب، ألن أجد آثار القذائف التي اطلقت في جبل الدروز منقوشة على ورقة الضرائب الخاصة بي . . . ؟ إن دم أبنائنا هولنا على الأخص نحن الأمهات والأخوات والزوجات الفرنسيات إنه يخصنا أكثر منكم أيها الرجال الذين لم تعلمكم الحرب التي نتحمل أحزانها اليوم شيئاً، (الحرب العالمية الأولى) وأما نحن ياسادة فقد اتفقنا على ألا يسيل الدم الفرنسي بعد اليوم بلاسبب وأنا إذن ولاشك بذلك، طرف في هذه المشاكل الدائرة في سوريا، والتي يقودنا إليها أناس ندفع لهم رواتبهم ونرسلهم نحن المواطنون الفرنسيون كي يمثلونا في هذه البلاد. وإذن! فإن لي الحق، كل الحق بأن أتدخل في القضية لأن من يدفع الحساب في النهاية هو أنا . . . وإذا كان شعبي في الجانب الآخر من البحر، فهو صاحب السيادة كما يقال، وإني هنا لن أترك صولجاني من يدي أبداً، أما الحذاء الذي سيستحقني فإنه لم يخرج من يد صانعه بعد ولن يخرج . . .

٦ أيلول ١٩٢٥

اعتدنا كل يوم بأن نتلقى الأخبار من ساحة المرجة، فهي في دمشق مثل «كاليري دوبالية» في باريسنا واليوم صادفت في ساحة المرجة صديقاً لي وسألته

- هل من جديد . . . ؟

فقال لي : - كير يللوس هنا . !

لكن هذا مستحيل فأين هو إذن . . . ؟

قال : - في فندق فيكتوريا بالذات وهل تريدين الذهاب لمقابلته . . ؟

- بالطبع وعلى الفور .

هذه فرصة مناسبة لأحظى بها مرة أخرى لمقابلة الصحفي الشجاع الشهير الذي جاء إلى

---

(١) بدأت المؤلفة تشعر بأنها هي في خطر، وأنها مهددة من السلطات الفرنسية فكيف تكون حالة السوريين . . . ؟

دمشق لينتشل الحقيقة من قعر البئر، حيث أغرقوها. وهو بالطبع لم يأت إلى دمشق ليقوم بجولة حول المدينة في سيارة مدير الشرطة ويأخذ معلومات صورية من بعض المكاتب الرسمية أنا أملك الحرية بأن أقابل السيد كير يللوس!

أليس كذلك..؟ لقد كان أصدقائي السوريون يقولون لي دوماً وبكل حسد: أنتم أحراراً و لاأذكر الآن اسم الذي قال: «الحرية تؤخذ ولاتعطي» ولذا صعدت بنشاط الطرقات الموصلة إلى فندق فيكتوريا ليستقبلني مديره بنظرات مرتبكة لم آلفها عندهم من قبل.

قلت بصوت عال رن في أرجاء صالة الاستقبال:

- السيد دو كيريللوس....!

وعند دوي هذه الكلمات استيقظت مخلوقات غريبة كانت نائمة تتمرغ على الأرائك واستدارت نحوي وجوه تشبه وجوه اللصوص من الدرجة الثالثة ونظرات تشبه نظرات ذلك الحيوان الذي يطلق عليه أهل الشام اسم «ابن آوى» ومدوا آذانهم نحوي... يألهي..!

أية طبقة مضحكة من الزبائن قد أمت اليوم فندق ريتز وفندق فيكتوريا ....؟ فأجابني رجل ضخم الجسم قصير القامة وقال...

- لقد خرج.

فقلت بحزم:

- حسناً سأنتظره إذاً.

وأخذت على نفسي عهداً بأن أقيم هنا على أحد مقاعد ردهات الفندق وأبقى مهما طال الوقت ولو بلا أكل أو شراب حتى أصل إلى غرضي وأفهم ذلك الرجل القصير القامة باصراري على مقابلة السيد (دوكير يللوس). غاب الرجل لمدة قصيرة ودار في طوابق الفندق ثم عاد وبرفقته صحفي بيروتي محبوب وسريع الإدراك فشرحت له كل ماأريد وسرعان ماظهر هنري دو كير يللوس. كان وجهه يدل على صغر سنه وكانت هيئته تشبه هيئه التلميذ الخجول الرزين وقد خيب مظهره في الوهله الأولى آمالي، لأني كنت أتخيله رجلاً ملتحياً ضخم الجثة يشبه «هيرقل» عندما أتى لينظف إسطبلات «أو غياس».

وقد أضحكني سؤاله الأول الذي ألقاه علي بعد أن طاف بنظره باتجاه الأرائك المتناثرة إذ قال وهو مشغول الذهن..:

- هل أنت موظفة . . ؟

فطمأنته وأدليت له بكل ما أعتقد بأنه يفيده في التحقيق الصحفي الرزين الذي يقوم به، ومن جهة أخرى كان يعرف مسبقاً أغلب هذه الأشياء.

وأخيراً، وعندما أردت الإنصراف تملكتني رغبة ملحة في أن أهزأ من هؤلاء المنبطحين على المقاعد المريحة في بهو الفندق، فقلت له بصوت عال:

- وهناك وصية ملحة تماماً ياسيد دو كيريللوس HENRY DE KERILLUS هي أن عليك أن تتفحص بكل دقة وعدة مرات في اليوم الواحد دواليب سيارتك . . ! فضحك كثيراً ضحكة حلوة كلها شباب مفعم بالحيوية وقال:

- آه . . . ! نعم . . . . نعم . . . ! اطمئني علي فلن يتمكنوا مني . . !

وبعد هذه المقابلة خيل إلي أني قد تنفست قليلاً هواء بلدي . .

٨ أيلول ١٩٢٥

فندق فكتوريا الكبير من الجنوب إلى الشمال في بدايات القرن العشرين
ويبدو جسر فكتوريا المشيد من الحديد المحكم، عام ١٩٢٦ والتي تتحدث عنه المؤلفة.

إن رجال الشرطة مستنفرون منذ قدوم السيد هنري دو كير يللوس، وهذا اليوم صادفته في شارع بردى، وكان بحراسة العديد من المرافقين، يمشون أمامه وخلفه وهم متنكرين، معتقدين بأنهم غير معروفين. ودار بهم في الشوارع لمدة طويلة لكي يتعبهم بلاشك وهاأنا أيضاً يحصل معي الشيء نفسه . . !

فهذا الثاني رجل مسن ذو لحية مشوبة بالبياض و زميله الاخر، يرافقاني في كل مكان وحتى على أبواب المنازل التي أدخلها وينتظراني حتى أخرج، بل إن الرجل المسن لم يستطع أن يمنع نفسه من ابتسامة ارتسمت على شفتيه لمارميته بنظرة غاضبة في الحافلة إنه شرطي ساذج، ولعله يتسلى كثيراً بالتفاهات التي يأمرونه بفعلها، أو بتلك التي يطلب من رفاقه القيام بها، كما حدث في ساعة متأخرة من الليل، عندما أتوا إلى بيت الراعي الأميريكي المستر بيشوب لمرافقة السيد دو كير يللوس، وقد دهش هذا الراعي كثيراً من هذا الطلب السخيف . . !

١٥ أيلول

اليوم دفنت جثة رئيس الهجانة الكابتين الشهير «ديكار بانتري» الذي قتله البدو من قبل وجرى الدفن بطقوس جميلة وحزينة لقد توالت الهجمات القوية منذ شهر تقريباً على طريق بغداد حتى أن السواح لم يعودوا يعبرون هذا الطريق، وأصبحوا يسافرون من طريق عمان، وفي هذا خسارة مادية للبلد وانتقاص من هيئتنا إذ لم نعد نرى كما في السنة الماضية أرتال السيارات عند باب «فيكتوريا» حتى أن طرقات سوريا الداخلية قد أصبحت خالية من المسافرين.

٢٩ أيلول ١٩٢٥

يبدو أن جميع سكان الريف قد جاؤوا إلى المدينة للإحتفال بالمولد النبوي، وهو عيد ميلاد الرسول «محمد» وبهذه المناسبة زُينت كافة المدينة بأغصان الزهور النضرة الجميلة، وبأشجار صغيرة تم اقتلاعها بقسوة من الريف الذي يحوي منها الكثير وفي كل مكان ترى الأقواس المصنوعة من الأغصان الموردة، أقامها أبناء الشعب المفطور على الذوق الفني الرفيع، وقد أخرجت من البيوت والمحلات السجاجيد الجميلة، وعلقت على الجدران

والواجهات تماماً كما كان يجري عندنا في موسم الأعياد الدينية FETE DIEU وترى أعلام الحافلات التي تمر هنا وهناك، كما أطلقت المدافع طلقات الفرح بالعيد، فسببت في البداية بعض القلق والذعر في هذه المدينة المليئة بالجنود المسلمين والقريبة جداً من جبهة المعارك الحقيقية وفي المساء أضيئت المساجد بالمصابيح الحمراء التي كانت تختلط بضوء القمر الرائع الذي جعل المدينة تبدو بزرقة رائعة كمدينة الأحلام في هذه الليلة سيقرأ المشايخ في كل مكان قصة مولد النبي وهذا مايشبه عندنا عيد ميلاد المسيح مع بعض الإختلاف.

أنا أكتب الآن ونبفس الوقت أسمع أصوات ضجيج الفرح الشعبي من مفرقعات وأسهم نارية يطلقها الأولاد، وحلجلة عربات مليئة بالمنشدين الفرحين تصعد باتجاه المهاجرين وهناك صوت قرع حوافر الخيل تقترب من بيتي مما يجعلني الآن أخرج إلى شرفتي: آ.... ! إنهم عناصر الشرطة من فرسان ومشاة راجلين ينسحبون مع مشاعلهم عند طلعة الجسر، ورغم أن انسحابهم قد تم بصمت كامل يدعو للضحك فقد تابعوا ألعابهم النارية الملونة بخبرة رائعة. يكاد لايوجد أي متفرج معجب بهذه الألعاب لامن النوافذ ولاعلى الطرق، وثمة البعض القليلون على الأرصفة يتفرجون دون أن تبدو منهم أية حركة أو صيحة ولما وصلوا في مفرق عرنوس وتوقفوا هناك قليلاً متابعين الفرح كانت زوجة الدكتور شهبندر وأولاده المرضى المسجونون في منزلهم منذ شهر كامل والممنوعون من استقبال أية زيارة من الأصدقاء أو الأقرباء، كانوا يتفرجون بأسى على التسالي التي يعرضها لهم حراسهم وقد تبرعت إحدى صديقاتي وهي طبيبة روسية مهاجرة أثّر بها وضعهم الحزين فقامت بزيارة لمنزلهم وطببتهم لكن السلطة حذّرتها بوضعها في السجن لوأقدمت على ذلك فعدلت عن مشروعها بعد ذلك التهديد.

٣٠ أيلول ١٩٢٥

دمشق حزينة هذه السنة بسبب الحرب التي تكدر الشعب ولهذا فإن الزينة ليست عامة كما هي العادة كل سنة، ويكاد لايوجد على الأبنية الحكومية إلا عدد قليل من الأعلام الخضراء والبيضاء وإذا أردنا أن نرى أفراحاً تشبه أفراح شعبنا في احتفالات العصور الوسطى فعلينا أن نفتش في ضواحي دمشق، لأن أهل دمشق اليوم يشبهون كثيراً وفي وجوه عديدة شعبنا في تلك العصور يصل الفلاحون إلى المدينة بواسطة عربات الجر وهم قادمون من القرى القريبة لكن أجمل شبان البدو الذين يقدمون عادة من أراضي حوران البعيدة: نحيلوا

الأجساد طويلوا الشعر يجدلونه ضفائر طويلة لامعة، أما أمراء الدروز فهم متكبرون متعالون يمتطون خيولهم الجميلة التي تلامس أذيالها الأرض وعيونهم فولاذية صافية بين حواجبهم السوداء، وعمائمهم البيضاء بياض الثلج كل هؤلاء سوف لايأتون إلى دمشق للاحتفال بالمولد النبوي لهذا العام . . ! وهذا العنصر المهم من عناصر اللون المحلي الذي يعبر وسط هذا الحشد المنظم من المحلات، عن كل الحياة البدائية الحرة لهذه الآفاق البعيدة من الصحراء ينقص ويفتقد إليه بصورة ملحوظة صغار التجار من أصحاب المحال الصغيرة، وقد تعرض الكثير منهم للإفلاس في هذا الوقت. ويظهر هذا الشعور بشكل بسيط في كثير من المحلات التي ابتدع أصحابها طرقاً بريئة ولكن معبرة في إقامة الزينة:

ففي أحد هذه المحال، مثلاً علقت على ارتفاع ثلاثة أمتار أو أكثر صور جميع محرري دمشق من خلفاء وقادة وشعراء عرب قدماء وفي وسط هذه المجموعة من الصور العربية الساذجة وضعت بعناية ولسبب لم أعرفه صورة مصطفى كمال أتاتورك والغاية من جميع هذه الصور العديدة لمشاهير العرب (١) القدماء والجدد كانت تتضح في لوحتين معلقتين مكتوب عليهما بالعربية: «النصر من عند الله» «الصبر مفتاح الفرج»(٢)

وتحت تلك الصورة علقت مجموعة جميلة من الاسلحة القديمة فوق سجادة رائعة من صنع بخارى. كنت أحاول فك رموز تلك الكتابة العربية، فنظر إلي البائع بثبات ولاشك أنه تساءل فيما بينه إذا كنت قد فهمت معناها . . . نعم! فهمته، ولكن لم يكن هناك أي شيء من هذا النوع في السنة الماضية وفي كل مكان كنت ترى الأسلحة المعلقة والتراس العربية الملفتة للأنظار تذكرك بأيام الحروب الطليبية وكانت الصورة تتكامل بعرض دروع قديمة صدئة، وفي سوق الطويلة ترى سراويل قديمة من الجلد المصفر المتآكل مماكان يرتدى سابقاً لأجل المبارزة بالسيوف.

وهذا المنظر يستعيد الماضي بشكل ممزوح بشيء من السخرية الحلوة لأن هذه الرموز الحربية لاتتلائم مع وجوه التجار الهادئة، وابتساماتهم الحلوة المرحبة وفناجينهم الصغيرة التي يصبون فيها القهوة المرة. KAOUA والأمر الذي لايمازجه أي شك هو أن صفات جدودهم

---

(١) هم مشاهير المسلمين.

(٢) Toute Victoire Vient dàllah

"la patience est la cléf de delivrance".

والتي هي في طور الركوض عندهم الآن، يمكن أن تنتهي إلى يقظة، إذ هل يمكن لأحد أن يعرف مقدار الحيوية الفائقة التي تركتها في روح هذا الشعب أجداد له تمكنوا في الماضي من اجتياز الأراضي الايبيرية ولن يكدر السيد «بيرتراند» قولنا بأن الجانب المتمدن في معركة «بواتييه» لم يكن الجانب الذي قاده «شارل مارتيل» (١) بأي حال من الأحوال. !.

جلست هذا المساء أفكر بذلك الأمر، وكنت في ساراي الحكومة وأنا اتفرج على مشهد عجيب، وكنت الفرنسية الوحيدة وسط تلك الجموع الغفيرة من الحشد المتلاطم من الناس إذ ازدحمت الطرابيش TARBOUCH وبدت من الأعلى وكأنها حبات الكرز في سلة، وبدت النساءكمجموعة من الأشباح الصغيرة المحجبة بالسواد وقد ملأت الأدراج الكبرى، ورفعن مناديلهن كي يشاهدن المنظر بشكل أفضل فظهرت وجوههن الجادة وعيونهن اللامعة.

وكانت مواكب الإحتفال التقليدية تصل الواحد بعد الآخر من جميع انحاء المدينة وهي ترتل الفاتحة LA FATIHA وتنير الموكب أنوار المشاعل المائلة للاحمرار التي يحملونها وضوء القمر الصافي البياض بلون الحليب ابتداءاً من ساحة المرجة وعلى امتداد نهر بردى كانت المواكب الممثلة لكل الأحياء تمر بالتتالي أمام دار الحكومة، وكلما وصل واحد من تلك الوفود كان رجاله يرفعون سيوفهم عالياً «ويلوحون بها» وكانت من مختلف الأشكال والأحجام، إذ يبرق معدنها بريقاً أخاذاً وسط ظلام هذه الليلة الشرقية البهيجة وكانت هذه السيوف تهتز في كل اتجاه وتلتقي ببعضها أحياناً فيعلو تصفيق الجماهير وكان المتفرجون يتراجعون لإفساح مكان على شكل دائرة يتبارز فيها محاربان من العراضة الوافدة وذهب هؤلاء لتحل محلهم عراضة أخرى وكان قائدها يركب فوق أكتاف رفاقه ويلقي الهتافات بحماس وأحياناً «الشتائم» فيردد الجميع وراءه بصوت واحد وبحماس زائد كان يزداد كلما تقدمت العراضة في مسيرها وكان هناك أيضاً موكب أطفال يقوده قائد صغير لهم، ويحمل هؤلاء سيوف قصيرة وكانوا يهزجون إفرادياً أو جماعياً بكلمات لطيفة مثلهم:

«مساء الخير، ولتكونوا محظوظين. !» (٢)

وضمن هذه المواكب كنت نرى مجموعة من العمائم (٣) الجميلة فيبدوا أصحابها وكأنهم قادة لها وقد مرت حتى الآن ستة... ثمانية، بل عشرة مواكب على هذا الشكل البديع،

---

(١) Charles Martel : ويعتبر في فرنسا قائداً وطنياً عظيماً وهو الذي انتصر على المسلمين في معركة بواتيية في فرنسا وتشير المؤلفة بوضوح إلى أن معركة بواتييه كانت خسارة للغرب، وأن المسلمين كانوا فيها أكثر تمدناً.

(٢) Bonsoir, la chance sait sur vous والعبارة الشامية المطابقة لهذا المعنى تكون: «مساء الخير مساء الخير» «الله يمسيكم بالخير»

(٣) Tets de cheihks

والآن يعم الحماس أكثر وتتقد القلوب فبعد أن مرت جميع وفود دمشق وأبوابها LESBABES هاهو وفد «الميدان» الرهيب يندفع إلى الأمام حاملاً مشاعله المتقدة وشرره عبر الريح، ويطلق في الفضاء عيارات نارية، التي من الممكن أن تصيب بسهولة إذا ماتاهت قبعات وعمرات السادة الكبار لكني لا أرى أحد من هؤلاء هنا[١]

وتتابعت الطلقات النارية، وتابع أبناء الميدان هتافاتهم المدوية، حتى أن الحاضر يتصور بأن شعلة النار تقترب من برميل بارود وهذا ماجعل بعض النسوة يهربن خائفات وهن يفتشن عن ملجأ لهن ولكن الميادنة LES MIDANAIS مروا كغيرهم، وتبعهم جميع الأشخاص المسالمين المحافظين وهم يرددون هتافات لا أعلم ماأهميتها وقام أحد الظرفاء باجتذاب التصفيق نحوه وبتحويل الهتافات إلى ضحك ومرح، حيث نادى مطالباً «بعروسة له» [٢] شابة حلوة، وهذا ماجعل الوجوه المقطبة تنفرج والجميع يضجون بالضحك وقد استمر مرور وفود. «الاسواق» «والابواب» ,BABES SOUKS وهي تهتف وتصخب لوقت طويل، حتى أنني لماغادرت المكان في ساعة متأخرة من ساعات تلك الأمسية كانت الجماهير الهادرة لاتزال تنتظر مرور بقية الوفود التي كانت تصل بلا انقطاع وإن الروح الدمشقية تتضح في هذه الاحتفالات التي تشبه احتفالات القرون الوسطى عندنا ويجب طبعاً ألا نهمل أثر التقاليد والوراثة و اضافة لذلك يوجد في الروح الشرقية نوع من التصوف القاسي الذي لانقدر نحن على خرق حجابه. فالجماهير تقوم أحياناً ببعض الأعمال التي تخيب معها تنبؤاتنا الحكيمة، حتى أن الفرد نفسه غالباً مايكون محيراً أيضا وإني استغرب حالة هؤلاء الصحفيين الفطاحل الواثقين من أنفسهم الذين يقومون بزيارة لاتزيد عن أربع وعشرين ساعة ويدعون بأنهم في هذه المدة القصيرة عرفوا كل شيء وقادرون على أن يعرفوا أهالي فرنسا بسوريا وشعبها، وذلك من خلال نص لايتجاوز عمودين من أعمدة الصحف والحقيقة أن

مشاعر قوية عاصفة كانت تسيطر على جماعة الراقصين بالسيوف، وقد انتقلت مشاعرهم هذه إلى جمهور الحاضرين وعلى هذا فإن الشعب السوري يحمل في روحه حماساً قوياً ساذجاً ويحمل معه أيضاً إيماناً متوهجاً وعميقاً وشعرت أيضاً وكأن قوة جامحة عمياء تتلاطم كمد البحر، محملة بكل آثار الماضي الذي لايزال حياً في قلوبهم، وإن ما أخافه فعلاً هو أن

---

(١) تقصد المؤلفة رؤوس الفرنسيين نساء ورجال مدنيين وعسكريين.

(٢) «ARROUSSA» وردت الكلمة بالعربية عروسة وعلقت عليها المؤلفة شارحة بأنه خطيبة FIANCEE

تتحد جميع هذه السيوف وتنقلب موجهة ضد أصدقاء الأمس.

معاذ الله ورسوله «Ne plaise a ALLAH ni a son prophete» أن يقوم تجار دمشق مالكي الأسواق الجذابون المهذبون بنزع «قنابيزهم» (١) ليرتدوا بدلا عنها دروع الحرب أو أن يحمل هؤلاء الدمشقيون الذين شعرت دوماً بمودتهم وحلاوة طباعهم الاتراس ليقوموا بألعاب أقل براءة من ألعاب «مولد النبي!» (٢)

١ تشرين الأول ١٩٢٥

لا أعتقد أني استطيع الوصف الحقيقي، فبينما كنا نعود الى بيوتنا، حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، كانت الجماهير الثائرة تمر من شارع السنجقدار أمام المقاهي الجميلة التي يؤمها بعض المسلمين، فيشربون ويدخنون، وقد قامت الجماهير بالهجوم على هذه المقاهي، وحطمت وكسرت كل شيء، على اعتبار أنه لايليق بالمسلمين الجلوس هنا للهو في يوم مقدس هو يوم «مولد النبي» وانتهى الأمر الى اغلاق المقاهي.

وقد أراد مفوض من الشرطة نزع مسدس أحد هؤلاء المهووسين، فتعرض لهجوم من رفاقه الكثيرون مما اضطره للالتجاء الى أحد الفنادق ليختبئ فيه، ولكن هؤلاء هاجموا الفندق أيضاً. ولقد أهين بعض الضباط والجنود علناً في شارع النصر وضمن هذه الحشود الكبيرة، كان بعض المتظاهرين يهتفون «تسقط فرنسا.. تسقط فرنسا..!» "A bas la France" وجرى ذلك على مسامع بعض كبار المسؤولين الذين جاؤوا لحضور الاحتفالات، وهذا ماسبب حدوث شغب وملاحقة والقبض على حوالي ثلاثين شخصاً منهم.

وبدون أن أعلم، فقد تعرضت للخطر على حياتي، فقد كان حوالي ألف شخص مسلحين ضمن المواكب ينادون ويهددون بأنهم سيطلقون النار على جميع الذين يلبسون القبعات والسيدرات والعمرات ويسعني هنا أن أنوه بالمعاملة الفائقة الحسن والعناية التي لقيتها إذ ذاك من المسلحين الذين كانوا حولي، فقد أخذتني النساء المحجبات من يدي بمودّة وأفسحن لي المجال للتقدم في الصف الأول، كي أرى بصورة أفضل، وفي لحظة من لحظات خوفي قام عدد من الشبان السوريون اللطفاء بالإحاطة بي وحمايتي، بل إنهم جلبوا لي مقعداً

---

(١) وردت الكلمة بالعربية «Koumbag» وشرحته المؤلفة بأنه روب طويل «Robe Longue»

(٢) وردت بالعربية في النص الأصلي: Mouled EL Nebi ويتضح هنا خشية المؤلفة من انقلاب أهل الشام على الفرنسيين بعدما رأت حماسهم الزائد وقوة إيمانهم وقوة قلوبهم وقدرتهم على المبارزة والاستبسال.

وأجلسوني عليه داخل «السرايا» قرب صديق لهم من رجال الحرس السوري وبنفس الوقت، كان عدد من جواسيس الأمن السري الأغبياء يراقبوننا وينصتون إلينا، بهيئة تنم عن حقيقة هويتهم بلا أدنى شك.

٣ تشرين الأول ١٩٢٥

لم تتمكن قوات السلطة من القاء القبض على الدكتور «شهبندر» لأنه هرب إلى صفوف الدروز، أما الكابيتين «كاربيلية» حاكم جبل الدروز، فبعد أن عاد الى سوريا أصبح يقود حملة عسكرية ويدير العمليات في تلك المناطق التي يعرفها هو أكثر من غيره، لأنه كان في الماضي يجتازها بسيارته مرتين في الأسبوع.

وقد كثر الحديث عن محاولة الصلح بين الفرنسيين والدروز لكن هؤلاء قد فقدوا ثقتهم بنا وسيجيبونا بلا ريب:

«الموت...!»

«فماذا تعني معركة واحدة...؟!»

وإن رئيسهم وزعيمهم سلطان الأطرش مازال يشجعهم على متابعة النضال حتى النهاية وتحقيق الحرية الكاملة.

٤ تشرين الأول ١٩٢٥

رأيت أحفاد الأمير سعيد الجزائري العائدين من الجبل وكلهم حيوية وصحة وقوة وحلاوة ونضارة.

وقادني الأمير أيضاً لزيارة غرفته الرائعة الجمال والتصميم بعد أن انتهى العمل بها: الأبواب جميلة للغاية لأنها شغلت وحفرت ونزلت على غرار أبواب جامع السلطان حسن في القاهرة.

وقد زرت من قبل الصالة. وحين كان العمل بها في بدايته أما الآن وقد انتهت ورتبت وزينت، ففيها مجموعة من النفائس والكنوز الثمينة، ورغم حلاوة محتوياتها فإنها تبدو كمنظر عام منفرة، ولقد كانت اللوحة التي تمثل «باحة الأسود» في قصر الحمراء تزين المكان بشكل أفضل وقد لاحظ الأمير بأني أنظر الى التزيينات ببعض الدهشة، ففطن لذلك وأدار للناحية الأخرى نقوشاً شاذة بعض الشيء. يحملها إناءان فخاريان من صنع سيڤير، -SÉ

من اليسار أبو محي الدين شعبان، سعيد الاظن، أبو عبده فارس، الأمير عز الدين الجزائري، سعيد العاص، توفيق القلعي. الجالسون من اليسار أبو أحمد محمد علي الكيال، الدكتور محمد علي الشواف، أبو سليمان العلبي، هزاع أيوب

"VERES" في فرنسا. ويعود تاريخهما الى القرن الثامن عشر، ثم ابتسم بنعومة يا لطيبة هذا الأمير وبشاشته. فلكي يوضح بترحيبه الكبيرة بالفتاة الفرنسية التي هي أنا أو التي أتخيل أنا أنني هي، جلس هذا الى البيانو وعزف مقطوعة «تيتين» "TITINE" الشهيرة فتأثرت بذلك لدرجة أنني تصورت أن جميع صور عائلة عبدالقادر الجزائري المعلقة ستخرج من «براويظها» لكي تذهب بعيداً بكل كبرياء، ولكن الأمير سعيد تابع عزفه دون أن يحدث من ذلك شيئاً. بل بهدوء تام جعل تلك الصور تستمتع بلا مبالاة بالعزف لهذا اللحن الحديث

وبعد ذلك تحدثنا عن المشاكل السورية، فقال لي الأمير بأنه قد عرض على «ساراي» فكرة اجراء مفاوضات مع الدروز تؤدي الى الصلح التام، لكن الجنرال «ساراي» رفض ذلك رفضاً قاطعاً، مدعياًبأنه سيتابع القتال في سبيل المحافظة على شرف فرنسا إن هذا النوع من سوء التقدير لايترك مجالاً للتعليق وإذن.. من هو الذي أدخل شرف فرنسا في هذه القضية..؟ ومن عرضه للخطر..؟ ألهذا يجب علينا في سبيل رد اعتبار فرنسا وشرفها، أن نضحي بأبناءنا ونرديهم في المعارك المستمرة...؟! هذا بدلاً من استخدامنا للوسائل العادية المباشرة.. وإن فرنسيين فرنسا لا يعلمون من الأمر شيئاً، لا هناك ولا هنا.. بل يعتقدون هنا نظراً لثقتهم بالتصريحات اليومية الرسمية، بأن الهدوء التام يسود سوريا الآن...!

٧ تشرين الأول ١٩٢٥

أصبح من المؤكد تماماً أن في دمشق الآن كره عنيف للفرنسيين، وهذا مايذكرني بأيام مصر العصيبة، تلك التي حدثت في فترة اضطرابات الاسكندرية والتي وجهت ضد الانكليز عام ١٩٢١ وإذاً . . ! فرنسا مكروهة في سوريا الآن . . . ! من المحزن لي أن أقول ذلك، ولكن هل بوسعي أن أقول بأن السوريون لايزالون يحبونا حين أرى عابري الطريق يشيّعون ضابطاً فرنسياً قتيلاً بنظرة حاقدة أو حين يقوم الأولاد الصغار الذين كانوا يقبلون يدي في الماضي القريب بقذفي بالحجارة اليوم . . ؟!؟

هل بوسعي أن أقول ذلك، والتلاميذ يكتبون على دفاترهم أشياء يتصرف المدرس وكأنه لم يرها . . !؟

هل أستطيع أن أتصرف كأني لا أرى مايحدث؟ اني أرى التحفظ البارد قد حل محل البشاشة الحلوة التي كنت أقابل بها من قبل المجتمعات، يتطلع الجميع اليّ اليوم بنظرات عدم الثقة، ويخيم الصمت الجليدي الطويل حين أقدَّم للحضور بصفة «ست فرنساوية» "SET FRANZAOUI" هل أستطيع بعد ذلك كله أن أقول بأننا مازلنا محبوبين هنا . . ؟!؟

٩ تشرين الأول ١٩٢٥

أعتقد بأن موقفنا من القضايا السورية هو موضع انتقاد شديد هذه الأيام، ذلك لأني أرى كل يوم أشخاصاً كانوا أصدقاء لنا وكنت أمزح معهم قائلة لهم بأنهم فرنسيون أكثر منا، لكنهم الآن يتخلون عنا ويقولون بصراحة لي:

«كلا . . . ! بكل تأكيد . . . ! لم يعد هناك أي مجال بعد الآن لأن نكون في صفكم . . . !»

وحالياً تخيم حالة الحصار على المدينة، فالخروج ممنوع بعد التاسعة مساءً. والجميع يخشون حدوث ثورة شعبية، ولو أن الصحف تتابع القول: «كل شيء، على مايرام» ترى أية تجارب غنية من جهة النقد التاريخي، يكتسبه المرء هذه الأيام . . . ! . . . ؟ إن هذا يعوض عليه الألم المعنوي الذي يتعرض له! وكم تخلصنا مثل هذه التجارب من الأفكار المسبقة وتعلمنا أن نفتش عن الحقيقة حيثما وجدت، حتى ولو كانت هذه الحقيقة تقضي على تلك

التي كنا نعتقد بها» ومن ناحية أخرى أقول ما قاله بيلاطوس ليسوع المسيح: «ماهي الحقيقة؟» لأني أنا التي أعيش وسط هذه المنازعات وعلى تماس مع جميع الأطراف مصغية لكل الآراء أتساءل غالباً فيما إذا كانت الحقيقة شيئاً مسلماً به يعرفه الجميع، أم أن كل فرد يصنع لنفسه الحقيقة التي تلائمه.

ففي الساعة الواحدة أسمع أحداثاً معينة بخمس أو ست روايات مختلفة، وكل منها تستند الى براهين معينة حتى أنه يخيل الي أني أجلس في قاعة سينما تتشكل وتختلط وتمحي فوق شاشتها آلاف الصور أنا مثلك ياايراسموس، أنتمي لحزب الحقيقة، لأن الحقيقة لا تنتمي لأي حزب.

ولكن يظهر أنه يجب عليّ كي أرى خطوطها المشرقة أن أتطلع اليها من أعالي النجوم، وذلك بأن أظل خارج وفوق هذه المنازعات كي يسعني أن أحتفظ لنفسي بحكم مستقل ومع هذا فإني أدخل رغماً عني الى الميدان لكي أدافع عن أولئك الذين يتعرضون للظلم كائناً ماكانوا، لأنه توجد حقيقة غير قابلة لأي جدل: هي أن الألم يعم سوريا الآن، والجنود والجرحى من الجبل يملؤون المشافي، والمزارعون المنكوبون يتناثرون على الطرقات، والدروز يُقتلون ويُقصفون بالقنابل إن لم يهربوا ويعيشوا كمنفيين في شرقي الأردن آه.. إننا لم نصل أبداً بهذه البلاد الى العصر الذهبي.!

١١ تشرين الأول ١٩٢٥

إن السياسة الذكية التي يتبعها أبناء وطني هنا أدّت الي جعل غوطة دمشق ملجأ مليئاً بالأشقياء (١) وإن شخصاً يدعى «حسن الخراط» كان رئيس قسم للشرطة، قد سرح لأسباب مسلكية، وقام بتشكيل عصابة كبيرة احتلت البساتين وراحت تعترض المسافرين. وقد شكلت هذه العصابة من الدروز المنشقين، والمزارعين الذين نكبتهم الحرب، والناقمين والوطنيين المهدين الذي ضموا واحداً من آل البكري وهو نسيب البكري وقد أمسك الخراط الطرق وسيطر عليها وعلى حركتها وأخذ يسن الأحكام وينفذها ويهاجم دمشق في كل ليلة وقام بإيقاف السيارات واعتراضها في الربوة وبإيقاف عدد من الناس في منطقة البساتين قرب «باب الصغير» وآخرين على طريق «القدم» وقد روى لي بعض التلامذة بأنهم رأوا حسن الخراط

---

(١) أي الثوار، ونلاحظ أن المؤلفة ستبقى تسمي الثوار بأسماء أخرى.

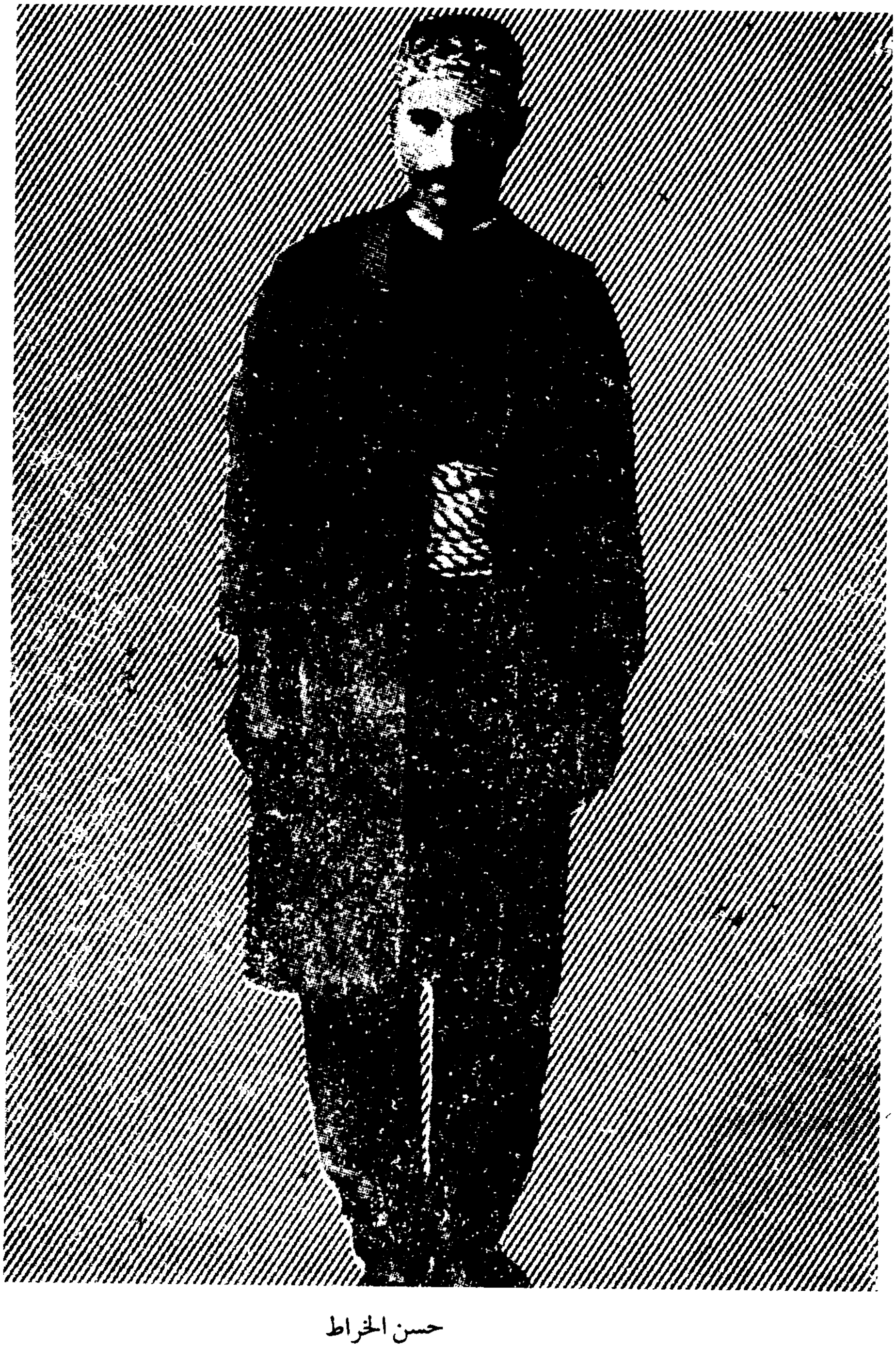

حسن الخراط

قرب المقابر، ووصفوه لي بأنه حليم ورائع ورهيب بالوقت نفسه وكأنه «الأخ داياڤولو»[١]

كما أنه أوقف أحد باشاوات المدينة قرب بستان صغير بينما كان هذا عائداً بعربته من مزرعته الخاصة في الغوطة وليس في جيبه إلا قطعتان من فئة «أبو المية»[٢] من باب الاحتياط، فاقتاده هذا الى مقر قيادته. وكان كلما توغل في السير تنشق له الأجمات الصغيرة عن رجال مسلحين يظهرون فجأة وكأنهم العفاريت "AFRITES" وقد سألوه عما يجري في دمشق، ولما حصلوا منه على المعلومات التي تهمهم أطلقوا سراحه مع عربته وقطعتي «أبو المية» الخاصتين به، هذا بعد أن اعتذروا له وقالوا:

«نحن لسنا قطاع طرق»

وليقل كل واحد منا لنفسه هذه العبارة..!

الثلاثاء ١٣ تشرين الأول ١٩٢٥

قررنا أنا ومجموعة من الأصدقاء أننا في حالة منع الزيارات نهائياً، وتصبح غير ممكنة، سنؤلف مشتركين كتاباً عن سورية.

وعندما حل المساء، ورغم حالة الحصار المفروضة، حاولناو نحن نخاطر بأنفسنا أن نزور السيد «ي بيك» "Y. BEY" لقد كانت الشوارع خاوية على عروشها، ولاتسمع فيها أية أصوات تقريباً اللهم إلا أصوات خطوات الحراس الليليين في سوق الحميدية المقفر، وكانت حراستهم منتظمة كالعادة، يحملون عصيهم الثقيلة وهناك حرس من رجال الشرطة يحملون المصابيح النقالة، ويفتشون على ضوئها جميع الزوايا، على أمل القبض على واحد من لصوص «علي بابا» الأربعين.

وفي شارع جمال باشا رأيت اعادة لمعركة «المارن» "la MARNE" طبعاً مع الفارق البسيط، وقد سُخر جميع سائقي السيارات لنقل الجنود بمهمة ملاحقة أولئك الذين تسميهم السلطات باسم «الأشقياء» "BRIGANDS" وكانت السيارات تتلاحق في الظلام، وهي تحمل البنادق التي كانت سبطاناتها تلمع بصورة مشؤومة ومخيفة ثم وصلنا الى منزل صديقنا، فاستضافنا وأمر بتحضير الغرف كي ننام هناك نظراً لخوفه علينا من العودة الى

---

(١) وردت باللغة الايطالية: "FRA DIAVOLO"

(٢) وردت باللغة العربية: "ABoulmiyehs" وهي عملة صغيرة حسب تعريف المؤلفة.

منازلنا. ومع هذا فقد تعرضنا بكل تهور لخطر العودة قبل ذلك في منتصف الليل، ولكنه لم يكن يوجد غيرنا نحن ورجال الشرطة في شوارع دمشق.

١٥ تشرين الأول ١٩٢٥

علمت بأنه قد تم تطويق العفاريت المتمركزين في الغوطة بعد أن التفت القوات عليهم وقد قامت الطائرات بالقاء القنابل، فاضطرت «عصابة الثوار» للخروج فوراً من البساتين، فوقعت تحت نيران الرشاشات الثقيلة، وحدث ذلك كله قرب دوما الواقعة في شرقي دمشق وقامت السلطات أيضاً بأعمال انتقامية عديدة: فحرقت قرى كفر بطنا، ويارا "YARA" والمليحة، وجرمانا، وجسرين، وكلها واقعة في منطقة الغوطة وذلك بعد أن اتهمت سكان هذه القرى بإيواء الاشقياء.

وقد روت لي بعض سيدات عائلة «البكري» بأن الجنود أثناد قيامهم بعمليات القمع والتمشيط تلك قد تصرفوا بشكل سيء للغاية: لقط سطوا في جرمانا على بيت أحد أجداد عائلة البكري، وسرقوا أثاث بيت جديدة لفتاة مخطوبة من أحد أقربائهم، ونهبوا الشراشف وملابس النساء مما جعلهن يصلن الى دمشق نصف عاريات، كما ونهبوا الحلي والجوارب والألبسة الداخلية والتحف الأثرية منها السجاجيد التي يبلغ ثمن الواحدة منها خمسين ليرة تركية ذهبية ولكنها بيعت في السوق ببضع مجيديات فقط، وكانوا وقحين للغاية، لدرجة أنهم سرقوا سيارة العائلة وحملوا الغنائم بها، وأكد الشهود بأن ذلك قد تم بحضور ضباطهم كما وأتلفوا محاصيل «قمر الدين» "HAMREDDIN" وهو مربى المشمش المحفوظ التي تشتهر به البلاد وهو أهم حاصلاتها كما أحرقوا القمح في مخازنه، وقد جرى مثل هذا في كافة القرى الأخرى التي هاجمها الجيش: وإذن، لقد دخل جميع الفقراء الذي لم يعودوا يملكون شيئاً، في صفوف الأشقياء، وبهذا أصبحت كل القرى التي عوقبت قرى ثائرة. وستدوم هذه الحالة طويلاً، لأن الفلاحين لم يكونوا مخيرين، أو بالأحرى، كان لهم الخيار المحدود في كيفية الخروج من هذه المشاكل فقط: فإذا رفضوا ايواء الاشقياء، وهم جيرانهم وأصدقائهم الى وقت قريب، عوقبوا من قبل هؤلاء كخونة مارقين وأحرقوا وذبحوا، وأما إذا زودوهم بما يلزمهم فإنهم يعاملون من الفرنسيين كعصاة مشاغبين، وذلك سيتعرضون للعقوبات نفسها، ولذا كان عليهم أن يختاروا بسرعة الجانب الذي ينحازون اليه وإن الذين لم يُقتلوا من هؤلاء جُروا الى دمشق من أعناقهم، وكأنهم زرافات طويلة يائسة ليس لها إلا عيونها الدامعة.

المجاهد نسيب البكري

رئيس المجلس الوطني الأعلى للثورة السورية

ياله من يوم رهيب، هذا اليوم. . !

ففي الساعة الثالثة تقريباً من بعد ظهر اليوم، وصل عن طريق الشارع المستقيم RUE "DROITE" رتل جنائزي من الجمال المحملة بجثث القتلى، وقدتم رصفها قرب بعضها البعض في ساحة المرجة. وشاهدت سيدة حامل من صديقاتنا هذا المشهد من نافذة منزلها، فأثربها كثيراً لدرجة المرض وأحاط الجنود المسلحين بمكان الجثث، وكان يرى في وسط الساحة بعض رجال الشرطة حاملاً سوطه، وبعض رجال السلطتين المدنية والعسكرية.

وكان المنظر شديد الرعب: وقد ارتسمت على الأرض خطوط طويلة من الدم، وهنا وهناك تترامى الأحذية التي سقطت من الجثث، وأذرعتها ممتدة، ووجوهها محزنة. وقد بدا أحد القتلى: شاب يافع، وكأنه يريد أن يقول شيئاً من خلال فمه المفتوح، وينبغي أن نضيف الى ذلك منظر الرؤوس والجماجم المصبوغة بالدم، ومنظر الأحشاء التي خرجت من البطون المبقورة، وبدت الساحة من بعيد وكأنها مذبح للجثث البشرية الهائلة ورأيت أن هذا الأمر فضيحة مخيفة، فكيف يكون الحال بالنسبة للدمشقيين أنفسهم. . . ؟ سيما وأن المسلمين هنا يراعون بكل حرص تعاليم احترام موتاهم. . ! وفي احدى زوايا الساحة، كانت هناك مجموعة من النساء المتحجبات، يجلسن على الأرض مع أولادهن وينتحبن ويتأوهن ويولولن ويصرخن، ولما استعلمهن بعض الحضور عن وقوع مجزرة، روين كيف أن الأشقياء الحقيقيين قد هربوا، وكيف قام الجنود بدلاً من مطاردتهم بالرمي على الفلاحين الأبرياء، وهم يعملون في حقولهم، ثم صرخن قائلات:

«لقد كان هؤلاء أبرياد وحق الإله. . . ! »

نعم. . ! كل هذا يبعث على الثورة. . ! وفي هذا الوقت وصل موكب آخر يشبه مواكب «تغلات فلا ستير» (١) هؤلاء فلاحين مساكين يقادون الى القلعة وحراب الجنود في ظهورهم، أعمارهم متفاوتة، ومظهرهم يدل على فقر حالهم، ويرتدون العمائم والكوفيات، ويقادون سيراً وهم موثوقي الأجساد والأيدي بحبال غليظة وعند مرورهم همس بعض الجنود: «ليسوا ثواراً»

وبعد ذلك قص علي السيد «ن- هانوم»(٢) كان يعمل لديه كحارس لمزرعته، ووصف

---

(١) بالفرنسية: "Teglath Phalastar" وهو ملك عاش عام ٧٢٩ قبل الميلاد واتخذ لنفسه اسم بولو "POULOU" وإن اسم عائلة المؤلفة بولو، وهذا سبب اهتمامها به.

(٢)"N. HANOUM" من المحتمل أن يكون اسم العائلة غنوم أو حنون.

جثث للقتلى الأبرياء وكلهم من القرويين المسترزقين فتك بهم الجنود الفرنسيين وعرضوهم على الجمهور.

كيف جرى اعدامه بالرصاص على أنه احد الأشقياء. وقد تم القبض على هذا البريء حين كان يسير على الطريق متوجهاً الى دمشق مع أنه كان شديد الخوف لدرجة أنه لم يجرؤ على حمل عصا وفي باب توما، حيث تعيش احدى صديقاتنا، قالت بأنها شاهدت «الحلاب» المعروف بالحي والذي يزوده بالحليب منذ عشرين عاماً. والذي كان شريفاً للغاية حتى أنه لايغش الحليب بالماء- كما وصفته على سبيل المثال- شاهدته حين أوقفه رجال السلطة على أنه أحد الأشقياء وإذن، فإن المجلس الحربي، يجتمع في السرايا بصورة متواصلة ويظهر أنه يصدر أحكام الاعدام في القلعة بدون أية

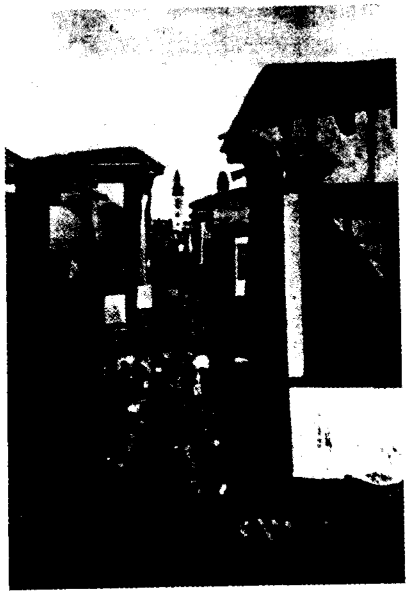

الشارع المستقيم من الغرب الى الشرق في مطلع هذا القرن وتبدو في العمق مئذنة الباب الشرقي.

محاكمة . (١) إن هذه المشاهد جعلت دمشق تعيش في حالة غليان كبير ومخاض ثوري، وقد أكد لي أصدقائي هنا بأنهم يتوقعون بعد ذلك أسوأ الأمور، أما المسلمون، فيؤكدون من جهتهم بأنه لم يسبق أبداً أن عومل أبناء دينهم بهذه الطريقة من قبل، وقد أحنقهم معرض المرجة الى أبعد الحدود، ويسود الآن نوع من الاضطراب غير العادي في كل مكان من الشوارع وتلتم جماعات من الناس الى بعضها في المقاهي والساحات، وتتبادل الأحاديث همساً وكأنها تدير المؤمرات وقدقال لي بعض الناس بأن الانكليز قد اشتروا الجنرال «ساراي» لكي يقود البلاد الى الثورة، فيحققون بذلك فائدة كبيرة لهم، وآخرون أقل خيالاً أعربوا لي عن خيبة املهم العظيمة بما يحدث، ومهما يكن الأمر فإنه بات من المؤكد أن أعمال القمع التي يقوم بها الفرنسيون لايمكن تفسيرها بأي شكل من الأشكال. . وهنا أيضاً يتهمون أنصار الأتراك وأعوانهم بأنهم يلعبون على الحبلين، وذلك بإسداء النصائح السيئة لنا لكي يحكموا علينا بالزوال من أذهان الشعب وبالنسبة لي أنا، فإني لم أعد قادرة على التعرف على مواطني الفرنسيين هنا، لأنهم لاتتردد في أفواههم إلا كلمة واحدة هي كلمة القوة.

إن جريمة عرض القوة حسب الطريقة الانكليزية وتطبيق أحكام النظام «بالبوط البروسي» كما كان يقال في فرنسا سابقاً بدون أن نستوعب النتائج والآثار السيئة التي يخلفها هذا النظام الاستبدادي لنا نحن الآخرين، والضرب بقسوة وعنف كل تلك التعابير التي كنا نرفضها أصبحت الآن كلام مجاني لامعنى له.

إن عملية استخدام القوة في سبيل الحفاظ على هيبتنا هي من أكبر الأخطاء، لأن هيبتنا لا تتعرض للخطر إلا بسبب أعمال التسلط الجائرة.

ومن ناحية أخرى، علينا أن نتساءل فيما إذا كان هؤلاء الذين نرهبهم ونخضعهم يؤمنون بمبدأ «الحق للقوي» الى هذا الحد. . !

أنا التي أسمعهم أشك كل الشك بهذا الموضوع إننا اليوم نقترف في دمشق الخطأ النفسي الذي ارتكبه الالمان في بلجيكا، وهذا مايثير في نفسي الغضب العنيف، وإننا لانريد أن نرى السوريين على حقيقتهم الواضحة، بل حسب التقارير المغرضة التي تعرض لنا.

ثم لماذا لا نقتنع بأنهم حساسون مثلنا يتطلعون الى العدالة والطيبة والحق واحترام الكرامة الانسانية. . ؟

---

(١) إن هذه الأعمال التي لم يذكرها الجنرال «غاملان» هي برأي جميع المحايدين أحد الأسباب الرئيسة لقيام ثورة مدنية، ويأتي السبب الثاني وهو قذف دمشق بالقنابل فيما بعد. «المؤلفة»

أليسوا رجالاً . . ؟ أليسوا بشراً . . ؟!!

وإذا كنا نريد حقاً أن نُحضّرهم كما ندعي، فإن إظهار أنفسنا بأننا أرفع منهم وأقوى، وقيامنا بتعميم مبدأ القوة الغاشمة، وعرض الرشاشات في الشوارع، والتهديد باستعمال سلاح الغاز الخانق «كما فعل رجال الأمن في الصالحية عندما كنت آمر» كل هذا ليس سوى اسلوب عجيب في التحضير ومنفر ومثير للثورة الكبرى.

آه . . ! يا لشد خوفي من هذا النظام التعسفي الذي سيقودنا عما قريب الى ثورة عارمة . . !

الجمعة ١٦ تشرين الأول ١٩٢٥

رأيت المدينة هذا المساء وهي تعج بجموع غير عادية وكأننا في أحد أيام مواسم السوق: في كل مكان يجتمع الناس المساكين، بوجوههم الشاحبة تعلوها علامات التعب والذعر، وملابسهم رثة لدرجة تتجاوز كل وصف ويحملون أشياءهم الملفوفة ضمن غطاء وسخ معقود من أطرافه الأربعة. وكانت النساء متسربلات بحجب من مختلف الألوان. وكانت البدويات بملابسهن السوداء الحالكة والمائلة للاحمرار يحملن أطفالهن ضمن قمائط. وكان كل زوجين يمران أمامي بحالة تدعو للرثاء: فالرجل حزين نحيل، عيناه ثائرتان. ورأس منكس، والمرأة ملفوفة بملاءتها وتحمل طفلها فوق كتفها وتمسك طرف حجابها بأسنانها وترافقها احدى قريباتها المسنات. وعند غروب الشمس وصلت قطعان الأبقار الصغيرة السوداء المضطربة أيضاً مثل أصحابها، والخراف المذعورة تثغو وتكابد الموت، والتي يقودها على طريق الربوة فلاحون بائسون، وتتقدم هذه المواكب المحزنة متزاحمة وتدخل شارع الصالحية فتشكل خليطاً غير متلائم مع السيارات والحافلات وقام أحد «الأفندية»[1] بتوقيف راعٍ مسكين ليتحدث معه قليلاً، بينما تابع الموكب الذي كان يخور ويثور ويضرب الأرض ويثغو. تابع الصعود في الطريق الذاهب الى المهاجرين لكي يجد بدون شك ملجأ يأويه لدى الأصدقاء وفي مفرق عرنوس جلس تحت شجرة التوت كالعادة التجار الصغار الذين يبيعون الطعام «للشغيلة» هؤلاء المساكين يأتون الى المدينة بحثاً عن عمل مهما كانوا نوعه وأجره، هناك رأيت اليوم جمعاً كبيراً من هؤلاء المساكين ينتظرون قوت يومهم، وقد تناولوا بلاشك بضع لقيمات قبل أن ينصرفوا عابسين. وإن الشخص الوحيد الذي أثار شفقتي هو ذلك

(١) "un EFFENDI" وهذه الكلمة عامية دارجة في دمشق وليس لها أصل فرنسي، وانها من أصل تركي

النحيل المسكين الأعمى الذي كان يحمل كل ثروته على ظهره وهي خرجاً فارغاً، وترتجف ساقاه رغم أنه يتوكأ على عكازه وقد بدا وهو يصعد طريق «الصالحية» كأنه «أوديب»(١) ريفي بعد أن هجرته «أنتيغون»(٢) وكل ما فيه يدل على الاستسلام الكامل لمصائب الدهر. وكأنه جمع في شخصه كل البؤس الذي كنت أراه يمر أمام ناظري.

وعند المساء كانت تبدو من منطقة المهاجرين سحب الدخان الرمادي المنبعث من تلك القرى المحروقة، وهي تظهر خلال بساتين الغوطة المائلة للزرقة. مما جعل المنظر يشبه مراكب بخارية تطفو فوق سطح البحر.

وكانت أكوام الرماد التي تحملها الرياح وتقذفها فوق بساتين الريحان فتذكرني بمنظر رأيته سابقاً في «صقلية» حين هاج بركان «إيتنا» وغطى حقول «تاورمين» وقد أعلمتني صديقاتي الشابات المسلمات، الخائفات بأن السلطات العسكرية ستقوم بتدمير قسم من المدينة بقصفه بالقنابل، ولكني سخرت منهن وقلت لهن:

«إنكم تحملون فكرة سيئة عن الفرنسيين».

وسمعت نفس الكلام من فتاة مسيحية لطيفة في حي الميدان، فأكدتُ لها بأن ذلك من قبيل الافتراء فحسب، وقد أردت منها أن تطمئن سكان حيها المسيحي وتقول لهم بأنها سمعت من فم إحدى الفرنسيات بالذات هذه التأكيدات، ترى كيف ينظر إلينا السوريون الآن إذن . . . !؟ وكيف يروننا؟!؟.

السبت ١٧ تشرين الأول ١٩٢٥

حمل لي بعض الاصدقاء عدداً جديداً من صحيفة لاسيري "LA SYRIE" الرسمية، وكان فيها مقالاً بقلم شخص يدعى «ستيفانو» "STÉFANO" تحدث فيه عن أحداث ١٥ تشرين الأول بوقاحة وتبجح، وتجرأ هذا الكاتب بالهزء من ذلك العرض الجنائزي الذي حدث في ساحة المرجة وسماه:

«لوحة رائعة من اللوحات التي تصور الصيد»(٣) وهذا الكلام يتجاوز كل تعليق . . !

---

(١) "OEDIPE" تقول الاسطورة أنه قتل أباه الملك وتزوج أمه، وعندما اكتشف جريمته فقأ عينيه بسيخين طويلين.
(٢) "ANTIGONE" ابنة اوديب
(٣) "un splendide tableau de chasse"

وهذا المساء أعلموني بأن عمليات ثأر فظيعة قد حدثت انتقاماً لمعرض الجثث الذي جرى في المرجة حيث قام الثوار بكل وحشية بقتل اثني عشر جندياًفرنسياً في منطقة باب شرقي واليوم أيضاً عادت للظهور اشاعة قصف المدينة بقنابل المدافع الثقيلة، وقد تكرم ضابط فرنسي بتحذير صاحبة المنزل الذي يستأجره منها وهي السيدة «Z» المعلمة في احدى مدارس باب توما، فجاءت المسكنية قلقة خائفة تشكو ولاتدري ماالعمل . . ! وراح الجميع يسألوني عن صحة ذلك التهديد، لكني لا أعرف بماذا أجيب فأنا نفسي أصبحت مشوشة تماماً ويقال أن عصابات المارقين المعسكرة في ضواحي المدينة قد طلبت من أغنى بشاوات الشام مبالغ من المال يجب أن تدفع في ساعة معينة وتكون مساهمة منهم في النضال الوطني. وقد قام أحد كبار هؤلاء، وهو السيد «م. باشا» بالاختفاء مع ابنه، بعدأن رفض الاختيار بين الحياة والموت. فإما الدفع أو القتل، لأنه كان متعلقاً بالمال أكثر من تعلقه بالحياة. وفي احدى القرى هوجم غني آخر فاضطر للاختفاء داخل الاسطبل، كما وفرض الثوار أيضاً ضريبة على الأمتعة الثمينة لكنهم لم يطبقوا إلا ضريبة القمح والمؤن فقط.

وإذاً فهل هؤلاء أشقياء يؤمنون بمبدأ المقاسمة؟

الأحد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥

يوم أمس أصرّ صديقي الطبيب (. . N) بأن أعده بألا أخرج من بيتي هذا اليوم، أو بأن أعود في حال اضطراري للخروج، مبكرة، وذلك بسبب احتمال حدوث عصيان، فوعدته بذلك، لكني نويت عدم الوفاء بوعدي هذا الصباح كل الدلائل تنبئني بقرب وقوع اضطرابات: فقد عقدت الاجتماعات في الشوارع، وإن أهل الصالحية المعروفين بهدوئهم هم اليوم هائجين تماماً ورغم ذلك كله فقد توجهت اليوم لزيارة أصدقائي في حي «باب توما» ولما وصلت الى ساحة المرجة أدهشني ان المحلات التجارية مغلقة، والشوارع مقفرة، والجنود يملأون الأرصفة والزوايا.

وعلى أحد الأرصفة رأيت السيدين «م.ب» و«س» يتبادلان الحديث بهمس وتسري، بينما كان الجنود بهيئاتهم القلقة الغاضبة يتنزهون على طول الساحة وعرضها، ويبدون استعداداً للبطش بأول من تسول له نفسه بأن يزعجهم. فسألت هذين الشخصين عن الاخبار الهامة، فقصا علي ماحدث ورأياه منذ لحظات في السوق المجاور.

كان أحد الجنود يبيع أمتعة وملابس حصل عليها عن طريق النهب ولما لم يقبل أحد بشراءها منه أخذ الجندي يحاول عن طريق التهديد بث الخوف والرعب في قلب أحد الأشخاص لاجباره على شرائها. فخاف هذا واشترى المسروقات المنهوبة بطريقة مشبوهة وانصاع للتهديد وحمل المشتريات ليذهب بها. ولكن في الوقت نفسه حضر أجير خباز وعاب كل من البائع والشاري، فغضب الجندي لتوه وانهال على الأجير بالضرب.

(وقد لاحظت أنا بنفسي ردود أفعال مثل هذه عند كثير من الجنود الغاضبين) وهذا ماجعل جميع من في السوق يغضبون ويهاجمون الجنود قبل أن تتدخل قوات الجيش لحل المشكلة وكانت المصفحات والعربات الرشاشة تتمركز في الشوارع، في حين يخيم جو من التهديد على المدينة بأكملها، فبدت دمشق وكأنها تنتظر هبوب عاصفة هوجاء كتلك العواصف التي تسبق عادة الدوي الأول من زمجرة الرعد وقد تطوع السيد «M. B» بأن يوصلني بعربته الى حي باب توما، وكان على الطريق حشد كبير من الفقراء المنكوبين الذين أحرقت بساتينهم وبيوتهم يتزاحمون على بعضهم البعض باتجاه الجدران لكي يسمحوا لنا بالمرور. وكانوا بوجوههم القانطة البائسة والعابسة، وبهيئة الاستسلام الصامت التي تظهر عليهم، يبدون كقطيع ترك بلا راعٍ تحت رحمة الذئاب وكان الحي المقصود قريباً جداً من حي الميدان بالنظر، ولذا كانت ترى من اسطحته المساجد بكل وضوح وكان بإمكان المرء أن يتمتع منه بشكل خاص برؤية الجامع الأموي الكبير والبساتين المحيطة بالمدينة، وعندما أردت مغادرة أصدقائي والعودة، حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، سمعت أصوات طلقات البنادق قادمة من بعيد، من جهة حي الميدان في باديء الأمر.

فاعتقدت بأن الامر بسيط، وهو مجرد اشتباك بسيط، وتابعنا الحديث على ذلك الرجاء لكن الطلقات استمرت، وأخذت تقترب شيئاً فشيئاً وكأنه يتم بالتدريج احتلال منطقة الميدان الفوقاني، وقد اهتدى السيد «س» بأذنيه اللتين خبرتا طويلاً مثل هذه الأصوات لطبيعة ومكان الانفجارات المختلفة وعلى الفور انطلقت اصوات الرشاشات الآلية وكأنها صوت قماش يتمزق، فتبعتها أصوات المدافع المعروفة، وعندها طارت جميع أسراب الحمام من الجوامع، وهذا مثلما حدث في مدينة «اللوكسومبورغ» أيام اطلاق مدافع «بيرنا» الالمانية، وقد وقف جميع سكان الحي على الاسطحة لمعرفة مصدر الانفجارات الكبرى وقام الأجانب، وأكثرهم من الاميريكيين والانكليز والايطاليين برفع الأعلام الوطنية بسرعة فوق بيوتهم وتابعت

الرشاشات لعلعتها بين مدخل حي الميدان وباب الجابية وفي تلك اللحظة صدرت بشكل مفاجئ، وبوقت واحد طلقات نارية من اتجاه اسطحة حي باب توما، فتساءلنا عن السبب بقلق، وهل ذلك فاتحة حرب شوارع . . . !؟ لكن لم يكن الأمر كذلك أبداً، لأن الحي كان هادئاً تماماً. كل مافي الأمر أن صيادي القبعات[1] قد جعلوا النار تتكلم مساهمة منهم في الدفاع عن دمشق ولو بإحداث الضجة فقط. وازدادت الأصوات كثيرا: بنادق ورشاشات «الفلوبيرت» ومسدسات عتيقة، ومتفجرات قوية كلها تنطلق وتلعلع ومتئز وتدوي بوقت واحد، حتى أن المدينة بدت وكأنها في عيد عجيب، ولو أنه قدر لطيار يجهل طباع هذا الشعب أن يرى من فوق مثل هذه المظاهر المضحكة، لخيل إليه بأن الحي بكامله قد سقط في أيدي المهاجمين. ولكان سيقصفنا بالقنابل وفي المساء وبسبب نقص الذخيرة أجبر الأهالي على الهدوء، فاستراحوا من اطلاق النار معتقدين بأنهم عكروا على «أصحاب النجوم» صفوهم وكسبوا النصر، ولكن هدوءهم المؤقت هذا قد سمح لنا بأن نسمع بشكل أفضل صوت مدافع القلعة وحض غورو وقد حاولنا أن نحدد مكان المعركة الجارية، ونتعرف على تفاصيلها: وبدا أنها تجري في المنطقة الجنوبية الشرقية من المدينة، اذ ابتدأ من الطاحونة الكبيرة وتنتهي في محطة البرامكة، وهذا يعني أنها تدور في حي الشاغور الذي نرى من مكاننا أسطحته العالية فقط وكان المدفع يطلق حممه بفواصل زمنية متقاربة وكانت القنابل تتتابع وكنا نرى تصاعد عمود من الدخان الأصفر يرتفع في السماء مهدداً متوعداً وها هما الآن عمودان. . ثلاثة . . أربعة أعمدة ترتفع خلال أشعة الشمس التي بدأت تغيب عن المدينة وغابت الشمس وراء جبل الحرمون البعيد الذي اصطبغ بلون بنفسجي، وابتدأت جبال القلمون وقاسيون التي تحيط بالمدينة تبدو على شكل مدرج وتأخذ طابعاً وحشياً معادياً[2] ينسجم مع مظهر المدينة المقاتلة التي تشبه مآذنها الرماح بأسهمها المدببة[3] وفجأة سيطر علي شعور أكبر بكثير من الوصف، فكان الوقت وقت صلاة المغرب، وهاهو ينطلق صوت عجيب وسط ألحان الرشاشات والمدافع الوحشية، وتنطلق نداءات المؤذنين في سبعين جامعاً من كل الجهات، وتحلق عالياً في فضاء المدينة لتغطي أصوات الانفجارات وآلات الموت

---

(١) تحدثت المؤلفة سابقاً عن صيادي القبعات الذين يترصدون لقتل الفرنسيين من مدنيين وعسكريين ويبدو هنا أنهم رجال سريين يغتالون الفرنسيين ويختفوا في المدينة، وأنهم لايقيمون مع الثوار المتمركزين خارج المدينة في الجبال والبساتين. «المترجم»

(٢) تشير المؤلفة الى الثوار المتمركزين في الجبال فأصبحت الجبال معادية في نظرها «المترجم»

(٣) ترى المآذن كالرماح وتقصد من هذا بأن المسلمين هم الذين يهددون الأمن.

والقتل، وكان هؤلاء المؤذنون يدعون للصلاة بأصواتهم وكأنهم مغنون يؤدون أغانٍ تملأ النفس القشعريرة من حرارة الايمان.

وتصورت أن آلهة الحرب تدعو من أعالي هذه المراصد السماوية هذا الشعب الذي يموج في الشوارع لخوض حرب مقدسة. ولكي يتكامل هذا الطابع الحزين للمنظر العام. اختفت الشمس ولم تترك خلفها إلا خيوطاً من النور الأصفر الذابل فوق ذروة جبل حرمون.

ومن خلال غيوم السماء التي اختلطت بالدخان المنبعث من الحرائق المتزايدة. ظهرت نجمة شاحبة الضوء في الأفق البعيد، تذكر بظهور روح شفافة هربت من متاعب الحياة الأرضية وتوحي هذه النجمة الوحيدة بفكرة عالم مليء بالسلام خالٍ من الآلام، عالم يختلف عن عالمنا هذا، الذي نعيشه وسط ضجيج وصخب المعارك والقذائفِ وفحيح الحرائق التي تجعلنا نرتعد من الخوف، والذي ليس بوسعي أن أفهمه بعد الآن بل أكرهه وأكره أنانيته المخيفة ولكن كيف أستطيع التعبير عن هذه المشاعر الغريبة التي تهزني وأنا على مسافة شاسعة من بلادي، وضائعة فوق سطح منزل يخيم فوقه الموت على رأسي، وتضج الثورة فيه ليلاً عند قدمي...!؟

إن هذا الانطباع المخيف لمعركة مجهولة في ليل بلد مليء بالاضطرابات، هو كابوس لن أنساه أبداً طوال حياتي وقد بقينا في مرصدنا حتى الساعة العاشرة مساءً عندما سمعنا صراخ فجائي، كالصراخ الذي يسمع على شاطيء البحر في أوقات العاصفة، فمن ناحية «الميدان التحتاني» كانت تنطلق صيحات الخوف والألم.

وصرخات قوية طويلة تمزق القلوب، تصدر عن نساء يبكين مصابهن المؤلم. وعند كل انفجار قنبلة كنا نسمع ضجة كبيرة تصدر عن الناس، وهذا شيء مخيف تماماً يسبب المآسي التي يجعلنا نتخيلها وأظلمت المدينة كلها، باستثناء لهب الحرائق المتوهجة، التي كانت تنتشر في الجهة الجنوبية الشرقية وقدم لي مضيفي منامة بسيطة: فراشاً بسيطاً ممدوداً فوق أرضية ردهة بيت صغير كان يهتز عند كل انفجار، وكأنه صنع من عجينة الكرتون وبينما أنا أحاول النوم عبثاً بكامل ملابسي، فوق هذه الأرضية أخذت أتخيل موقفي فيما لو تفضلت إحدى القذائف بالسقوط هنا فجأة، كما يحدث الآن في أحياء اخرى من المدينة وعدة مرات ظلت القنابل توقظني في هذه الليلة، وعندما طلع الصبح، وحان وقت الصلاة، تجددت تلك المعزوفة المؤثرة التي يطلقها المؤذنون، وينبعث صداها الطويل الممطوط من جميع المآذن ورافق

مدينة دمشق تلتهب بنيران القنابل المحرقة الملقاة على أحيائها

ذلك أصوات انفجار القنابل التي يظهر أن الغاية من اطلاقها هو وقوع المصائب العامة.

كما هو الحال في المآسي المسرحية القديمة.

فهل هذا يجعلنا نلعن أم نمجد القلب الانساني في مسيرته نحو الأزل الذي لايتبدل..؟

القلب الانساني الذي يأس وتحطم مما يجري الآن في هذه البلاد...!

الاثنين ١٩ تشرين الأول ١٩٢٥

أمر كهنة الكنائس بأن توضع على أسطحة منازل شعبهم أقمشة بيضاء، على أن يرسم في وسطها صليباً أحمر يظهر عن بعد وذلك لكي يعرف الطيارون أماكن الاحياء التي يتوجب عليهم تجنب ضربها وقام بواب عمارتنا بقص هذه الاشارة من قماش قديم وكذلك فعل الباقون، حتى أن حي باب توما أصبح يظهر للطائرات وكأنه مقبرة مظلمة مليئة بالقبور البيضاء الموسومة بصلبان من الدم.

كما امتدت حرائق البارحة الى مسافات كبيرة حتى أن شبح جبل حرمون قد اختفى خلف ستار كثيف من الدخان الثقيل الذي ابتدأ ينتشر ببطء حسب أشكال مخروطية غريبة، قبل أن تظهر ألسنة اللهيب الضخمة بوضوح وقد بدأت الطائرات التي أقلعت من منطقة المزة على مايبدو، بالمرور فوق رؤوسنا بسرعة حاملة معها الموت الى أماكن تمكنت من تحديدها بدقة. وقبل كل انقضاض لها. كانت ترسم في السماء دوائر واسعة كمايفعل العقاب عندما يريد الانقضاض على فريسته وكلما كانت هذه الطائرات تمر فوقنا على علو بضع مئات من

الامتار، كنا نسمع اصوات الانفجارات التي لم تنسها ذاكرتي أبداً، لأنها كانت تتردد طيلة ليالي عام ١٩١٨ في باريس وكانت أعمدة الدخان الرمادي تتصاعد من نقطة ثم من أخرى، من خلال مجموعات المنازل المتزاحمة كخلية النحل ها إن النهار يمضي علينا بهذا الشكل: ننشغل بالمراقبة الميدانية للمعارك والقصف. ونذهب الى منزل الجيران لنسمع آخر الأنباء من الرواة العديدين الذين كانوا يقصون الأخبار وهم مذعورون.

وقد ماتت امرأة من الخوف الذي سبب لها احتقاناً في الأوعية الدموية. وامرأة أخرى وضعت جنيناً ميتاً من الرعب. كما علمنا بأن جنديين سنغاليين قتيلين مرميين في الشارع المجاور، وبما أنه لا أحد يستطيع أن يدفنهما الآن فقد غطيت الجثتين ببطانية بعد أن بدأ الذباب يحول حولهما والكلاب تنهش جثتيهما وقد استقبل البطريارك الأورثوذوكسي وفداً من مشايخ الجوامع، ليؤكدوا له بأن المسيحيين هم في حماية المسلمين، ويقال سراً بأنه تلقى هذه التأكيدات نفسها من قبل الثوار أيضاً. ويجب تصديق هذا القول لأنه لم يعد هناك في بعد ظهر هذا اليوم أي شخص يعكر صفو الأمن في منطقة باب توما كلها بعد أن غادرت وحداتنا الحي المسيحي ليلاً، وقد أخلت الحامية الفرنسية ثكنتها هنا تاركة مجموعة من البنادق والذخيرة تحت رحمة الرعاع الذين اندفعوا لحملها ورأيت بنفسي الأسرّة والبنادق والسروج ومختلف التجهيزات تلقى بعجلة في الطريق والأزقة. وتم اخفاؤها بعدة مناطق كي يتم العثور عليها فيما بعد.

وقام بعض الحمالين بالاستيلاء عل صناديق من الذخيرة، كانت ثقيلة لدرجة أنها تحطمت في الصناديق وانتشر مافيها من طلقات على الأرض.

وعندها عم الاضطراب في الحي كله. وحدث ذعر كبير وخوف في الحي، فالتجأ الناس الى دير الفرانسيسكان، الذي يعتبر قلعة حقيقية تعرضت للحصار في عدة اشتباكات كما فتحت القنصليات أبوابها لاستقبال رعاياها، وامتلأ المستشفى الانكليزي برعاياه وبعدد كبير جداً من الأرمن الخائفين وقد ظن المسيحيون بأن مذابح عام ١٨٦٠ قد عادت من جديد تهددهم، فانقلب الموقف الى عملية «انج بنفسك!» بالنسبة للجميع، ولكن ظنهم هذا قد بني على عدم فهمهم للوضع الحالي، لأنهم أخطأوا تماماً في تقدير شعور المسلمين نحوهم، إذ أن هؤلاء الأخيرين لم تكن عندهم أية نية مساس بهم، حتى أن الأمير طاهر قد أرسل رجاله الجزائريين الى الثكنة التي أخليت، وذلك لكي يسهروا على راحة وأمن المسيحيين، كما أن

القوات الفرنسية تتمركز أمام «مدخل حارة اليهود» كما كتب على الصورة التي تعود حقبتها الى الثورة السورية ١٩٢٥ والأسلاك الشائكة الواضحة في الصورة وضعها الفرنسيون أيام الثورة للفصل بين قوات الثوار والقوات الفرنسية.

عائلات الحي المجاور الإسلامية قد فتحت أبوابها لجيرانها المسيحيين الذين هم نحن وإذن، فإنه لايوجد في موقف مسلمي دمشق أي أمر يبرر ذعر سكان حي باب توما، وقد أصبح لدي انطباع واضح بأنهم فزعوا لتوهمهم أشياء خيالية لاتقوم على أي أساس، ولانهم لايريدون أن يروا الأشياء كما هي عليه بالواقع.

وظلت الحرائق تزداد طيلة هذا اليوم الاثنين، في حي الشاغور، وكانت كل قنبلة تنفجر تزيد في اتساع الحريق، الذي كان اضطرامه يشتد بصورة خاصة في مكان مجاور لنا، نستطيع أن نحدده بالضبط.

إذ أننا كالأسرى في حينا، لانستطيع معرفة مايجري فالمدينة، لأنه ليس باستطاعة أحد أن يخبرنا بذلك، هل هذا الحريق في قصر العظم فعلاً..؟!؟ طالما أن ألسنة اللهب تضيء بلون دام المئذنة الجنوبية الشرقية في الجامع الأموي..!؟ وفي هذه الحالة يكون هدف الوطنين كما نعتقد مهاجمة الجنرال ساراي» لأنه يقيم في قصر العظم وقد خرجت من البيت وتمشيت مسافة قصيرة، كي أعلم بمجرى الأحداث، ولما مررت أمام البطرياركية الأرثوذكسية

وجدتها بساحاتها المبلطة والنظيفة والمظللة بأشجار الكرمة، قد أصبحت ملجأ منيعاً ضد كل هجومهم. وقد التجأ الى هذه البطرياركية عدد كبير من الفلاحين المسيحيين وأيضاً كثير من المسلمين الذين أحرقت قراهم، ليناموا هنا ويأكلوا على نفقة البطريارك «غرغوريوس» العالم الضليع باللغة العربية، والذي ينظر اليه أدباء هذا البلد نظرة احترام وفي احدى الساحات رأيت جمعاً كبيراً من الرجال الشاحبين الوجوه، تتقد عيونهم تحت الكوفيات والعقالات، قرب الأمتعة الهزيلة المحزومة بسرعة عند الهروب من المنازل.

وفي ساحة أخرى جلست النساء مع أطفالهن: وهن فلاحات حوران العجيبات الموشومات باللون الأزرق، واللواتي يرتدين الألبسة السوداء المزينة بعصائب زرقاء وبرؤية هذا المنظر، تخيلت ملاجيء القرون الوسطى في الأديرة المنيعة أو المدن المحصنة التي كان الكاهن يحميها، وفي طريق عودتي ضمن الشوارع المضطربة شاهدت آثار دماء على طول الشارع..

ترى من هو ذاك المسكين الذي تحمل لمدة طويلة هدر دمه في هذه الدروب المظلمة هذه الليلة..؟

الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٥

لحسن الحظ لم تأت البارحة مساءاً رياح قوية، وإلا لكانت دمشق ستحترق بالكامل.

كادت المسكينة نور أن تموت رعباً خشية أن ترى منزلها قد أصبح رماداً، وكانت تبتهل وتدعي لرب «مجهول»

وكان منظر الحريق مخيفاً ورائعاً في الوقت نفسه لأن هذا لم يكن إلا تكراراً عصرياً لجميع أنواع التعديات التي تعرضت لها في التاريخ هذه المدينة القديمة قدم العالم نفسه. حتى أن الديكور لم يتغير إلا قليلاً. فهنا جبل قاسيون شامخ وقد عاصر الكثير من هذه المشاهد منذ أن تحدب ظهره. وهناك جبال القلمون الوحشية، ثم هناك الجبل الأسود البعيد بشكله المسطح، وكل هذه الجبال تراقب هذا المساء وكما كانت تفعل في الماضي مشهداً أصبح مألوفاً وعادياً بالنسبة لها، ومن المؤكد أن دمشق تظهر من قمم هذه الجبال وكأنها كومة حطب مشتعلة تناثرت شراراتها فأشعلت حرائق أخرى مفجعة في الغوطة لقد أحرقت دمشق

وغوطتها الجميلة وكأننا في عصور الحديد وعصور الظلام، أية سلطة مشؤومة تلك التي تقوم على مر القرون بتكرار الأفعال نفسها في الأماكن نفسها؟. وهاهو الآن عمود عظيم من اللهب، بلون الدم، يرتفع في السماء المعتمة، ومحركاً ذيلاً من الدخان المتصاعد، وتبدو ثغرات المنازل البعيدة التي أصبحت الآن بدون سقوف في حي الشاغور، حمراء اللون بفضل الحرائق التي كانت تلتهمها من الداخل.

أما نوافذ حي باب توما المضاءة، فقد أخذت أمام هذا المنظر الأورجواني الغامق لوناً شيطانياً أزرق اللون يميل للإخضرار كلون الكحول المخصص للاشتعال.

وقد ضلت الكلاب المسعورة بعد طردها من الحي المحروق وراحت تعزف مقطوعة محزنة تتجاوب أصواتها بقلق، أيتها الكلاب المسكينة... ! يا أصدقاء الرجال والمنازل... ! لقد رأيت بالمنظار واحداً منها وهو يحاول النزول من سطح منزل رفعت فوقه راية بيضاء ليطلب الرحمة بلا شك: وكان خوفه الشديد واضطرابه مؤثرين للغاية، ولاريب في أنه يعتقد أن الرجال هم أكثر من الحيوانات هذه الخليقة وحشية وكنا نسمع المعارك العنيفة في الشوارع طيلة هذا اليوم، وقد سقطت قنبلة في سوق ساروجة حيث يوجد لي أصدقاء عديدين من المسلمين، وساد الاعتقاد بأنه سيتم قصف جميع أنحاء المدينة، الواحد تلو الآخر، حتى أنه لما كانت أية طائرة تحلق فوق مجموعة من الناس، كان كل منهم يتجمع على نفسه بصورة غزيرية متسائلاً فيما إذا كانت القنبلة ستكون من نصيبه هذه المرة.

وعلى مقربة منا مرت بضع رصاصات تئز كالنحل، واصطدمت احداها في سقف منزل قريب واليوم صمت المؤذنون، ولم نسمع نداءاتهم الى الصلاة، وظلت المآذن خرساء عند صلاة المغرب وهذا مايذكرني بيوم «الجمعة الحزينة» الذي لاتقرع فيه الأجراس في فرنسا.

وإذن فإن صمت المؤذنين نجم عن يأسهم إذ رأوا شامهم تحترق وتنهب..

أليس هذا هو السبب..؟!

وعند الظهر أيضاً لم يسمع أحد أصوات قرع أجراس الكنائس، ولا أصوات أجراس المساء، ولعل سكوتها كان خجلاً في محله، إذ بعد الكارثة التي حلت بالاحياء المجاورة لابد من شيء ما... ! ولعل ذلك خوفاً من تذكير الضحايا بوجود أحياء لم تتعرض لأي قصف وعلى كل حال فهذا سكوت ثقيل، لم يكن يعكره إلا انفجار القنابل في حي الشاغور وأثناء

النهار ايضاً انطلقت ضجة تشبه ضجة القطار العابر، تخللتها بعض الانفجارات، وقد صدرت عن المصفحات التي كانت تدور حول المدينة، بمحاولة رائعة للتهديد باستعمال القوة، وكان يقودها أغرار، قيل لي بأنهم جدد لايعرفون تماماً خارطة المدينة . . . !

وكالزوبعة، اجتازت المصفحات السوق الطويلة ثم الشارع المستقيم، وهو المكان الذي يعج بالمسيحيين أكثر من غيره، ودشنت برصاصاتها واجهات المحلات التجارية على طرفي الشارع.

ولما وصلوا الى منطقة «باب شرقي» دهشوا حين رأوا أنفسهم في طرف المدينة، فسألوا احدى الراهبات عن مكان «الحي المسيحي»؟!

فأجابتهم بقولها:

- إنكم الآن تخرجون منه لتوكم . . !

كم أثار قدوم هؤلاء الفرنسيين فضول شابين قريبين من بعضهما، وأعرف عائلتيهما، أحدهما من عائلة «البيطار» والثاني من عائلة «الكاتب». ولما رآهما الجنود الفرنسيين ظنوا بأنهما من الثوار فأردوهما بالرصاص.

الاربعاء ٢١ تشرين الأول ١٩٢٥

يمكننا القول بشكل عام بأن السلام قد عاد، باستثناء بضع طلقات بعيدة سمعت هذه الليلة.

هذا السلام يشبه ذلك الذي يعمر الحقول بعد عاصفة كاسحة بعد قصف الرعد ولمع البرق مساء أمس وكأن غضب السماء قد حل محل غضب البشر. وهطل المطر فساهم في اطفاء الحرائق بسرعة، ولكن قصف القنابل كان شديداً لدرجة أن الآذان اعتادت على سماعه، وأصبحنا نرى أن الهدوء هو حاله غير طبيعية ومقلقة في بعض الأحيان. وأصبحت موسيقى الحرب والاضطراب الذي تسببه يوحشاننا حقاً، ويظهر أن الحياة تكون رتيبة بعض الشيء في المدن الآمنة. وقد صارت الأنباء تنتقل عبر السطوح، فهذا نبأ يقول بأن هدنة قد وقعت من قبل رجالات المدينة بشروط لاتزال مجهولة، وإن الاعمال العدائية ستتوقف حتى ظهر يوم السبت، وبدأت بعض الحمامات الزاجلة تصل من حي الصالحية، الذي حوصرت

مقهى «قصر البللور» في جادة الروس قرب باب توما تحتله القوات العسكرية الفرنسية أثناء الثورة ١٩٢٥

فيه الجالية الفرنسية طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة، وقد وصلتنا واحدة منها لتطمئنا، وإذا كانت رؤوسنا لاتزال فوق أكتافنا فهذا ليس بفضل واحد من رجالنا، وإلا فمن هو الذي حمانا أيام ١٨و ١٩، ٢٠ من هذا الشهر . . ؟؟

وفكرت بالعودة الى منزلي في «الحي الفرنسي»(١) فنزلنا الى الشوارع المزدحمة بالناس الذين كانوا يخرجون من بيوتهم التي أصبحت كالسجون، وأول مظاهر الحياة التي شاهدناها كانت انتقال عائلة من منزل الى آخر. وثانيها هو عودة رجال الشرطة السوريون الى مخافرهم(٢) وهذا مايدل على أن الخطر قد انتهى. واتبعنا في ذهابنا طريق العمارة، مروراً بشارع الأمير سعيد، وكانت الطرقات موحلة تماماً والناس متجهمين عابسين، وكأن صمتاً جنائزياً يحيط بهم، ولم يعد هناك أي مظهر من مظاهر الحياة المرحة الطبيعية التي تتسم بها شوارع دمشق عادة، وشوارع مدن الشرق.

وفجأة رأيت في أحد المنعطفات موكب غريب ذكرني بمنظر عن «منشوريا» MANDCHOU شاهدته في احدى المسرحيات مثلت في قاعة «الشاتيلية» (٣) شاهدت

(١) المهاجرين، وكان يسكن فيه الفرنسيين مع عائلاتهم.
(٢) وردت كلمة "CARACOLS" وهي مايقال بالعامية «كركون»
(٣) "châtelet" وتقع في الجادة الأولى في باريس.

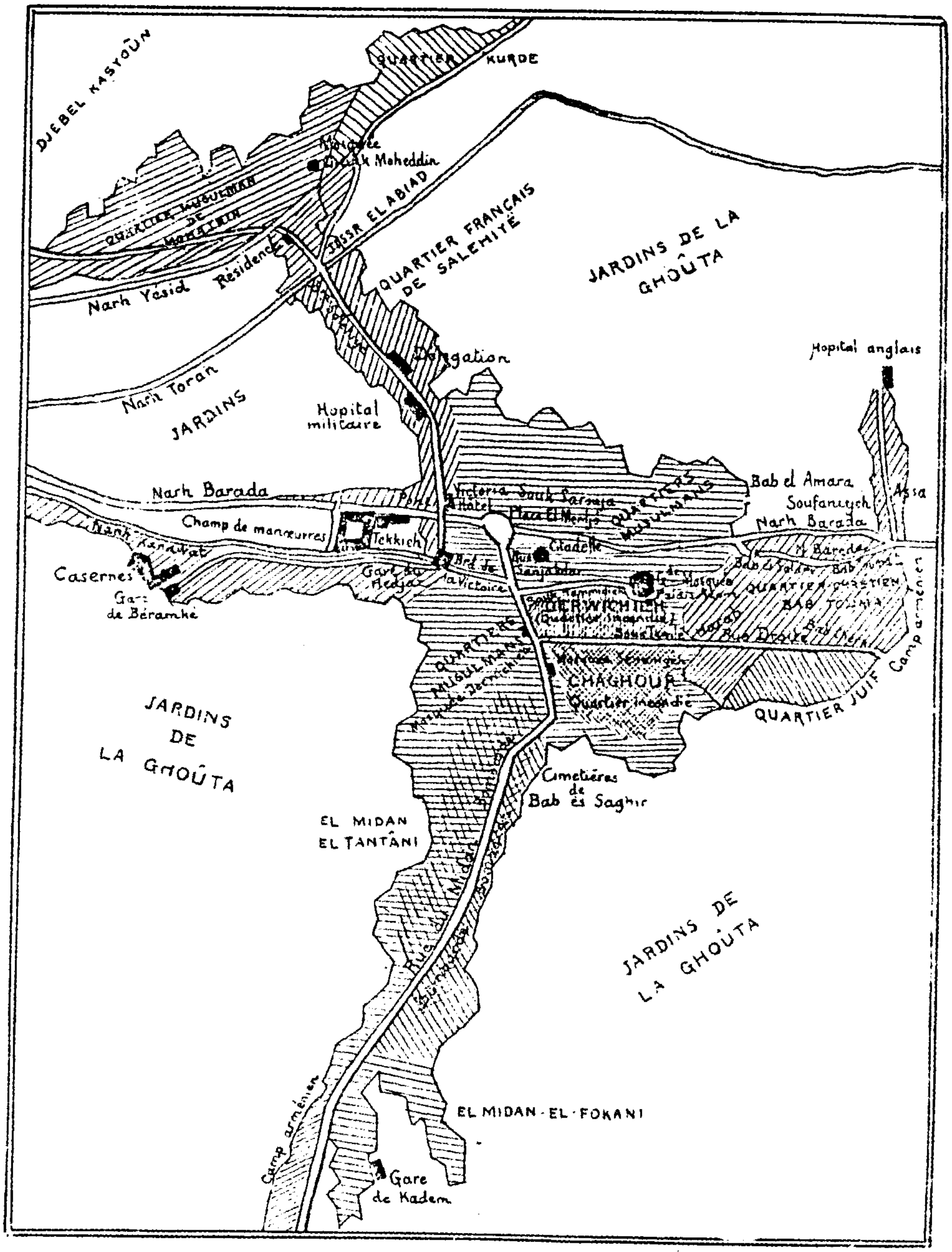

خارطة دمشق وتوضح أماكن الأحداث المذكورة في هذا الكتاب وهي من وضع المؤلفة «اليس بوللو»

من اشهر قادة الثورة
في الوسط الدكتور عبدالرحمن شهبندر وعلى يمينه السيد فوزي البكري وعلى يساره حلمي أبوخضرة فالسيد نسيب البكري ممتطين صهوات خيولهم الأصيلة في ميادين البطولة والشرف

شخصاً يسير بخطوات متثاقلة، قصير القامة حليق الرأس، يرتدي جزمة طويلة، وملابس رمادية، ويحمل سوطاً بيده، وكان وجهه يشبه بشكل عام «بورتريه» «والنشتاين» WALLENSTEIN في لوحة الرسام الشهير «فان ديك» VAN DYCK في ميونخ: عيناه حادتان تشبهان مثقبين من الفولاذ، وسحنته تدل على التكبر والقسوة الوحشية وتوحي بالخديعة والشك وعدم الثقة، وكان يلتفت برأسه الى كل مكان وكأنه يفتش عن شخص يقوم بشنقه، وتحيط بهذا الشخص جماعة عجولة من الشرطة، يرتدي أفرادها ملابس «الخاكي» KAKI وقلابق من «الاستراخان»[1] وتدل هيئاتهم على القسوة والتزلف في وقت واحد، وأن تزلفهم المصطنع هنا يثير الغيظ بهيئةالتملق المبالغ فيه تجاه ذلك الرجل الذي يخافون منه، وكان أحد العناصر يشير من مكانه خلف الرئيس لجميع التجار الموجودين في الشارع بإشارة اخرى لاتخلو من بعض التواطؤ. وتعني الاشارة: حيّوا الرئيس لأنه يسيطر على مقدراتكم، وأعطى الاشارة نفسها أيضاً لصبي كان يحمل خبزاً عربياً تحت ابطه ويقف مذهولاً ساهماً أمام هذا الموكب المذهل، ولأنه لم يقدم التحية وقف «والنشتاين» يهدده، الأمر الذي ذكرني

(١) جلد الاستراخان "ASTRAKAN"

بمروّض الأسود الذي يصرخ ضمن الأقفاص: «اقفزوا.. ! اقفزوا.. !» ويضرب بسوطه في الهواء ويصر من جديد صارخاً «اقفزوا... ! حيّوا... !»

«أيها الدمشقيون... ! انهضوا... ! وحيوا... ! فإن فرنسا تمر من أمامكم... ! أو هكذا يصوروها لكم على الأقل.. !»

وبعد أن مر «والنشتاين» وصار بعيداً، رأيت الصبي الصغير، يقوم بحركة سخرية من ذلك الوحشي، بطريقة ذكية ومضحكة.

ثم أردنا أن نرى الحي الذي يقوم به «بيت العظم» (١) فوصلنا الى الحي عبر أزقة عفنة موحلة، وكانت دهشتنا كبيرة حين لاحظنا أن الأهالي لايزالون محتفظين بدماثتهم وبشاشتهم، حتى أن كهلاً مسلماً يحترف مهنة التجارة في الأسواق، أراد أن يقودنا الى بيت العظم، وبذل جهده لطمأنتي بعد أن فسر اضطرابي تفسيرا خاطئاً، وكان يقول:

«يا اللا.. ! يا اللا.. ياست.. ! (٢) فليس هناك ماتخافينه أبداً.. ! لايوجد فرنسيون هنا في هذا الحي... !»

كان يقول ذلك بلهجة تشجيع أبوي، ولكن بشيء من السخرية المرة سببت لي كثيراً من الألم. وفعلاً لايوجد هناك فرنسيون، فقد كان الجنود السوريين الذين ظهروا فوق كتل الردم والهدم، والتي هي مابقي من قصر ألف ليلة وليلة العجيب، ومن خلال باب البيت المحطم يمكن رؤية باحته التي خربت، وأما القسم المزخرف الذي كان يعلو هذا الباب فلم يبق منه شيء. وقيل لنا أن الغاية من ذلك الهجوم، كانت اختطاف الجنرال «ساراي» كما تنبأنا بذلك قبل، وإن الجنود الفرنسيين المكلفين بالحراسة قد دافعوا عنه لمدة ثلاثة أيام بدون أي تموين بالذخيرة أو الأغذية، حتى أتت المصفحات لانقاذهم. وأكد لي بعض الناس أن الثوار (٣) لم ينهبوا ويسرقوا شيئاً، ولم تكن تلك غايتهم، وقد تراجعوا أمام لعلعة رصاص المصحفات. وقام الرعاع فيما بعد بعملية النهب، حيث اندفعوا الى باحة القصر، بعد انسحاب الجنود منه، وحطموا القيشاني والتحف الأثرية، وسرقوا الميدليات ورموا في الماء مالم يقدروا على حمله. وفي الوقت الذي ابتدأ فيه بنهب المكتبة، وصل صديقنا «خالد معاذ» "KHALED MOAZ" وكانوا يتقاسمون اللوحات الفوتوغرافية، التي لم تحطم، ليصار الى بيعها بعد

---

(١) وردت العبارة: "BEIT AZEM" أي قصر العظم الحالي.

(٢) وردت هذه العبارة: "YALLAH. YA SET YALLAH"

(٣) المؤلفة لم تطلق هذا الاسم على الثوار أبداً، وهي هنا تسميهم «الذين حاصروا»

شوارع دمشق وأحياؤها بعد التدمير . وترى زرافات اللاجئين الى حي الصالحية بعد أن دمرت منازلهم .

ببضعة قروش . وكان أن توسل صديقنا لهؤلاء الناس كي يتركوا ماتبقى ، وهددهم بغضب الفرنسيين منهم لو أنهم فعلوا ذلك ، وبأنهم سيعدمون من يجدون عنده من هذه الأشياء المسروقة ، وقيل لنا أيضاً بأن بعض اليهود قد تعرضوا قبل ذلك لمثل هذا العقاب . وفي سوق الحميدية أوقفنا بعض السنغاليون ، فتوجهنا الى ساحة المرجة عن طريق «حي السنانية» .

ولم نصادف أي أوروبي في الشوارع بعد ، بل رأينا بعض السيارات العسكرية المغبرة ، وكان ضباطها ينظرون بدهشة إلى هؤلاء المدنيين الذين يتنزهون بكل هدوء وكأن شيئاً لم يحدث كما وعاد مدخنوا النارجيلة للجلوس أمام أبواب منازلهم (كالعادة) مشغولي البال صامتين ينظرون إلينا ببرود أعصاب نظرة عدائية سببت لي انزعاجاً شديداً لايمكن وصفه ، وكأن ذلك نوع من التأنيب المبطن . ! وبدت ساحة المرجة خالية تماماً ، ومحاطة بالاسلاك الشائكة ، وكانت أكياس الرمل تغطي نوافذ الأبنية الرسمية ، وقرب سوق الخضار رأينا العربيات الفارغة[١] استوقفنا ضابط قصير القامة لاتبدو عليه مظاهر القسوة الوحشية ، وطلب مني بطاقة المرور التي أحملها في مدخل الصالحية قرب نهر بردى ، وهناك كنا قد وصلنا إلى منطقة تخيم عليها مظاهر الحرب تماماً ، فالحي الذي دخلنا يشبه معسكراً حقيقياً محض ترى فيه الجنود في كل مكان بينما في باب توما لم نرَ أي جندي طوال الأيام الثلاثة الماضية ورأينا هنا

(١) «ARABIYES» وردت هذه الكلمة بالغة العربية وترجمتها المؤلفة في أسفل الصحفة على أنها «سيارات»

المتاريس، وهي حواجز حقيقية تمتد أمامها الأسلاك الشائكة ويقف خلفها الجنود باستعداد. وثمة أشخاص يرتجوفون من الخوف، وهم ينظرون إلينا من أعلى جدران المستشفى الذي حجزوا فيه، بنظرة مليئة بالدهشة، لأننا كنا نمشي بحرية في الشارع وأخذوا ينادوننا لكي نقاسمهم مصيرهم السعيد. وأمام مبنى المستشفى كانت تقف مصفحة مع سرية مشاة مسلحين.. وكان المبنى قلعة حقيقية لايتعرض المرء فيها لأي خطر ولكن يبدو لي مما آراه وأسمعه أن كل إنسان هنا يشعر بالخوف الرهيب، فلقد كان هناك مدنيون مسلحون يجرون وينادون بعضهم بعضاً والاضطراب ظاهر على وجوههم بوضوح وكان الكل يتحركون في أماكنهم بقلق من الأخبار الملفقة التي سبق وسمعوها وقد دهشوا من رؤيتنا هادئين.

إنهم يشقون الخنادق في الحدائق ويبنون السدود ويفتشون الناس، ويبحثون عن أية رزمة مهماكانت صغيرة ليحققوا بها.... ولكن أي سلام هذا فيما لو قارناه بماعليه الحال في حي باب توما....! حيث حمانا الأشقياء أنفسهم!!

وفي المساء، قطع حالة الهدنة والهدوء الغير طبيعي أزيز طائرة عابرة، تبعه دوي انفجارين من جهة ساحة المرجة، ترى هل تجدد القصف..؟

لا....! وإنما كان هذا من قبيل الزيادة أو الإضافة كتلك التي يضيفها البائع في السوق زيادة عن الوزن المطلوب....

المشفى الفرنسي
مشفى القديس سان لويس وأمامه ثلاثة سيارات عسكرية فرنسية تنقل اليه المواد التموينية الحربية أيام الثورة السورية عام ١٩٢٥-١٩٢٧ ميلادية

الخميس ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٥

عدت إلى بيتي ويظهر أن الجو قد أثربي لأني في هذا الحي المحمي تماماً أشعر بالأمن بدرجة أقل مماكنت أشعر به في باب توما، وقفت في شرفة منزلي لأرى المشاهد الغريبة فرأيت مواقف مدهشة حقاً: فالفرنسيات اللواتي بقين في حي الصالحية رغم قلتهن، يمشين بحراسة مشددة من الأمام والخلف، من قبل عدد من الجنود المسلمين، حتى ولوكانت الواحدة منهن ذاهبة إلى البقال الذي لايبعد عن منزلها أكثر من خمس خطوات وهذه آخر وأحدث مظاهر السخرية الهزلية وتعطي فكرة حسنة عن مقدار شهامتنا وهذا الإجراء المخزي جعلني أشعر بالمهانة فعلاً، وكرد فعل ضد هذا الخوف الذي هو بالأصل غريب عن طباعنا بعض الشيء قررت النزول وحيدة إلى ماوراء التحصينات وذلك كي أحصل على بعض حاجاتي من ساحة المرجة.

وقرب فندق فيكتوريا تأملني ضابط يرأس المخفر القريب من الفندق بنظرة استفهام فأريته بطاقتي وأنا أهز أكتافي بلامبالاة مني فابتسم وأذن لي بالمرور. كانت الحوانيت كلها مغلقة إلا واحداً، وهو حانوت السيد (ساكريستان) وفيه يجد المرء عادة كل حاجاته مأكولات ومشروبات ومحروقات وغير ذلك وهو أيضاً مصدر هام للإشاعات في مدينة دمشق. ولأن صاحب هذا المحل يعرف نفسه بأنه المتصرف الأهم بكل شيء نظراً لضخامة محله فقد كان في الاحوال العادية يضع نفسه في منزلة ترفع لايستحقها، ولكن اليوم وبما أن الاحوال قد تغيرت فقد بدا على وجهه نوع من الدماثة لم أكن أتوقعها تصدر منه. ياإلهي. . . . ! أية مصافحة حادة تجارية هذه. . ! إنه لم يرى زبوناً منذ ثلاثة أيام وكنت أنا أول من حمل إليه غصن الزيتون، وراق لي أن أسأله.

أي يوم هذا ياسيد ساكريستان . . . . ! ؟

ألم ينهب شيء من مخزنك. . . . . ؟

وما رأيك بالأحداث الأخيرة. . . . . ؟

فارتبك الرجل من سؤالي كثيراً. لأنه كأي تاجر لايريد أن يخسر أي من الفريقين ولذا قال من بين أسنانه بعد تردد قليل.

إن الناس أغبياء. . . !

ثم ابتسم وقدم لي لائحة جديدة بأسعار الخضار.

ولماتركت المخزن ذهبت إلى المصور «S......» الذي حول الاستوديو إلى منامة له، ولم يعد يعرف من أين يبدأ أمام هذا الحشد الكبير من الأفلام التي جلبها له الجنود هنا: فمناظر دمشق المقصوفة بالقنابل أصبحت ثروة لهواة التصوير. . . . ! ولأنه لم يتعرض لي أحد، فقد تضاعفت جرأتي ودخلت طريق السنجقدار متوجهة إلى سوق الحميدية وفي الطريق صادفت صديقين لي، لم أكن أتوقع رؤيتهما هناك وقد أنبآني بأن البيت الذي يسكنه السيد (ج- بيك) قد يحترق الآن مع مجموع البيوت المجاورة له، وبأن صاحبه المذكور يقوم بنقل امتعته من بيته هذا وقد سبب لي هذا النبأ بأساً عظيماً، لأننا تركنا في ذلك البيت جميع الأفلام الرائعة التي صورناها لطبعها في هذا الكتاب وركضنا بسرعة كبيرة واستجمعنا كل قوتنا لنصل إلى البيت المحترق وهناك شاهدنا مضخات الاطفاء تقذف البودرة على كتل اللهب وكان يشغلها رجال الإطفاء السوريون بملابسهم الملفتة للنظر وقد اكتفى ضابطهم بالجلوس في السوق الصغير المجاور وهو يدخن بشراهة أرادت السلطة أن تحرق منزل عائلة البكري لكن النار التهمت جميع المنازل المحيطة به في حي «المارستان» وعلى هذا تعرض الأبرياء أيضاً للعقاب والأضرار وهذا هو منطق الحرب. . . ! وقد رأينا عملية نقل اثاث منزل مضيفنا على رؤوس الحمالين:

هذه الثريا التي كانت تضيء مجلسنا وهذه هي الاقداح التي كنا نشرب بها وقد التهمت النار بناء البيت كله تقريباً ولم يبق منه إلا الغرف الصغيرة ذات النوافذ المحطمة التي بدأت النار تخترقها أيضاً هذا بالاضافة إلى عاصفة الدخان الخانق الذي كان ينبعث من بقية البيوت المحطمة.

لكن لم يعاقبون هؤلاء الأشخاص بحرق منازلهم. . . . ؟

ألم يكن من الأفضل لو تمت مصادرة هذه المنازل وإعطائها لهؤلاء البؤساء المشردين الذين نزحوا من القرى. . . . . ؟ نعم. . . . . . ! ولكن هذه الطريقة لاتدب الرعب في القلوب. . . !

في سوق الحميدية لانرى الآن إلا الحركات المحمومة والتنقلات السريعة: فهنا مخزن كبير للسجاجيد الرائعة الجديدة وقد حرقت من زواياها الأربع وهنا جميع التجار ساخطون يصرخون بأعلى أصواتهم، والحمالون يغادرون السوق وظهورهم محنية تحت الأثقال.

الخراب. . . !

الخراب يعم كل أرجاء المدينة

لقد حطمت «أغلاق» المخازن ومزقت لكن بأية آلة أمكن إحداث مثل هذه الشقوق الضخمة وهذه الاغلاق مصنعة من الصفيح المتين . ؟ سألت التجار هذا السؤال فقالوا بأنها مزقت بالمصفحات وأسرع هؤلاء بإخفاء كل أملاكهم وبضائعهم ، لأن الجنود كانوا ينهبون كل شيء دون رحمة في ذلك الوقت وكان الرعب يعم كل أرجاء ذلك الشارع «الكبير » المقفر الذي ثقبت سقوفه قنابل «الشرابنيل» «CHRAPNELLS» .

وفي سوق المكتبات [1] رأيت أكواماً من الكتب والأوراق المبعثرة الملطخة بالوحل ويداس عليها بالأقدام وفي السوق الطويلة رأيت أسوأ من ذلك بكثير وكان الأمر على أشد مايمكن من السوء ، لأنه لم يبق به أي شيء أبداً فكل مخزن قد خلع «غلقه» ونهب مافيه تماماً ولانرى هنا من الحيوية إلا دكاناً صغيراً من الخشب يبيع الساندويش للفقراء المساكين الجائعين . أما مسجد السوق فقد خرب أيضاً ولذا رفع عليه علم منكس دلالة على الحزن . وهاهو منزل آخر تهاوى تحت القنابل ولم يبق فيه إلا كرسي واحد أمام باب أخضر لإحدى غرف الطابق الثاني . وفي البزورية سوق الحلوانيين الذي تغطيه الزينة عادة في «مولد النبي» عم الخراب أيضاً بشكل يحير بعد أن كانت مليئة كعادتها بالبضائع الثمينة ، وكانت رائحة السكاكر المحروقة لاتزال تعبق في الجو ومازالت أيضاً بعض ألسنة اللهيب التي لم تطفأ بعد وهنا قط أبيض صغير مسكين تائه فقد صوابه ويقف أمام حانوت سيده الذي تهدم ، ويحف بمخالبه الانقاض المحروقة محاولاً فهم ماحدث وهو يطلق بين الحين والآخر مواءً حزيناً . وحاول ولد صغير أن يطرده بضربة من عصاه ، لكن رجلاً مسكيناً حزيناً كان يمر من هناك فاعترض الطفل لأنه فهم جيداً الحيرة المؤلمة التي يعانيها هذا الحيوان . وهنا صادفنا صديقنا السيد «عبدالقادر أ . » وقد هدته هذه الأهوال لدرجة لم يعد بها قادراً على محادثتنا ، أو الرد على استفساراتنا . . ! لكن ماالذي بوسع المرء أن يقوله في مثل هذه الحالات . . . ؟

وعلى طول الشارع المستقيم الواصل الى باب شرقي كانت آثار رصاص المصفحات تظهر على الجدران والأبواب وواجهات المخازن .

لقد قتل الشابان «بيطار» و«كاتب» بهذا الرصاص بلا شك . . . ! والمحزن في القضية أن عائلتي هذين الشابين لم تتمكنا من دفن أبنائهما بالشكل اللائق لأن الأشقياء يحتلون منطقة

---

(١) أي سوق المسكية وقالت المؤلفة . «Aubazar des Librairies»

شارع مدحت باشا من أعظم شوارع دمشق التهمته نيران القذائف المتساقطة عليه من الطيارات والسيارات المصفحة.

المقابر ولذا تم نقلهما على ظهور الحمالين، وكأنهما كيسان من البضاعة. وعند عودتي من الصالحية، علمت بأن قناصل العديد من الدول الأجنبية قد قدموا احتجاجاً للسلطات ضد هذا القصف الذي تعرض له الأبرياء والمذنبون على السواء..! وبأن واحداً منهم قد تكلم بحدة مع المندوب «أو بوارد» "AUBOUARD" مطالباً باحترام حقوق الانسان والتوصيات التي تنص عليها جمعية الأمم المتحدة.

وقال لي شاهد عيان بأن المندوب قد أجاب بهيئة غير لائقة، وأن الفرنسيين الذين كانوا يحيطون به لم يظهر عليهم الأسى مطلقاً بل ظهروا وكأنهم يفخرون بأدائهم لعمل واجب القيام به، وأضاف محدثي بأن شخصاً واحداً فقط، «وذكر لي اسمه» بدا وكأنه يدرك بشكل جيد حقيقة الموقف، لأننا رأيناه يطرق رأسه ويحمر خجلاً...! نعم..! واحد فقط...! وعلى أية حال فالحمد لله أنه كان هناك واحد من المنصفين..! وهو موظف مدني. وإن ما أثار غضب القناصل الأجانب هو الأسلوب الغريب الذي عوملوا به هذه المرة...! وبما أنهم مسؤولون عن رعاياهم، فقد كانوا يستعلمون من المندوبية بين وقت وآخر، عن الحالة الأمنية، وكان يجاب على أسئلتهم دوماً بالعبارة التقليدية أصبحت محل سخرية دمشق كلها لمدة طويلة «الهدوء تام....!»

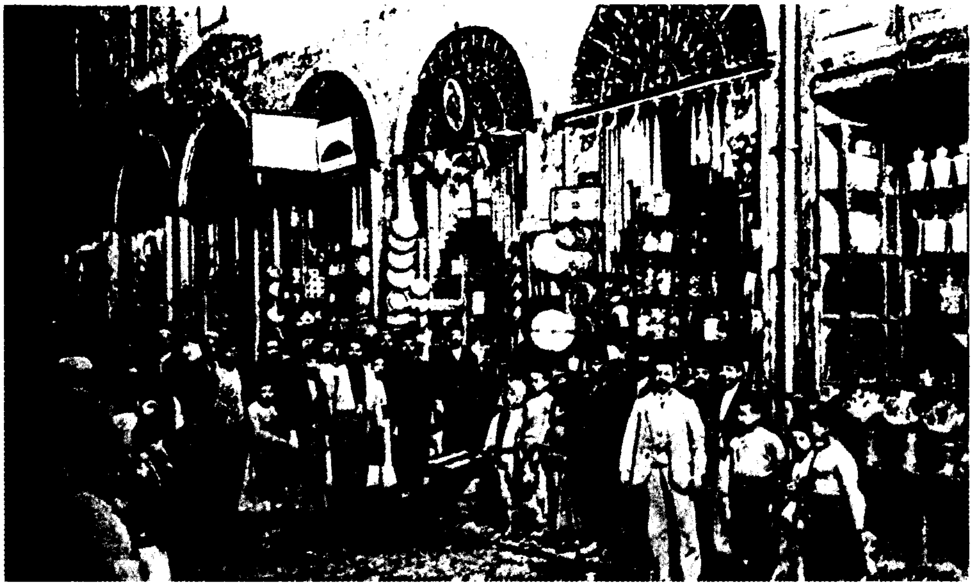

صورة سوق البزورية بعدسة «بونفيس» خلال تصويره المنطقة بين الأعوام «١٨٦٧ - ١٨٩٥م» حيث المحال المتخصصة ببيع الكلّاج والشموع وعلب السكاكر والمربيات تعلوها أقواس مزخرفة بالقضبان الحديدية التي كانت معممة في دمشق خلال تلك الفترة أما ما كتب على البطاقة «سوق باب توريما» فهو خطأ في التسمية .

«الهدوء تام . . . . !» وبعد ساعات من هذا «الهدوء التام . . !» أغرقت المدينة بالنار والدم . . . فاحتج القناصل لسببين معاً : لقصف المدينة الوحشي العشوائي ، والأقوال الكاذبة التي ألقيت على مسامعهم ، ولم يعودوا يصدقوا التأكيدات الرسمية بعد الآن . . . ! وفي هذه الأيام تزداد الاتهامات ضد «صبحي بركات» ويؤخذ عليه أنه لم يمنع عملية القمع الوحشية التي تمت ، وأنه قصد من ذلك ارضاء أهدافه الانتقامية .

وكان من الواجب ايجاد شخص يكون «كبش فداء» فكان هو «كبش فداء» وهو في الواقع لم يقم بأي دور بطولي حتى الآن ، فلا أحد يسافر بين دمشق وبيروت أكثر منه ، إنه يذهب الى بيروت في اللحظات الحرجة التي يجب عليه فيها البقاء في عمله ، ويعود الى دمشق بعد أن يعود اليها الهدوء وتزول الحاجة له . والحق أن أمله بعطف الثوار عليه ليس بالكثير . وأخيراً فقد أرادت السلطة أن تعاقب أهالي دمشق لأن مدينتهم تحملت القصف بالقنابل المدمرة ولهذا فرضت على أهاليها غرامة مالية قدرها مائة ألف ليرة ذهبية ، ويجب أن تدفع خلال ثلاثة أيام ، وإلا سيعاد قصفها من جديد . انتقل الأمير سعيدالجزائري مع أفراد عائلته الى حي الصالحية ، وكان يكلمني عن ذلك بلهجة طلية حليمة وهذه من أخص صفاته ،

لكن لهجته هذه امتلأت هذه المرة بالمرارة، إذ ذكر لي تهديدات الضابط الفرنسي لمدينة دمشق: «إن لم تدفع التعويضات قبل يوم السبت فإننا سندمر المدينة ونقلبها رأسا على عقب بما فيها حي باب توما المسيحي، ولن نستثني إلا حي الصالحية» ألا يملك مدير الشرطة الذي يسخر من الفرنسيين الطيبين، بعض الأقفال ليكم بها أفواه اولئك الذين يدبون الخوف في قلوب الناس بقلة تبصرهم! إن هذه العقلية عامة تقريباً لدى مواطنينا العسكريين!! يوم الاثنين الماضي.. وأثناء قصف دمشق بالقنابل عندما كان في طريقه لمغادرة المدينة، يضحك في الشارع وسط هيئة أركانه، كما كان الكابتين «كاربيللية» يشاهد الآن في ارصفة المدينة وقد حلق شعره لكيلاً يتعرف عليه أصدقاؤه في الجبل، وهو يشارك في مهمة الدفاع، ويقول الناس أن هذا من قبيل الاثارة المتعمدة لهم.

وأخبرني شخص وصل منذ قليل من حي الميدان، بأن السلطة تجبر الأهالي التي يسيطر عليها الثوار بأن يطردوهم أو يسلموهم بأنفسهم إلى رجال الشرطة تحت طائلة العقاب الشديد.

الجمعة ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٥

من الصباح الباكر ازدحم شارع الصالحية بجمهور غفير مذعور أتى من أطراف المدينة المنخفضة، الأكثر بعد من غيرها ليصعد باتجاه المهاجرين. هنا ألوان عديدة من البشر، ومن كافة الأعمار: كهول مساكين، وعجائز يجرهن أولادهن، وأمهات يصطحبن أطفالهن، ومشايخ بعمائم خضراء يحملون مسابح مصنوعة من خشب الصندل في أعناقهم، ورجال غرباء كان من المستحيل أن نراهم في الحي الفرنسي لولا هذه الظروف. وكان جميع هؤلا يجرون حميراً صغيرة، تقوست ظهورها تحت احمالها من السجاجيد والفرش والوسادات، وحمير أخرى يجرها الفقراء المعدمين لاتحمل فوق ظهورها إلا بعض القفف الفارغة. وكان هؤلاء المارون يحملون على رؤوسهم وبأيديهم أشياء عجيبة غريبة، نراجيل و «بوابير» ووسائد مخططة بألوان متنافرة، وطاولات صغيرة مطعمة بالصدف وأحذية عتيقة وقوارير زيت في غالب الأحيان. لقد ظل هؤلاء يمرون طوال عدة ساعات، وكان هناك دوماً قادمون جدد، وكأنهم الأمواج على شاطئ البحر، يتتابعون ويتلاطمون. وكان من يشاهد ذلك يخيل اليه وكأنه يعيش في بلد «سفر الخروج» الذي تحدثت عنه التوراة. وكأن حي الميدان وجميع الأحياء المجاورة له تنتقل بسرعة وبالصدفة التقيت بصديقتي المسكينة «مريم» وكانت لشدة

نكبتها تبكي وعينيها غارقتين بالدموع وكان معها كل من يلوذ بها من خادمات واخوة صغار وأخوات صغيرات، وبالاضافة الى ثيابها وأدوات منزلها. وترى حافلات الترام مكتظة بالركاب، وقد تعلق الناس بجوانبها كالعناقيد وبسبب الضرورة والحاجة فقد كانت سيارات «دمشق- بغداد» تسير بين «الميدان والصالحية». وهذا الخط الجديد أشد خطراً عليها من خطها الأصلي.

وقد لفت انتباهي عجوز من ضاحية المزة، ومعه زوجته التي تسربلت بغطاء برتقالي اللون، تجر حمارهما ذو الشعر الرمادي، وقد وقفا عند رجال الشرطة، الذين كانوا يقدمون بطاقات المرور لهؤلاء المساكين، فأخذ العجوز هذه البطاقة الوريقة من يد «الفرنساوي» "FRANZAOUI" دون أن يفهم ماذا تعنيه ومافائدتها، ولذا رماها بإهمال في الجدول القريب وتابع مسيره على بركة الله، وتبعته زوجته وهي تعرج بمشيتها وتحمل «لفافة» من الأمتعة فوق رأسها وتمسك طرف حجابها بين أسنانها.

وفي وسط هذا الخضم العظيم من البشر، رأيت عدداً من جنودنا الفرنسيين، بألبستهم العسكرية الرثة، وتبدو على هيئاتهم ملامح الحزن والتعب، حتى أن بعضهم كان يعرج،

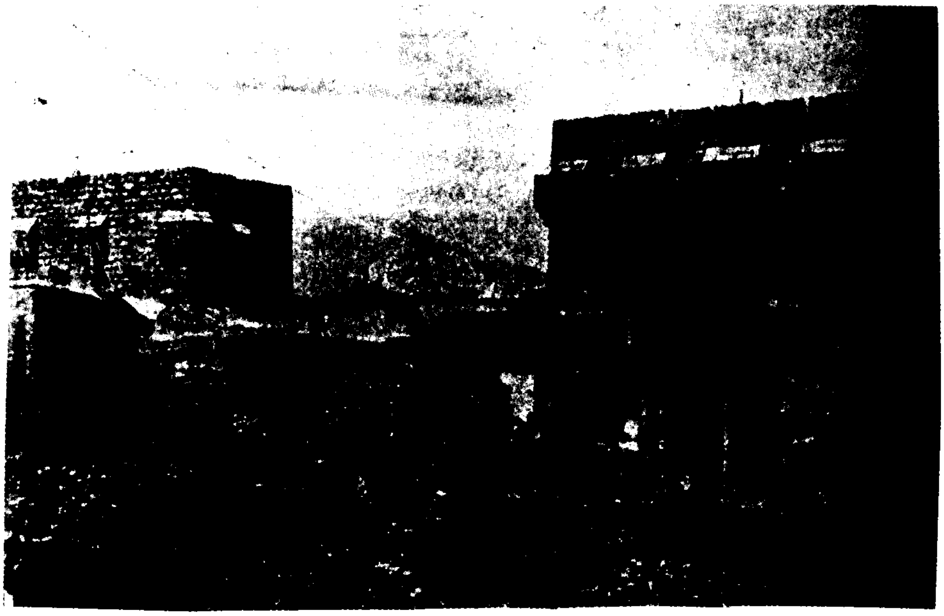

الخراب الذي اصاب الاحياء المجاورة لقلعة دمشق ابان الثورة السورية سنة ١٩٢٥ نتيجة القصف الافرنسي لها

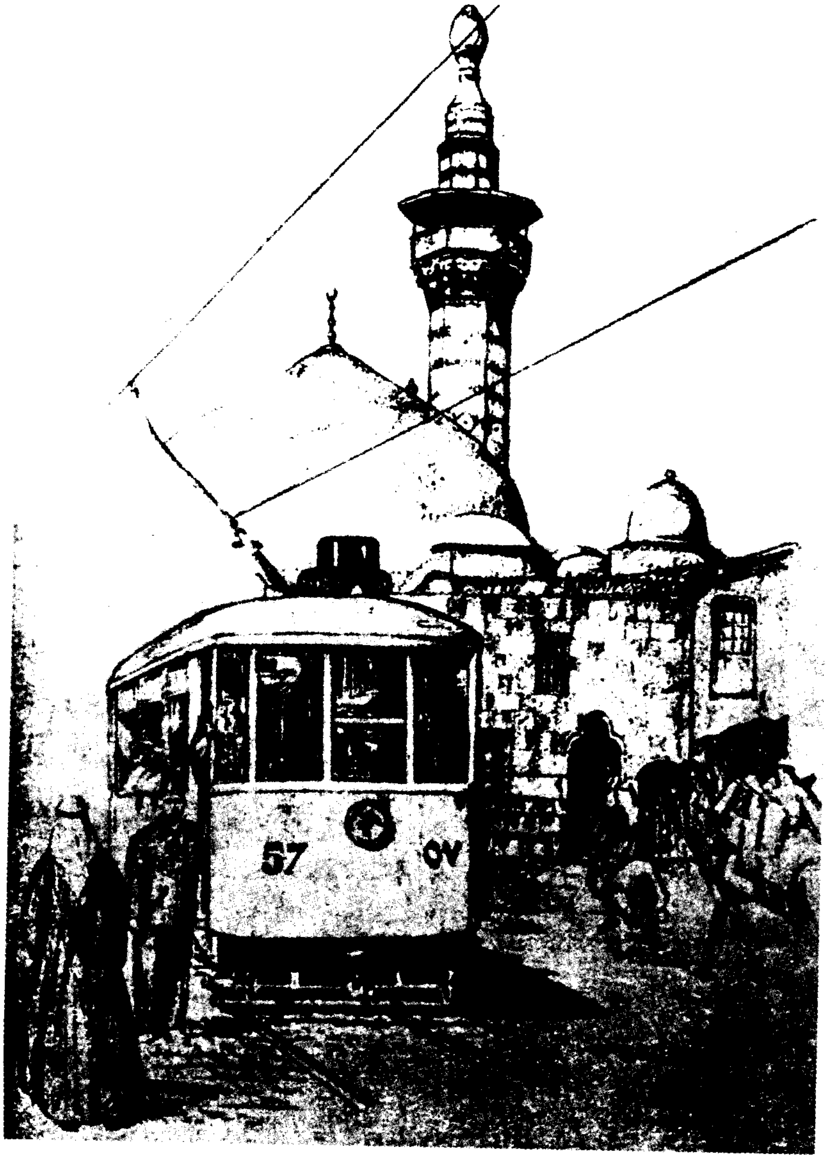

صورة ترامواي- الميدان أمام جامع «سنان باشا» في محلة السنانية قرب باب الجابية

وكان بعضهم يحمل الى مخفر شرطة «الجسر» وعاءاً من الحساء البارد اللعين الذي تسبح فيه بعض الأشياء المريبة، وكان منظرهم يقبض القلب.

لكن . . . ! لم هذا النزوح الكبير نحو المهاجرين . . . !؟ قيل لي أنه يوجد هنا منازل تكدس في الواحد منها أكثر من خمسين شخصاً. وغالباً لا أقل من عشرين أبداً، إن هذا الحي مكتظ بالسكان ولكن أهاليه يسقبلون القادمين الجدد بإحسان أخوي يتصف به أبناء هذا البلد. وقدحاول شخص أن يتحدث مع بعض المارين لكنهم أجابوه بكره . . . ! فماذا سيجري غداً حتى امتلأت قلوبهم بهذا الخوف الكبير . . . ؟ وقد علمت اليوم من مصدر موثوق بأن جميع ضواحي دمشق، بما فيها البساتين قد احتلها الثوار، وقد تعرض أحد أصدقائنا، ممن يعملون في خدمة الفرنسيين، لرصاص غزير وهو يجتاز بسيارته طرف المدينة، وقص علينا قصته ووجهه مازال محمراً والدم يصعد الى جبينه والعرق ينسكب منه، وأضاف أخيراً:

إنه يستحيل الخروج من دمشق بعد الآن، وقد قتل رئيس محطة دمر وهو شخص لطيف اسمه «أمير بيللاما» "EMIR BELLAMA" كان القتيل يؤنبني بود على جولاتي التي كنت أقوم بها بمفردي، وبعد قتله تم نهب محطة القطار في دمر، ونهب القرية نفسها. وقد احتلت عصابات الثوار كل المضائق التي يمر بها نهر بردى، حيث يمر القطار، وقد ازداد عدد هؤلاء الثوار بصورة ملحوظة بعد انضمامهم وتحالفهم مع أهالي الشاغور الذين أصبحوا بدون مأوى، وكذلك سكان القرى التي احرقت في منطقة الغوطة، ويقال أيضاً أن الطلاب والمثقفين قد انضموا الى الثوار.

وإذن . . . ! إننا لانستطيع تخويف كل هؤلاء . . . ! ولم يتلقوا درساً أبداً من «درس دمشق» الذي لقناهم إياه بطلقات المدافع . . . ! وأخيراً، فمن هو المخدوع في هذه القضية ياترى . . . !

السبت ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٥

في الساعة الواحدة من هذا اليوم، أتى السيد الطبيب «N» وكأنه الهدهد الذي بشر ملكة سبأ "la REINE DE SABA" يحمل إلينا نبأ سلم مؤقت:

«لن يحدث قصف أبداً بعد الآن . . . ! وقدحددت مهلة شهر كامل لدفع التعويضات، وخلال هذه المدة سيتم تبديل أشخاص كثيرين واجراءات عديدة، وإن سبب الخروج الذي حصل البارحة هو أن القنصل الانكليزي قد أمر بلصق اعلانات تخبر رعاياه بضرورة الالتحاق

من اليمين الى اليسار المجاهدون :
أحمد غازي- سعيد الأظن- عبدو عكاش- أحمد مسعود الحناوي- سعيد عكاش

الفرسان، سعيد عكاش، وحجازي الكيلاني، الأمير عزالدين الجزائري، أحمد غازي.

بالقنصلية البريطانية، فأحدث ذلك خوفاً عند الناس، واعتقدوا بأنه سيجري قصف جديد للمدينة وكردة فعل احتياطية نزح الناس لكي لايكونوا من عداد الموتى في القصف القادم للمدينة». وعلمت بأن الأمير سعيد قد اعتبر شخصاً مشبوهاً، وبأن ابن أخيه قد أوقف لأنه تجرأ على حماية باب توما في يوم الاثنين الماضي، وكان هذا الحادث يستدعي للقيام بزيارة له، فذهبت الى بيته واستقبلني حارس الباب البربري[1] ذو المظهر العجيب، وكان يحمل «نبوتاً»[2] مصرياً في يده. وسرعان ماوصل الأمير شاحب اللون أصفر الوجه، مشغول البال، وأعطاني معلومات قيمة عن الاضطرابات التي حدثت في الأيام الأخيرة، في اللحظة التي بدأ فيها القصف ركب سيارته وذهب ليتوسط مع الفرنسيين، وكان يعتقد بأنه قادر على ايقاف العصيان بمساعدة فرسانه الجزائريين وفي تلك اللحظات الحرجة، جعله الفرنسيون ألعوبة: يذهب ويعود، ويذهب ويعود لكي يستطيع مقابلة الجنرال «غاملان» "GAMELIN" وأخيراً اتهموه بكل بساطة بأنه متآمر مع الثوار. وفي مساء اليوم الذي أحرق فيه حي «الدرويشية» استقبل الأمير في منزله كل المتضررين وقص علي الأمير قصة عائلة «القوتلي» التي كانت تملك واحداً من أجمل بيوتات دمشق، إذ يحوي حسب قول الأمير مفروشات وتحف لانظير لها مما جعل المسؤولين يستقبلون الجنرال «غورو» عندما زار دمشق في هذا البيت، وأخيراً دكته المدفعية بقنابلها ودمرته.

في بادئ الأمر احترقت جميع المنازل المحيطة بهذا البيت، فالتجأ سكان «الحارة» الى باحته الداخلية ولكن سرعان ماقصف البيت وحوصر الناس، فقام البعض بخرق ثلاثة جدران كي يفتحوا ثغوراً يهربون منها تاركين أموالهم وحليهم، بالإضافة الى الثروة الكبيرة من العملات الورقية التي أتت عليها النار وجعلتها رماداً. ووصل هؤلاء نصف عراة الى منزل الأمير سعيد الجزائري الذي كانت باحته قد امتلأت بالنازحين.

وفي هذه اللحظة سقطت قنبلة كان يمكن أن تقتلهم جيمعاً لو لا أن المعجزة الإلهية جعلتها تسقط في الجدول الذي يمر في الحديقة على مسافة بضعة أمتار منهم. وتلقيت أيضاً من أشخاص موثوقين تمام الثقة عدداً من الشهادات التي تؤكد حوادث النهب الكثيرة التي قام بها الجنود، الذين يقال بأنهم جميعاً «جنود فرنسيون»، لأنه ليس من الممكن هنا تمييز جنسيات الجنود بين شركس وأرمن وسينغاليين وماليزيين[3]. وهكذا نتحمل نحن مسؤولية مايقوم به أنصارنا وجنود مستعمراتنا.

---

(١) كان مع عائلة الجزائري في دمشق العديد من الجنود والأتباع الخاصين بهم وهم جزائريين أيضاً

(٢)"NABOUT" وقد شرحت المؤلفة هذه الكلمة بأنها «عصا»

(٣) " Car on ne distinguc icti ni Tcherkesses.ni Armèniens , ni sénégalain, ni Malgaches."

ثلاثة من قادة الثورة السورية

يتوسطهم السيد شكري القوتلي والى يمينه المغفور له الزعيم الشهبندر والى يساره السيد نسيب البكري

وهذا المساء ألصق اعلان "AFFICHE"على باب منزل «الدكتور شهبندر» يقول :

« إن لم يعد الدكتور شهبندر خلال شهر واحد الى دمشق فسوف يحكم عليه بالاعدام . »

وبما أنه سيعدم بالرصاص بلا ريب فيما إذا عاد ، ولهذا فقد قام على الفور باختيار الحل الأنسب له ، وهذا يجعل الاعلان فارغا ساذجاً . . . !

الأحد ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٥

هذا الصباح بدأت رحلتي الى المزارات الحزينة في «الخرائب العصرية» بدمشق . . . انطباعات لاتنسى !

فقد وصلت في جو قاتم رمادي وحزين الى منطقة السنجقدار ولم أعد أعرف أين أنا . . !

إن كل حمّامات ومخازن الجانب اليميني من الشارع الواصل الى جامع الدرويشية قد دمرت أما مخازن الجانب الأيسر فقد تهدمت بكاملها وأصبحت رماداً ، وكذلك الحوانيت التي كان لي بين أصحابها أصدقاء مهذبون وشرفاء منذ مدة طويلة ، ومازال دخان الحرائق ينبعث من هنا وهناك ، ويختلط بالغبار والدمار ، وقد أصيبت مآذن وقباب جامع الدرويشية بصدوع من جراء القصف ، وكأنها تعرضت لغزوات بربرية وعلى الجانب الأيمن من الرصيف ، وقرب مدخل «السوق الطويل» تمركزت سرية من جنود الفرقة الأجنبية ، وكانوا وعلى أهبة الاستعداد ، وقد استطعت أن أميز كثير من الرؤوس ، إن وجوههم لاتوحي بكثيرمن الثقة ، فهل يريدون أن يبثوا الذعر أيضاً؟ تابعت طريقي حتى مدخل «حي الميدان» وهنا منظراً جديداً يدمي القلب : فقبة جامع السنانية الرائع قد ثقبت بفعل قذيفة ، ثقباً ضخماً شوّهها ولكن القنبلة التي خرقتها لم تنفجر بعد سقوطها في داخل الحرم لحسن الحظ .

كما أن سوق السنانية الصغير الذي تعم فيه البهجة عادة في يوم المولد النبوي قدأغلقت جميع محلاته بعد أن تضررت بالقصف!

وإن ما أعطاني فكرة صحيحة عن تأثير القصف الذي جرى هنا ، هو رؤيتي بشكل مفاجيء ، ومن خلال أحد الأزقة ، صفائح معدنية ضخمة قد سقطت وانفصلت عن بعضها وتخربت وتهاوت على الأرض وكأنها بقايا منطاد «زيبلين» "ZEPPLINE" بعد أن كانت تغطي السقف العظيم العالي للسوق .

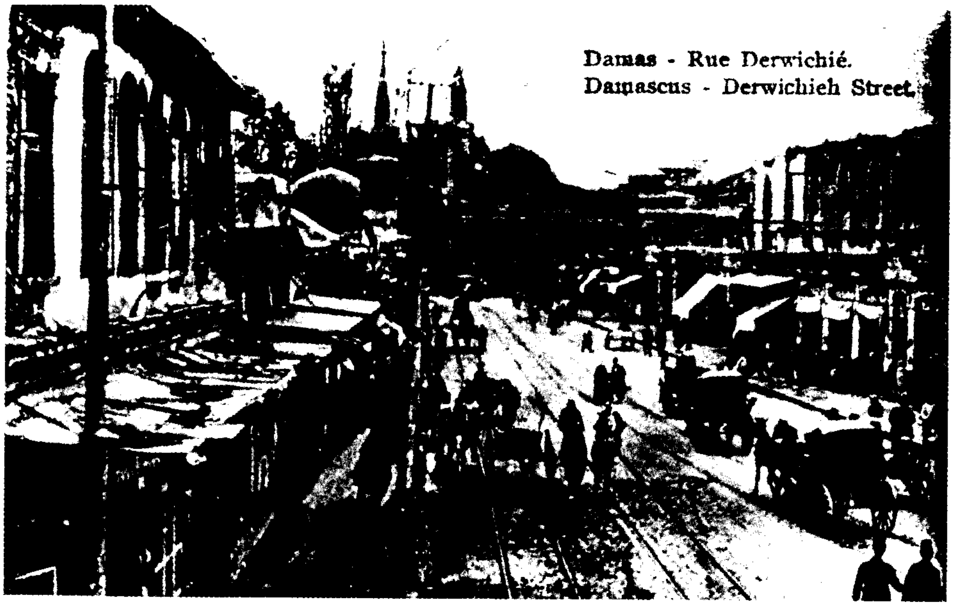

الدرويشية أواخر العشرينات أوبدايات الثلاثينات

ياسوق الطويلة الفقير . . . ! حيث كان «أحمد كاكاتي»[1] لكن أين هو الآن . . . !؟ كل هذه المتاجر الصغيرة، كنت أقصدها، وأشتري الأقمشة والأصواف المصبوغة، كلها محروقة والأبواب مدمرة، والرفوف مخلوعة ومكسرة، وقد أفرغت المحلات من محتوياتها وقال أبناء الحي بأنهم رأوا هنا جنوداً يخلعون الأغلاق والأبواب وينهبون كل مايجدونه في وضح النهار.

وكان ضوء الشمس يسقط على السوق أنوار مستطيلة تعبر تصدعات السقف الواسعة، وتنير الخرائب وقد احتار الكل من رؤية السماء وضوء النهار في هذا المكان الذي كان يبدو سابقاً كنفق مظلم يمتليء بصراخ المنادين ووقع الأقدام.

ولم تعد الحياة ومظاهر النشاط العادي الى الحي المسيحي فقط.

ومررت بسوق البزورية المغبر المعفر المليء بالركام، فوصلت الى قصر العظم الذي شاهدت دخان الحريق لايزال ينطلق منه منذ بضعة أيام.

وخلف أكياس الرمل وقف جنود من الفرقة السورية يراقبون، وقد تفضلوا مشكورين بالسماح لي بالدخول.

(١) ورد اسمه بالمصدر كما يلي : "AHMED KAKATI" وعلقت عليه المؤلفة بأنه كان حاقد على دمشق.

سوق الدرويشية

كنت لا أتصور قطعاً أن أرى الذي رأيته . . . ! . . . ! أول شيء رأيته هو نصبين قرب المدخل وقد تحطما ودفن تحتهما اثنان من جنودنا كانا يدافعان عن الباب المهدوم حالياً . وآمل أن يسجل اسماهما في يوم من الأيام على الباب الذي سيحل محله (٢)

وعلى مسافة بعيدة قليلاً يجثم قبر أحد الدروز ، وعلى مقربة من هناك كان جنود الحرس يشربون الخمر فوق طاولة صغيرة وآخرون يشعلون النار ليستدفئوا ، كما وقف أحدهم على السطح يراقب ويحمل سلاحه بيده وأمشاط الرصاص تغطي صدره . وأمام هؤلاء انتصبت أكوام كبيرة من الركام ، امتدت اطرافها حتى منتصف باحة «البيت» فوق أرضه الرخامية ، وبالإضافة الى ذلك كانت توجد بعض الأفاريز المحترقة ، مع بقايا من الدهان المسود الذائب ، وهذا كل مابقي من قاعة ألف ليلة وليلة الرائعة ، التي كانت تقدم فيها الحفلات الموسيقية العربية في الأمسيات ، وتعوم الورود فوق ماء حوضها ، وحول شلال صغير له دمدمة عذبة ، لكن لم يبق شيء سليم من كل ذلك . . . إلا حوض الماء وحديقة الورود الحمراء ، وأما ماعدا ذلك فلم يعد يوجد منه إلا الرماد والغبار . . . !

هذا شيء يربك العقل . . . ! يحيره حقاً . . . !

(٢) «حلم ابليس»

ومما يصدم المرء منذ الوهلة الأولى هو أنه يجد البرهان البدهي على أن النقمة هنا قد انصبّت على أحسن وأجمل ماصنعه الانسان . . . ! والآن لم يعد يوجد في القصر أي مظهر من مظاهر الحياة . . فالحمائم الأليفة التي كانت تهدل وتملأ بألعابها هذا الجو الذي يشبه أجواء القصص الفارسية ، قدطارت الى الأبد .

ومكتب السيد «دي لوري» "M. de LOREY" قد دمر بشكل همجي ، فكل تحفه واضباراته على الأرض ممزقة وملطخة ، وهذه مغلفات الوثائق الخضراء وقد تناثرت تحت الأقدام ، حتى الكراسي محطمة ، والزجاج مكسور ، ولم يبق من شيء سليم حتى في القاعة المجاورة التي ترى فيها مطفأة حريق آلية ، مازالت حتى الآن . . . ! وأما الصالة الكبرى فما زالت قائمة على حالها ، لكن سرقت محتوياتها وثروات القصر الثمينة ، السجاجيد القديمة التي لاتقدر بثمن ، ولم يبق منها إلا أطرها البيضاء التي لاتزال جديدة . أما تلك التجاويف التي كانت مخصصة لعرض التحف الثمينة ، فقدحطمت وسرق مابها ، كما حطم حوض الماء بضربات أخماص البنادق .

لايمكن تبرير أو تعريف هذا التخريب بأية كلمات . . ! هذه هي الحال في النكسات الكبرى . وقد حرقت المكتبة بشكل لايمكن تصوره ، وعند هذا المشهد شعرت بأن غضبي قد انفجر حقاً أمام اللوحات الممزقة .

وعلى الأرض كان يرتمي مخطط القلعة ، وأكداس مع الوثائق وبطاقات «الفيش» والرسوم والصور العديدة . لقد ضاع كل شيء هنا ، ولايمكن تعويض هذه الوثائق الهامة ، في الوقت الذي نحن فيه بأمس الحاجة لهذه الوثائق والصور لتزيين صفحات كتابنا وتوثيقه .

وبهذا أصبت في الصميم تماماً ، وهاهنا أيضاً رسم وردة وابريق عربي ، وقد ديس عليهما بالأقدام الموحلة . . . إن هذا لمكرب حقاً . . ! وعلى عتبات المتحف انتشر حطام أواني البورسلين وقد سحقت وديست بالأقدام ، ومن بين هذه الأواني كان وعاء قديم جميل ، لونه أزرق مخطط بألوان الذهب ، يندر وجود مثله في العالم كله . . . وقد حفظ هذا الوعاء عدة قرون ومرت عليه عدة مشاهد مشابهة وجاءت نهايته الحزينة ، وحتى الرفوف الخشبية المزركشة التي كانت مثبتة بمهارة لعرض التحف عليها ، فلم يعد يوجد منها إلا البقايا . . . ! هذا تخريب وحشي وبشع . . ! والتدمير في قاع الميداليات يحز القلب أكثر ، فقد بقيت البطاقات المذهبة التي تعرف بالميداليات فقط ، ذلك كي تجعل حسرتنا أشد لوعة .

وقد سحبت قطع القماش القديمة الثمينة التي كانت تزين الجدار، وكذلك صورتا المفوضين: «ويغان» و«غورو» والتمثال القديم الذي كان موضوعاً في صندوق خشبي نفيس قد تحطم أيضاً. وقد تحولت قاعة الرسم الى كهف مظلم غطيت أرضيته الرسوم الممزقة الملوثة. لكن الشيء الذي لا يمكن وصفه حقاً هو منزل الجنرال «ساراي» خلف صالة ألف ليلة وليلة... ! آه.... ! لو أن الجنرال كان هنا في تلك اللحظة.. ! لحظة الهجوم.. ! كما كان يعتقد المهاجمون... ! لتعرض لقضاء ربع ساعة من أسوأ مايكون.. ! فمن الواضح أنهم كانوا يريدون الانتقام منه هو بالذات، وهو الذي حمل النحس الى هذا القصر المسكين.

ومن هذا كله يعرف المرء بسهولة أن جنون الانتقام هو الذي جعل من منزله هذا العدم المتداعي، وقد بقي كرسي بائس من الخيزران قرب حوض الماء الموجود في الساحة، ولكن قاعدته قد مزقت بوحشية. ولكن ماذا حدث بساراي..؟ لقد ذهب وترك الخراب وجثتا جنديين مسكينين من جنودنا قرب الباب... ! وقال لي حارس الباب بأن الثوار قد هاجموا المنزل يوم الأحد حوالي الساعة السادسة مساءاً، بعد أن علموا بأن «ساراي» سيكون هنا في ذلك الوقت.. وإن الضجة التي حدثت في تلك الليلة، والأنوار التي انعكست على المآذن كما شاهدناها ذلك المساء، لم تكن إلا كما قد توقعنا باختصار. وفي المنطقة الواقعة بين سوق الحميدية وسوق الطويلة(١) وقرب مصرف سوريا. كان هناك حي آخر تعرض لتدمير رهيب، إذ لم يعد فيه شيءقائم على الاطلاق، وقد انتشرت فيه رائحة الموت بسبب الجثث. وقد دمر هذا الحي إكراماً لعائلة البكري هاقد اعيدت فاجعة «بومبي» ولكن بمفعول القنابل هذه المرة، وبينما نجد أفراد الجانبين المتحاربين يحرقون المدينة انتقاماً، نجد أفراد الجانب الآخر يهدمونها عتاباً، فأي حيوان محزن هو هذا الذي يسمونه الانسان...؟!..؟؟!

وقد تعرضت الاشجار اللطيفة المسكينة أيضاً، في الباحات الداخلية، للتحطيم وتراكم الحطام قرب الاحواض التي نضب ماؤها. وكان هناك بعض البدويات ينبشن في الركامات المدخنة، لكن لم يبق من شيء سوى مدخنة ارتفعت وكأنها أحد الأبراج، كما وترامت الأسلاك الكهربائية في كل مكان، وقد انطمرت السواقي فغمر ماؤها الشوارع الصغيرة الميتة.

---

(١) سُميت هذه المنطقة فيما بعد «الحريقة» بعد أن حدث بها حريق كبير تتحدث المؤلفة عنه.

وهاهنا باب مزين بنقوش لطيفة، وقد بقي وحده قائماً رغم خراب البيت الذي كان يحرسه. وكان الناس يمشون في هذا الحي حزانى حيارى، لكنهم حافظوا على طيبتهم ولم يحقدوا علينا، حيث أني لما دخلت تحت احدى البوابات لأرى باحة حلوة مسكينة قد حل بها الخراب، وقام رجل يرتدي شروالاً بمناداتي محذراً، كما وشدني طفل صغير من يدي لأرى كل شيء يتهاوى أمام ناظري بعد بضع ثوان فقط . . . !

وهكذا لانجد عند هذين السوريين أية فكرة انتقامية، بل كان رد فعلهما الاول بادرة من أعماق القلب. هذا هو الشعب السوري كما أراه دوماً . . . ! وإن الشيء الأكثر هولاً نراه في الأماكن المجاورة «للسوق الطويلة»، والتي أصبحت أشبه ببركان لايزال يدخن ويقذف حممه . . . ! وأين يذهب أولئك المئات من الناس الفقراء الذين كانوا يحتشدون في بيوت هذه المنطقة . . . ؟

أليس الكثير منهم مدفونون تحت هذا الركام الذي تنبعث منه الأدخنة العمياء . . . !؟

عدت باتجاه بيتي، وقد حل المساء ورأيت الشوارع المعتمة والضيقة والرطبة التي تقود الى باب توما قد أصبحت مبعثاً للخطر، «فالسوق الطويل» كان قاتماً، والذعر يخيم في أرجائه المظلمة، وقد أصبحت البزورية نفقاً يعج بروائح الحرائق الكريهة ويمتليء ببرك الوحل.

وكل هذا يعطي انطباعاً جنائزياً عن فساد لايمكن أن يوصف، وعن العودة الى عصور الظلام والوحشية، وهذا مالن أنساه أبداً طوال حياتي. وعند مروري أمام بيت العظم صرخ بي جندي سوري قائلاً «مين» "MIN" بعد أن صوب الي سلاحه، وقد فضلت المرور في الشارع الوحيد الذي يوجد فيه مصباح، ويجتازه بعض المارة القلائل مسرعين. وكان هناك كلب مسكين يحتضر منذ يومين، وتصدر عنه حشرجة لاتتوقف، ولايزال يحشرج حتى هذا المساء، ولم يخطر لأحد من العابرين في أن يريح هذا المسكين وينهي حياته، هذا أمر مروع حقاً . . . ! ولكن لم كل هذه الآلام ولصالح من. وكانت بقية الشوارع مليئة بكلاب أخرى يتيمة، وقد تبعني واحد لطيف أسود اللون، وكان يتتبع خطواتي كروح ضالة حزينة. وفي زاوية في سوق الحميدية أعلمني أحد الجنود بأنه بقيت لدي مهلة خمس دقائق لأعود الى حي الصالحية آه . . ! أي كابوس يسيطر عليّ . . . !؟ ما أجمل الهروب من هذا الألم نحو بلاد النور، بلاد الجمال التي يبقى فيها الإنسان إنساناً: نحو ايطاليا الجميلة . . أو بحر اليونان أو صقيلية التي كنت فيها السنة الماضية:

صقيلية المشرّبة بالزرقة المليئة بالنور، والتي تمخر بحرها القوارب الشراعية، وبينما هذه البلاد تهزها الحرائق والرعب والدمار، والضربات المدوية التي تهز دمشق هذه الأيام. علمت اليوم أيضاً بوفاة بطريارك اليونان الملكيين السيد «كادي» "Mgr CADI" بشكل مفاجيء وذلك في اليوم التالي لاحتفاله بعيد تنصيبه، وكان سبب موته أزمة قلبية وتجلط في الشرايين نجم عن الهم والكرب الذي أحزنه في الأيام الأخيرة. وكان حلواً وديعاً وصديقاً لفرنسا، لكنه تألم من الأخطاء التي يرتكبها ممثلونا وان القضية الهامة التي تشغل الباطرياركيات هذه الأيام هي قضية البنادق والتعويضات. فقد طلبت السلطة جمع ثلاثة آلاف بندقية موزعة على مختلف الأحياء، ويروى أن بطريارك الاورثوذوكس السيد حداد قد علق على موضوع البنادق بسخرية قائلاً:

«إذا كنتم تفتشون عن البنادق في بيوت الشام، فلن تجدوا إلا زجاجات العرق وكان هذا الموضوع محل أخذ ورد دائمين بين البطرياركيات والمندوبية، ونظراً لأن المندوبية لم تقبل أي عذر فقد قام كثير من السكان الذين سئموا من الحرب بشراء بنادق لتسليمها وقد هبطت ثروة من السماء على أحد البدو: كان قد اشترى الكثير من الأسلحة العسكرية المنسقة من الانكليز بثمن زهيد، وجاءت هذه الظروف ليبيع كثير من البنادق بأسعار رخيصة في البداية، ثم زاد أسعاره عندما زاد الطلب عليها. حتى أن البندقية الواحدة بيعت بعشر ليرات ذهبية عثمانية. وقد كانت التعويضات موضوع خلاف حاد بين المسيحيين أنفسهم، حيث كان البعض يرى أنه ليس ملزماً بالدفع مطلقاً، لأنه لم يشترك في الاضطرابات التي حدثت بأي شكل من الأشكال، أما «بعضهم» الآخر فقد أخذ برأي البطاركة الذي يوجب الدفع تضامناً مع باقي أهالي دمشق ورغم أن الجميع اتفقوا على استحالة مخالفة السلطة، فقد بقي موضوع التعويضات موضع مناقشة حامية بين قبول ورفض...

لكن من أين يمكن الدفع...!؟ من أين يجمع المال وقد أحرقت البيوت بكل مافيها..! وصار الدمشقيون يقولون:

«إن فرنسا تأمرنا بدفع ثمن العصا التي ضربتنا بها»

والجميع يائسون قانطون. فصديقتي السيد «L» قد رأت في حي الميدان عدداً من النساء المسلمات يصرخن، على خراب بيوتهن التي تهدمت ويبكين أقربائهن الذين ماتوا، وعندما سمعن بقضية التعويضات التي يجب دفعها قلن بإنهن سيقتلن أزواجهن إذا انصاعوا للسلطة

ودفعوا . . ! وكل الذين رأيتهم هنا لايفكرون إلا بالهرب الى مصر أو الى الامريكيتين . . ! ولقد هجر دمشق حتى الآن خمسة عشر ألفاً من سكانها . وفي يوم الجمعة الماضي . كان هناك رتل طويل من السيارات التي تحمل النساء والأطفال، متوجهاً الى بيروت وكان من الممكن لهذا العدد أن يتضاعف لو سمحت السلطة للرجال بترك المدينة.

ولكن ماهو الموقف الفكري للفرنسيين من هذا الوضع المؤسف . . . ؟ يبدو أنهم فخورون بأن يكونوا مصدر هذا الارهاب، وقد قطعوا على أنفسهم عهداً بقصف دمشق من جديد إن لم تدفع تعويضات الحرب خلال عشرة أيام. وهاهي الجدران تمتلىء باللوحات والاعلانات التي تهدد السلطة فيها بزيادة الغرامة إن لم تسلم البنادق المطلوبة . . . ! وقال لنا أحد الضباط :

«يجب أن نعامل هؤلاء الناس بهذا الشكل».

وهذا يدل على أن الفرنسيين ليسوا متفهمين تماماً للموقف في سوريا أو لنفسية السوريين.

فهم - أعني الفرنسيين- نظراً لشعورهم بأنهم محاطون بجو عدائي، ينقصهم الاستقلال بالتفكير والنزاهة الموضوعية ليميزوا النقطة التي تبدأ عندها مسؤوليتهم. ورغم هيئاتهم التي تصورهم بغير حق، بمظهر الشجاعة في أعين الجمهور، فإنهم جبناء في السر، وهم بعزلتهم في حي الصالحية، يعيشون حياة العائلات الفرنسية، ويرون الاشقياء في كل مكان، وهاهي حقيقة ترويها السيدة «A....» فتقول:

«إنهم يخافون من الدمشقيين بقدر مايخاف الدمشقيون منهم . . . »

ويبدو أنهم مصابون بمرض عام يُري الاشياء مشوهة، ويحرضهم على تبني عقلية قاسية تشبه «عقلية ماوراء» الراين» التي ثار ضدها الضمير الفرنسي صفاً واحداً أثناء الحرب العالمية الأولى، تلك هي العقلية التي تقول:

«يجب ارهاب العدو . . . !»

والعدو بالنسبة لهؤلاء هو «المواطن السوري».

تقول التوراة:

«الخوف هو بداية الحكمة»

وهذا صحيح ، لكن أليس هو نهاية الحب أيضاً . . . ؟ ما الذي يسعني قوله هنا . . . ؟

إن هموم الفرنسيين المحتلين متباينة تماماً ، لأنه إذا قلنا أمامهم أنهم قدموا ليصنعوا مجد فرنسا العظيمة ، فإننا بذلك نهزأ من أنفسنا ، وإذا أضفنا الى ذلك أن من يجيء الى هنا هو مجرد من المصلحة ، فنثير بذلك الريبة الساخرة في أنفسهم .

الاثنين ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٥

شاركت اليوم بتشييع جثمان البطريارك "CADI" ففي الساعة الثانية والنصف كانت سرية من الفرسان وعلى رأسها «ملازم» وتجره عربة مدفع ، كانت تسير في الشارع المستقيم بين ذعر الدمشقيين الذي هربو من ذلك الموكب خائفين ، ودخل الجنود الى طريق ضيق ، واحتشدوا في فناء الكنيسة لكي يحيوا الرجال الرسميين الذين كانوا يصلون بالسيارات . وبعد استقبال قصير في الردهة اجتزت الباحة لأشاهد من خلال الزجاج المشهد الذي أثر بي أكثر من بقية مشاهد التشييع الأخرى ، ألا وهو منظر البطريارك المتوفى المسطوح وهو يتلقى الزيارات الأخيرة . وكان جثمانه كالشمع محاطاً بأكداس الشموع والزهور ، في تلك الغرفة الصغيرة ، وله أنف معقوف وشعر رمادي تحت التاج اللامع ، ويحمل صليباً في رقبته ، ويداه مضمومتان ، ووجهه يحمل تعابير ابتسامة لطيفة ، وكان كل ذلك مؤثراً للغاية ، رغم أنه لاشيء يخيف بقدر رؤية قديس في تابوته تحت المذبح ، وكان المشاهد يحس بشعور من الاحترام العميق والحزن المستحب . بدأت الجالية الفرنسية بالوصول ، وكان عدد أفرادها قليلاً ، ثم تقدم السيد «حقي بيك»[1] بطربوشه التركي القصير ، ثم راهبات مدرسة «بيزانسون» "BESANÇON" المتوردي الوجوه التي تعلوها نظارات كبيرة مهابة ، وكان معهن طالباتهن الصغيرات اللواتي فقدن بموت البطريارك حاميهن الأكثر إخلاصاً . ثم مر أفراد كلية الأب الذين بدت رؤوسهم كأيقونات بيزنطية ، وكان معهم أحد المطارنة الذي يلبس رداء من المخمل البنفسجي اللون .

وتلا هولاء الآباء اليسوعيون الذي تبدو هيئاتهم كأساتذة كلية الحقوق ، وبعدهم جاء الفرانسيسكان الطيبون ، والعازاريون المحبوبون ، العطوفون : كل هؤلاء مروا من الغرفة التي ينسطح فيها الميت ، لكي يروه ويزوروه آخر زيارة سامية ، وكانوا يجثون على ركبهم لكي

---

(١) حقي بيك العظم ، وهو الذي ترأس الحكومة السورية عدة مرات في عهد الانتداب ، وبالطبع فقد كان مقرباً من الفرنسيين ، . (المترجم) .

يقبلوا خاتم الميت القبلة الأخيرة، وثم تجمهروا عند الباب وخيم الصمت، وجلس بين الآباء الملتحين شيخ مسلم، ليرفع صوته بين وقت واخر ببعض الجمل الموزونة الشعرية التي كان يرتجلها عن ظهر قلب في مدح الميت بلغة عربية منتقاة، ولقد أحدث أسى عاماً، إذ كان الكل يستمعون بحزن وفي الباحة، مقابل صورة البطريارك الراحل، وقف خطباء آخرون يتكلمون بالعربية لمدة طويلة، وكان المستمعون يصغون بانتباه. وبعد ذلك، وعلى قرع جرس الكنيسة، تقدم الموكب الرسمي لرؤية الميت في الغرفة المحمومة التي سمح للشعب بتقديم الاحترام له فيها بحضور أفراد عائلته. وسار على رأس الموكب بطريارك الأورثوذوكس على رأس شماسيه العشرة بشعورهم الملفوفة فوق نقراتهم. وكذلك الأرمن بقبعاتهم الحريرية السوداء، وتتبع هؤلاء كبار الشخصيات: منهم قنصلنا الذي ظهر وكأنه متضايق من نفسه رغم مظهر الوجاهة الذي كان عليه، وكذا جنرال صارم الوجه يرتدي الألبسة العسكرية «الكاكي» ثم أمير يرتدي العقال ويزين صدره بوسام جوقة الشرف، وسار خلف هؤلاء جميع الفرنسيين الذي يصادفهم المرء علي أرصفة حي الصالحية، وحتى كاتبنا الصغير «كاتب المحكمة» وقد انتصب ما أمكنه لكي لايخفي شبراً واحداً من قامته التي تشبه قامة «المير ميدونيين» "MIR MIDON" وخلف هؤلاء حمل عرش الميت، على الأكتاف، وكان جثمانه يتمايل بحسب حركات حامليه، فيبدو وكأنه استسلم حقاً لهذا النصر الأخير الذي جعل وجهه الباهت يبتسم بحزن.

إنه يترك الى الأبد، بيته وعالمه، ويسلم نفسه الى ظلام القبور، وترافقه في رحيله صرخات الألم ودموع النحيب ذويه.

ووسط هذا الحشد الكبير من المودعين، وضع جثمانه فوق منبر مزين بالزهور مقابل الحاضرين. وقد كان هو نفسه يأس الحفلات الجنائزية وبعد ترتيلات قصيرة، وقف أحد القساوسة على المنبر، وألقى باللغة العربية نوعاً من التأبين كانت أحاديث النساء الجانبية تمنع من سماعه، وهذا ما جعل الشماس يصعد هذه المرة لكي يوزع اللطمات على من يستحقها.

ثم جاء قسيس آخر، وقرأ بكل بطء باللغة الفرنسية السليمة. خطبة تأبينية أخرى بسيطة ومعبرة، وقد لخص مراحل الحياة الكهنوتية للراحل.

كان تلميذاً في دمشق، ثم في باريس ثم مديراً لأحد أديرة دمشق، ثم بطرياركاً لانطاكية والاسكندرية ودمشق وحلب.

ولما وصل الخطيب الى المطقع الذي وصف به ايمان الفقيد ارتسمت ابتسامة سخرية على وجه الجنرال «غاملان» الذي كان يجلس في الصف الأول متصلب الجسم، متجهم الوجه، وكأنه تمثال الي الحركة.

وقد شكر القس الجنرال ساراي على البرقية التي أرسلها معزياً بوفاة صديق فرنسا الحميم، وعلى ارسال مندوب عنه هو الجنرال «بيرو» "BUREAU" ثم توجه القس بالشكر لقنصلي بريطانيا وايطاليا اللذين حضرا شخصياً هذا التأبين، وكان الأول ذو وجه متوتر يحاول الاحتفاظ ما أمكنه بوقاره المصطنع وكان الثاني ذا هيئة منقبضة مأساوية وكان بين المدنيين رأس المندوب: «ديسليلية- ديسلوج» "DELDLEE- DESLOGE" ذو الشعر الأجعد، والمندوب «أو بوارد» الذي جلس على أريكة مريحة لكي يلقي بصوت عال كلمة باسم فرنسا، كتبت على ورقة صغيرة وهذا مابدا لي مبتذلاً وغير صادق. ومدعاة للأسف ثم مشى كل هؤلاء خلف عربة المدفع، وعدد من الخيول وسرعان ما أنزل الى القبر وحرم البطريارك الميت من أنوار الحياة.

يظهر أن الحياة قد عادت الى مجراها الطبيعي فقد طلب الى جميع المحلات أن تفتح أبوابها تحت طائلة العقاب، ورغم ذلك بقي آلاف الناس لاجئين الى حي المهاجرين. وثمة خوف من أن تحل المجاعة والأمراض المعدية في المدينة وإني الآن أعتقد بأن السوريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية لم يعودوا يثقون بنا الآن أبداً.

الثلاثاء ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٥

بدأت اليوم بإجراء تحقيق ميداني عن مصدر القصف، بعد ذلك التحقيق المزعوم الذي أجراه «ستيفانو» ونشرته صحيفة «لاسيري» الرسمية ومهما قلنا فلا يمكن أن نصف مقدار الضرر والإساءة اللذان تسببهما مثل هذه الصحف لفرنسا هنا. فهذا المحقق الصحفي الشهير الذي وصل من بيروت الى دمشق، بكل حذر، يوم الخميس ٢٢ تشرين الأول. أي بعد القصف بيومين، ادعى في عدد من الصحيفة المذكورة، صدر بتاريخ ٢٥ تشرين الأول، بأنه يريد اعلام القراء بكل دقائق الأحداث التي جرت وبأحوال المدينة بالتفصيل. ولكنه في العدد الصادر اليوم من جريدته، اعترف بأنه لم يجرؤ على تعريض نفسه للخطر بالذهاب الى حي الشاغور وقال:

«حرصت على ألا أعرض نفسي للخطر داخل هذه البيوت المتهدمة لكي أعرف الحالة هناك، وذلك لأني لم أضع قدمي مطلقاً في هذا المكان فيما سبق، لكي أتمكن من معرفة طريق الهروب والنجاة إذا دعت الحاجة لذلك. . . !»

وبهذا الشكل فقط يمكن للقارئ في سورياوفي غير سوريا أيضاً أن يعلم الحقيقة عن أحداث دمشق! . . . وتتابع هذه المأساة الهزلية سيرها "TRAGI- COMADIE"

إذن . . . ! من هنا كان لابد من القيام بتحقيق شخصي، وذلك بأن أستطلع الأمور بنفسي بدقة، وأكتب أولاً بأول حسب الشواهد التي تتيسر لي، ولذا عدت لمقابلة أغلب صديقاتي المسلمات، فوجدت أن: أكثرهن قد هاجرن الى لبنان ومصر. . . !

ويا لشد ماصدمتني الحالة الفكرية التي أصبح عليها من بقي منهن هنا. . ! إن الفتاة الحلوة اللطيفة الآنسة «O» الكتومة تماماً في العادة، والمتحفظة بأقوالها وأفعالها معاً، بدت لي هذه المرة بحالة حنق ثوري مع هيئة متجهة سببت لي كثيراً من الألم، وقد قالت لي:

« إني راحلة. . . ! نعم. . . ! سأرحل مع عائلتي لكي لا أبقى بعد الآن بين يدي المتوحشين الذين أتونا من بلادكم. . . . ! آه. . . ! لماذ خلقك الله فرنسية. . . ؟!» والتقيت بصديقة أخرى. فروت لي قصة عن عائلة فقيرة من حي «الميدان» وقالت:

«عندما بدأ القصف بالقنابل بشكل فجائي ليلة «الاثنين- الثلاثاء» هرب الأب والأم مذعورين من منزلهما المحترق. وكان مايزال طفلهما نائم فيه. . . ! لأن الأب والأم كلاهما ظن أن الطفل قد نجا مع الآخر. . . ! ولم يكتشفا هذا الخطأ إلا بعد ماوصلا الشارع البعيد، ولكن لم يعد بمقدورهما الرجوع الى البيت اللاهب. . . ولذا قاما بالذهاب الى حي المهاجرين. . . ! وفي اليوم التالي عادا الى بيتهما، فوجدا طفلهما يصرخ من الجوع في مهده الذي كان يتوسط حجرة هي وحدها لم تحترق». والحقيقة أن شهادات العائلات المسيحية التي قابلتها في «حي الميدان» كانت مماثلة لشهادات العائلات الاسلامية هناك. . . وقد سألت الآنسة « M.... » وأقرباءها بكل تفصيل عن كيفية وقوع الأحداث التي جرت بين «١٨ و ٢١» من هذا الشهر، وكان ماحصلت عليه وثيقة دامغة ذات قيمة حقيقية لا أزال أحتفظ بكل اعتناء بها. . ! لأنها تدحض كافة التقارير الرسمية، وقد كتبتها كاحدى الشهادات المستقلة، وهاهي أدونها في كتابي بكل أمانة:

أحداث الأحد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥

منذ أيام عديدة يختبئ عدد من الدروز في كهوف «الزفتية» واليوم بدأوا يجولون حول المدينة بغية اختراقها، وقد انضم اليهم منذ أيام بعض المارقين. وكانت بعض عائلات الميدان تعرف ذلك مسبقاً. وفي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم شوهد بعض المسلمين يركضون ليحضوا الناس على استلام أسلحة، ولينذروا المسيحيين بأن ينجوا بأنفسهم. وقد دخل مناد درزي وأخطر الأهالي «في الميدان» بأن يتهيئوا للالتحاف بالجيش الذي يتبع له. والذي كان قد وصل الى المنطقة، فقام هؤلاء بتعنيفه، بل وحتى بضربه وطرده.

وبعد أن أخذوا بندقيته منه، وبعد هذا مباشرة تعرض الحي لموجة عامة من الهجرة، وفي الساعة الخامسة مساءً حدث غليان واصطدام مسلح جديد، إذ قام حسن الخراط الذي يتزعم عصابة من الرجال بالدخول الى حي الميدان وهو يمتطي جواده، وكان يشجع الناس ويصفهم كأنهم أبطال هوميروس قاصداً من ذلك تحريضهم على الاشتراك في طرد الأجنبي.

وكما قالت صحيفة «لاسيري» نفسها، لم يكن عددهم يتجاوز الخمسين رجلاً في بادئ الأمر، وكان من الممكن ايقافهم بسهولة بواسطة مئتي جندي لا أكثر، ولكن لم يكن هذا في حساب السلطة، إذ أن أبواب المدينة كانت خالية من أي جندي لما دخلها هؤلاء. وانضم الى الثوار حوالي مئة شخص على الأكثر وتقدموا بكل حرية، واجتازوا بعد ذلك حي الميدان كله. وفي هذا الوقت كانت هناك مفرزة مهمة من المسلحين المسلمين بشكل جيد تقوم بحراسة المسيحيين العزل. وقد آوت عائلة السيدة «M.... » خمسة عشر رجلاً في بيتها، ضمن غرفة داخلية احتموا فيها مع أفراد العائلة.

وفي مساء يوم الأحد نفسه، أتى أحد الجيران المسنين، وقال أن حسن الخراط ومرافقيه قد تمركزوا في ساحة المرجة، وقد بدا هذا بعيداً عن التصديق، إذ لم يعد الإنسان يعرف مايجب عليه تصديقه، وهذا المساء لم يحدث إطلاق قنابل على حي الميدان.

صباح الاثنين ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥

هذا الصباح كان الناس خائفون جداً، وقد أقفلو الأبواب من الداخل، ولم يخرج أحد من بيته، ولذا فلا أحد يعرف شيئاً عن الدروز أو الفرنسيين. . . ! وفي هذا الصباح أيضاً سمع

المدخل الغربي للحريقة والمناطق المجاورة بعيد القصف الافرنسي
يوم الأحد (١٨ تشرين الأول ١٩٢٥م)

أزيز طائرة تحلق فوق البساتين في منطقة «باب السلام» وهذا أكبر حي درزي في المدينة الآن، لأن قسماً من أهالي جرمانا، وبقية القرى الأخرى المحروقة قد التجأ الى هذا الحي الذي أصبح مكتظاً بالسكان وقد أطلق النار على هذه الطيارة من البساتين فهل كان من أطلقها واحداً من «صيادي القبعات» كما حدث في باب توما . . ؟ وهنا اعتقد قائد الطيارة بأنه اصطدم فعلاً هذه المرة بالعدو، فألقى باحدى قنابله وتهدم منزلان من جراء ذلك وكان أن أهالي الميدان قد هددوا بقتل أول شخص منهم يرونه يطلق النار على الطائرة، فبينما تابعت هذه تحليقها فوق حيهم، وهي تلقي بحممها في أي مكان ترى فيه التحشدات. وبعد ذلك اشتكى المسيحيون الى رئيس الشرطة بأن الطائرة لاتوفر حتى البيوت المسيحية، فأجابهم هذا بقسوة قائلاً:

«وماذا يهمنا من هذا الكلام؟ انكم جميعاً سوريون. . . !»

ومثل هذا الجواب يصبح مدهشاً حقاً لتناقضه مع تصريحات الجهات الأخرى التي تؤكد بأن الجنرال «ساراي» قد قصف دمشق بالمدفعية خصيصاً لحماية المسيحيين. وتابعت الطائرات القاء قنابلها طيلة هذا اليوم فعقد السكان اجتماعاً حوالي الظهر، وأعدوا تقريراً عن الحوادث

الشيخ محمد الأشمر
وعلى يمينه السيد صالح عياش وعلى يساره عيسى حنين

والأضرار والأموات، ورجوا السلطة بالكف عن قصف الحي بالقنابل، وعرضت فلاحة درزية تعرف الكابتين «كاربيللية» معرفة خاصة أن تحمل هذا التقرير الى المدينة رغم مافي ذلك من أخطار، وقد كانت الشوارع محاصرة بالجنود الذين منعوها وضربوها. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم، رفعت بيوت «حي الميدان» الراية البيضاء فوق أسطحتها.

وقالت لي احدى صديقاتي اللطيفات بأنها لجأت مع عائلتها الى أحد الكهوف وكلها قلق حول المسؤوليات التي سبتها لنفسها، حين طمأنت أبناء حيها بأن الفرنسيين سوف لن يقصفوا المدينة، وذلك استناداً الى ماسبق وأكدته لها أنا بالذات. . . ! وكان الناس يقولون: «ليت هذا اليوم ينتهي. . . !» وكانوا ينتظرون قدوم الليل بفارغ الصبر، ولكن ليلهم كان أسوأ من نهارهم. . . !

ليلة الأثنين /الثلاثاء/٢٩/٣٠/تشرين الأول ١٩٩٥

عاد القصف حوالي الساعة العاشرة مساء هذا اليوم الاثنين وبلغ أشده حوالي منتصف الليل، فاضطر السكان بالكامل إلى مغادرة منازلهم واللجوء إلى الكهوف وكانت النساء يركضن في الشوارع بدون «ملاءات» وشراشف TCHARCHAF حافيات الأقدام، وثمة طفل صغير كان يصرخ في الشوارع منادياً أمه التي تركته وهربت هائمة على وجهها من شدة الخوف، وقد رجا آل «العابد» بواب كنيسة الأورثوذوكس بأن يفتح لهم بابها كي يدخلوا وينجوا من القصف.

وقد انفجرت قنبلة قريبة من عائلة دياب، وكانت فتاة شابة من هذه العائلة تهرب راكضة في درب ضيق بين منزلين فتعرضت ساقها لجرح خطير. وكانت البيوت تتهاوى مبتلعة تحت ركامها عائلات بكاملها لم تجد الوقت الكافي للهروب، ثم إلى أين يهربون حتى لو وجدوا الوقت الكافي لذلك. . . !؟ فقنابل الطائرات وقذائف المدافع كانت تنهمر فوق هذا الحي المنكود بلا استثناء وبشكل لايتمكن المرء به من الخروج أو الركض أو ترك الحي بكامله.

وفي يوم الثلاثاء تشكل وفد من الوجهاء، نصفه من المسلمين ونصفه الثاني من المسيحيين، وذهب يحمل الأعلام إلى دار المندوبية، وقابل هؤلاء المفوض السامي السيد «أوبوارد» الذي أبدى جهله بأغلب الأحداث كماظهر من خلال الاسئلة التي طرحها وردود الفعل التي قام بها، فعل هذا من قبيل الديبلوماسية. . ؟ وأمرهم بأن يعودوا بهدوء إلى أحيائهم، وأن يأمروا برفع الأعلام البيضاء ثم يعودوا لمقابلته مرة ثانية في الساعة الثالثة. فانصرف هؤلاء على أمل السلام وإيقاف القصف .

ثم عادوا وكلهم ثقة، في الساعة المحددة للقاء وهنا قيل لهم بأنه قد تم فرض غرامة مادية قدرها مئة ألف ليرة ذهبية. على المدينة أن تسددها خلال فترة محددة.... ! وعاد هؤلاء بوجوهم الكئيبة إلى أحيائهم وأعلموا السكان بالخبر الرهيب الذي جعل الكل يصرخون قانطين.. !

وعندما ابتدأ المشايخ يدعون الناس لتسفير النساء والأطفال ثم تحمل الأعمال الانتقامية التي سيقوم بها الفرنسيون بقوة، لأنه من المستحيل دفع ثمن مثل هذه الغرامة الفادحة. وروى لي أحد الشبان من حي الميدان بأنه قد انتهكت حرمات المقابر القديمة في «باب الصغير» هذه المقابر الأثرية الهامة التي يوجد فيها قبر «فاطمة ابنة النبي» (١) الذي يقدسه المسلمون كما يقدس المسيحيون ضريح المسيح وإن القبور قد تهدمت، وانكشفت حفرات القبور والجثث والرفاة... ! وتابع هذا حديثه فقال إنه شاهد عملية نقل القتلى داخل أكياس بيضاء دامية، وضعت مكشوفة في عربات تجرها الخيول والحمير التي كانت تروح وتجيء على طول طرقات الميدان.

الأربعاء ٢١ تشرين الأول ١٩٢٥

يبدو أن هواة القصف فهموا أن عملهم هذا لم يؤمن لهم الجد الذي كانوا قد أضاعوه سابقاً، فظهرعليهم أنهم يريدون الإسراع بطمس آثار ماقاموا به، إذ أصدروا اليوم قراراً يأمر بوجوب إصلاح كل بيت أو محل قد تضرر من جراء القصف، خلال مدة لاتتجاوز الخمسة عشر يوماً من قبل مالكيه أنفسهم. هل سترسل جمعية الأمم المتحدة وفداً عنها لدمشق في الأيام القريبة؟ وعلمت أنه يوجد الآن عدم رضا بين الجنرال ساراي والجنرال غاملان فالمفوض السامي السيد ساراي يرى أن مندوبه في دمشق قد تمادى أكثر من اللازم، رغم أنه كان قد منحه مسبقاً الصلاحيات المطلقة لكي يجعل الأمن والنظام المستقر يخيم على المدينة ولكنه تراجع عن أمره أمام هذه الكارثة وأخذ يتكلم في إنقاص التعويضات من البنادق والأموال. وهاهي جهات عديدة الآن تحاول تبرئة ساراي من أحداث دمشق. لكن من هذا الذي تمكن من التسلل إلى مجمع الآلهة لما أمرت بإلقاء الصواعق على المدينة..؟ واليوم حصلت بشكل سري على نص الاحتجاج الذي قدمه القناصل العشرة ضد قصف دمشق بالقنابل، وقد قدمه باسمهم عميدهم قنصل ألمانية، وهذا الإحتجاج هو صفحة حزينة من سجل الحرب في سوريا، صفحة لايمكن لدماء جنودنا أن تمحي مافيها بسهولة.

(١) ليس مؤكد بأن قبر فاطمة ابنة النبي موجود في مقبرة باب الصغير.

فريق من القرويين يناهزون السبعين وكلهم من عابري السبيل والمنصرفين لاعمالهم الزراعية عرضوا على الجمهور مع جثث القتلى وسيقوا إلى السجن قتل بعضهم بأسنة الحراب والقى بعض من برج القلعة فمات أكثرهم.

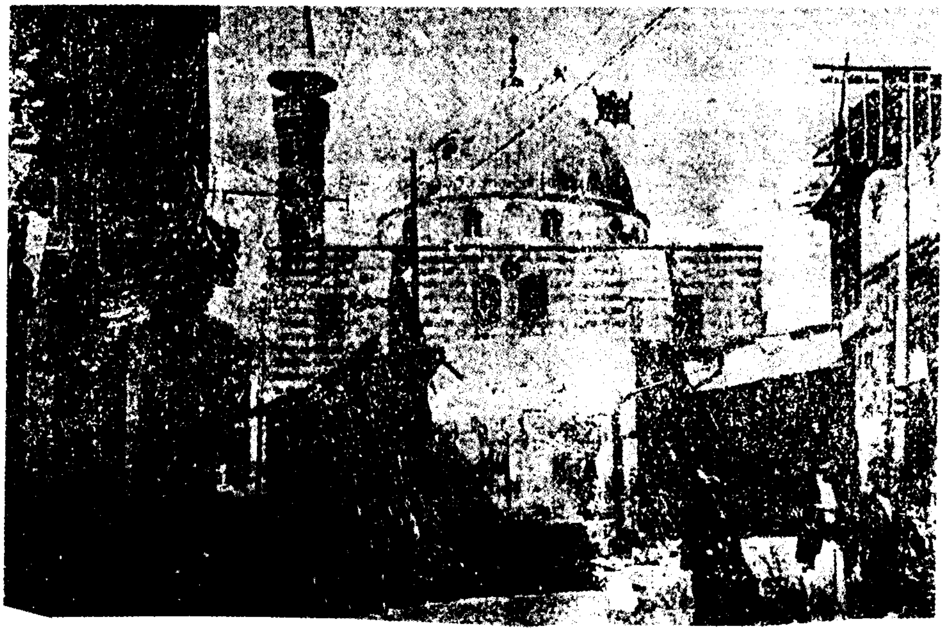

جامع سنان باشا ثاني مساجد عاصمة الأمويين بنفاسة آثاره، أصابته قنبلة فاخترقت قبته.

الخميس ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥

ألصقت إعلانات رسمية تنص على أن التعويضات ستزداد بمعدل ٥٠٠ ليرة كل يوم في حال عدم دفعها في الوقت المحدد وهذه القسوة الوحشية جعلت الفقراء المعدومين يضحون بما يملكون لأنهم الأكثر كرماً في الوقت نفسه.

فقد شوهد الأغنياء والأثرياء يدفعون عشر ليرات أو أثني عشرة ليرة فقط، بينما شوهد العمال المساكين والأرامل الفقيرات، يبيعون أثاث بيوتهم البسيطة، بل وحتى القدور التي كانون يطبخون فيها، وذلك لكي يؤمنوا الليرة المطلوبة منهم. وكانوا يقولون بأسى وهم يدفعونها: «ومع هذا فإننا لم نقم بشيء...!»

وفي هذه الآونة يسيطر الإرهاب الأحمر على المدينة حيث يجري تفتيش المارين بلا استثناء ويجري على الفور إعدام كل من توجد بحوزته قطعة سلاح، سواء أكان مسدساً أم سكيناً بسيطة، كما شهد بذلك رجل طيب اسمه «علي» يحترف مهنة «النجارة» كان علي يصعد باتجاه المهاجرين بقلب مطمئن وهو يحمل كعادته سكيناً فخبأه في قنبازه «KOUMBAZ» فأوقفه الجنود وفتشوه وعند العثور على السكين قبضوا عليه، ورأى بأم عينه إعدام شخصين من الموقوفين، وكان عليه أن يلقى المصير نفسه لولا أن أسعفته بديهته فقال لهم باللغة الإنكليزية: «أنا مواطن أميركي» فأطلقوا سراحه على الفور وحكى لنا قصته هذه وعلى وجهه ابتسامة عريضة. أما عن نشاطات الثوار، فقد عادوا إلى الضغط على الشخصيات الكبيرة. فقد جاء واحد من هذه الشخصيات مذعوراً إلى مبنى إحدى الجاليات الأجنبية لينجو من تهديد الثوار الذين لاحقوه... وبدأ بعض الأجانب بترحيل أمتعتهم الثمينة التي كان الخدم يحملونها في حقائب ضخمة. آه..! كم إن هذه الأعمال تجعل الشعب يحب فرنسا....!

الجمعة ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٥

بينما كنت خارجة من أحد الأزقة المواجهة للمشفى العسكري شاهدت من أحد الأبواب المفتوحة باحة بيت كان فيها شيء عجيب استرعى انتباهي، شيء يشبه (عربة خضراء تجرها الاحصنة)(١) مفروشة بالأعلام المثلثة الألوان(٢) ولم أفهم ماذا يجري هنا للوهلة الأولى لكن

(١) «طنبر»

(٢) العلم الفرنسي مثلث الألوان، يبدو أنها رأت تابوت جندي فرنسي قتله الثوار.

نسيب البكري و فوزي القاوقجي

وبعض المجاهدين يتأهبون لدخول دمشق.

فوزي القاوقجي وصحبه المجاهدين

مرافقي شرح لي ذلك، وعندها أحسست بثورة تجتاحني وبنوع من الاشمئزاز والغضب العنيف اليائس يسيطر علي.

وبشكل مفاجيء، تذكرت صوراً مؤلمة حطمت قلبي أمام هذه العربة المشؤومة الفظة، التي كان من الممكن أن تحمل أخي لولم تأخذه حرب أخرى أو ابني إذا كنت تعيسة الحظ لدرجة يكون لي فيها ولد في هذه البلاد. . . !

أية مأساة مروعة هذه. . . ! تجددت وأصبحت أكثر إيلاماً في هذا الإطار العامي؟

أية مأساة تدور رحاها بلا مبرر، وبلا أي سبب. . ؟

«ليسلم هؤلاء الذين يسببون الحرب لنا نحن الأمهات والأخوات. وسنعرض كيف ستمنعهم عن الاضرار لأن الرجال ليس بوسعهم فعل شيء في هذه الحال. ! هناك من يقول

بأن شيئاً ماقد تغير في الجنرال «غاملان» جعله يقرر الكف عن حرق القرى والأحياء بعد الآن، والاكتفاء بتعزيز التحصينات متأخراً فهو خير من ألا يجيء أبداً، وبهذا يشبه الجنرال مهندساً يُكلف باصلاح صدوع أحد السدود بعد أن تهدم هذا السد وأغرق البلاد. . !

السبت ٣١ تشرين الأول ١٩٢٥

إن كلام رجال السلطة المدوي كالرعد قد أحدث المعجزات فهذا المساء، وعندما كنت خارجة من سوق الحميدية، فوجئت تماماً لما رأيت أن الأسواق قد أعيد بناؤها، وقد عاد التجار للجلوس فوق مصاطب جديدة، وقد ملأت كل المحلات رفوفاً جديدة.

ويمكن أن يشك أي إنسان بحقيقة وقوع المأساة، التي مضى عليها خمسة عشر يوماً إن لم يقم بالمرور من حي المرستان، ذلك الحي الذي يشبه مدينة «بومبي» القديمة، لولا هذه الجماعات من النساء المحجبات «بالشراشف» TCHARCHAF اللواتي يراهن المرء هناك. . .

الاثنين ٢ تشرين الثاني ١٩٢٥

بينما كنت بزيارة أصدقاء لي في حي باب توما قيل لي بأن ضابطاً فرنسياً قد أتى إلى البطرياركية الأورثوذوكسية، يقود سيارته ولم يتنازل للترجل من سيارته بل قام بارسال حاجبه إلى البطريارك، يحمل إليه كلمة صغيرة تنم عن روح العصر الذي يعيش فيه:

«أعطنا البنادق وإلا فسوف نلقي عشرة من رجالكم في السجن» فغضب البطريارك رغم الحكمة المتسامحة التي يتصف بها، وقام بطرد الحاجب. وقد استدعى الأمر أن يأتي الجنرال بالذات لكي يسوي القضية. وعما قريب سيقال في دمشق: «غليظ كالفرنسي. . !» وسيصبح هذا مثلاً. . . !

٣ تشرين الثاني ١٩٢٥

تسري الآن في دمشق أنباء مرعبة. وتوضع اليوم المتاريس عند أبواب المدينة، وقد استاءت الأحياء التي لم تحصن بعد من رؤية الأحياء الأخرى التي أصبحت أكثر مناعة منها.

المجاهد الكبير نزيه المؤيد العظم بين رجاله الثوار الأحرار

وقد أعلمني بعض الناس، وهم يتحدثون بلهجة خطيرة باننا نعيش الان في حصار حيث أن جميع الإتصالات قد قطعت بين المدينة وضواحيها. وهذا ماجعل الذعر يعود للنفوس، فعاد من بقي في حي الميدان للرحيل عنه إلى المهاجرين، وحملت القطارات المصفحة من محطة دمشق عربات مكتظة بالناس. وكانوا كثيرون للغاية، لدرجة أن درجات الدعسات الخارجية قد اكتظت بالناس. ومن بين الذين أعرفهم غادرت دمشق نهائياً خمس وعشرون عائلة، بعد أن دفع أفرادها ماترتب عليهم من تعويضات يقال أيضاً بأن جيشاً يضم ستة آلاف درزي يقوده ضباط سابقين في الجيش التركي يعسكر حالياً في منطقة القدم، وإن جيوشاً أخرى من الثوار تحتل شمال وجنوب المدينة وتتأهب للحرب. وإذا أردنا معرفة الحقيقة، فعلينا بلاشك أن نقلل هذا العدد، ونزيد في المسافة لأن خيال الرواة واسع بعض الشيء.

أولم يرى الناس من قبل «فيلة» في محطة الميدان..؟

قالت المعلومات بأنها مصفحات. (١) وقد ذهب وفد من أعيان أحياء دمشق للتفاهم مع رؤساء وقادة الثوار (٢) حيث رجاهم أفراد هذا الوفد بألا يدخلوا المدينة لكي لايدفعوا

(١) المصفحات الفرنسية كانت صغيرة صناعة شركة رينو الفرنسية وفي المتحف الحربي بدمشق تعرض أربعة من هذه المصفحات.

(٢) عندما تذكرهم المؤلفة تقول Bandes أي المتمردون العصاة، أو قطاع الطرق.

الفرنسيين الى القيام بأعمال انتقامية جديدة. وبات من المؤكد وجود أحداث مقلقة جديدة فإن الأنسة «X» أرسلت لنا برقية من رياق تقول فيها بأنها ستعود إلى بيروت لأنها لاتقدر على العودة إلى دمشق. لقد اشتعلت الحرب من جديد في الغوطة، ومن المهاجرين، استطيع أن أرى القنابل من جديد تتساقط فوق القرى... !

٤ تشرين الثاني ١٩٢٥

نزلت اليوم إلى الأسواق لشراء بعض الحاجيات وقد قابلني الباعة بفتور محزن ونظرة احتقار وكره كبيرة، وظهر ذلك جلياً على الشاب البائع في سوق الحرير، وقد باعني مكرهاً بعض الشيء ولم يقبل أبداً بأن يخفض لي السعر، وقد عرفته من قبل مرح يحب المساومة ولو لساعات طوال... ! وكان رعبي شديداً حين صادفت في أحد الشوارع رجلاً شاحب الوجه، ويظهر عليه الألم الشديد، ويدل مظهره على الخضوع والإستسلام، وقد كان يرتدي ألبسة تشبه ألبسة تجار الأسواق الأغنياء ويسير مطرق الرأس بين الجنود الذين كانوا يجرجرونه مكبل اليدين.

آه... ! ماأعظم حزن تلك المجموعة من النساء النائمات اللواتي كن يلبس الأسود ويلوحن بالوشاحات السود، ويتنهدن ويتأوهن خلف مناديل وجوههن وهن ينظرن من خلال زجاج نوافذ السرايا إلى اعضاء المجلس الحربي، الذي كان ينعقد هناك بشكل دائم وهو يحاكم أحد ذويهم... ! لاأريد أن أخرج من بيتي بعد الآن... ! لأن رؤية دمشقي العزيزة وهي تئن وتصرخ من الألم يسبب لي كثيراً من الحزن الممض.. !

٥ تشرين الثاني ١٩٢٥

استهوى التحقيق الصحفي الذي أجراه السيد «هنري دوركيويللوس» أهالي دمشق ففي موعد توزيع الصحف يحاصر الناس المكتبات، ويلاقي رجال الشرطة مصاعب شديدة في فض تنازع الجمهور وازدحامهم الشديد للحصول على نسخة من جريدة «ليكو دوباريس»(١) وقد توجب على الشرطي بيجان «Mr: BEJEAN» أن يقوم بأعمال كبيرة، فقد أرسل بعض رجاله إلى أصحاب المكتبات الجشعين، للتلويح لهم بأسعار جنونية، لشراء جميع نسخ هذه الصحيفة، وقد وصل سعر النسخة الواحدة إلى عشر فرنكات وأعد بعض أصحاب المكتبات قاعات خاصة لقراء هذه الصحف.

---

(١) «LECHO de PARIS» وكانت الصحيفة تصل بالبريد من فرنسا ويوم وصول البريد يستنفر الناس لانتظاره.

وقد لاحق الناس بنفس الشكل صحيفة «لومانيتية» [١] ومن المضحك أن يطبق نظام واحد على صحيفتين متناقضتين تماماً، فقد طبقت عليهم قوانين عدالة وحب واحدة من قبل المفوض السامي الحالي.

وكما كان في بروكسل من قبل، في عهد الجزمة الألمانية La Batte Allemamde فقد بدأت المنشورات المعارضة للحكم بالظهور هنا، وأصبحت توزع سراً في عموم أنحاء المدينة، وهذا جديراً بالملاحظة ويدل على أنه لايمكن دب الرعب في قلوب جميع أنواع المواطنين، إذ أن الاحتجاج الفكري هو الذي لاتقدر أية جزمة على إذلاله. إننا نتسلى كثيراً بالكتاب الروحاني الصغير «دليل كتاب» «guid book» يحضره السواح الاميريكيين والإنكليز القادمين إلى دمشق. إذ من الواجب أيضاً أن يعيش المرء هنا مع الحياة الخارجية والبعدية.

وثم الظريف اللطيف أبو العلاء [٢] يقدم من وقت لأخر بعض الانتقادات المعبرة، ففي هذا الاسبوع تظهر فيها صورة تنطق باحتقار هذا البلد لنا أكثر من أية صورة أخرى: صورة رجل ضخم اسمه ساراي يفني النساء والأطفال بطلقات مدافعه، لكي يقتل رجلاً صغيراً اسمه «حسن لخراط» الذي يدافع عن نفسه بطريقة قديمة وسلاح قديم وإن الجانبين ليسا متكافئين حقاً. وبرؤية هذا الرسم الساذج ترى بعض العرب يبصقون احتقاراً لأن مهاجمة النساء والاطفال هي نوع من العار في المفهوم العربي.

إنهم ليسوا بعد متمدنين للغاية.

٧ تشرين الثاني ١٩٢٥

رأيت هذه الأيام الأخيرة سيدة فرنسية عائدة من السويداء. أكدت لي بأن الهدوء التام كان يخيم على المدينة منذ بضعة أشهر لدرجة أنها كانت تستطيع السفر بالسيارة لوحدها وقد علقت السيدة على «كاربيللية» وأعابت أعماله لكنها صبت انتقاداتها على مافعله أحد ضباط المجابرات الشرهين أثناء حصار القلعة إذ كان يدعي بأنه يعطي الجنود نصيبهم الذي يكفيهم من الطعام، بينما كان يستولي على مخصصاتهم لنفسه. وتقول الصحف العربية بأن ساراي قد

---

(١) «LHUMANITEE» صحيفة لومانيتية، وتعني الإنسانية.

(٢) «Aboul ALLA» قد يكون كتاباً أو صحيفة أو كاتب ويغلب الظن أنها واحد من المنشورات السرية.

دُعي إلى فرنسا، ولا أدري ماذا علي أن أصدق، لأن الرقابة هنا لاترضى إلا عن الصحف التي تقول أن كل شيء يجري على أحسن ما يرام. . وكم يحز في قلوبنا، نحن الذين نسمع ونرى مايجري هنا أن نفكر بأن فرنسا هي الآن مخدرة بهذه الأكاذيب، في الوقت الذي يُهدر به شرفنا ودماء أبنائنا في هذه البلاد. . ! وقد ارسل لي بعض الأصدقاء، بشكل سري لأني كالسجينة هنا، مقاطع من الصحف الأجنبية الأكثر اطلاعاً من صحفنا فيما يتعلق بأحداث دمشق. والآن أضع يدي على أمر هام، وهو السبب في الغضب الذي عصف بجنودنا خلال الحرب الكبرى ألا وهو كذب السياسيين. . !.

ولكن أولئك السياسيين كان لهم عذرهم وهو إنقاذ الوطن، حتى ولو تم ذلك بتخدير الرأي العام في البلد، وأما كذب السياسيين هنا فالغاية منه لاتتعدى التستر على الأخطاء الشخصية، وعلى ضلال حزب معين يضيع شرف فرنسا وهذا يجعل المرء يصرخ ألماً. . . ! يبدو أني أتعلم في دمشق معنى أن يكون المرء معتقلاً سياسياً. . . ! فأنا منذ شهر كامل بحكم السجينة السياسية هنا ويخيل إلي بأني أحد ركاب السفينة «ميدوز» التي هجرها رجالها في وسط العاصفة ليركبوا أحد الطوافات، وقد فقدوا الأمل برؤية الأرض ثانية أو بالإجابة على إشارات الإستغاثة التي أرسلوها. هناك من يصادر الرسائل التي أرسلها وأما تلك التي انتظر وصولها فلا تصل أبداً فعندما أخرج من بيتي، يتبعني رجال الأمن السريين، وعندما أتكلم ألاحظ أن الجواسيس يسترقون السمع. . . ! إن الفرنسيين ينظرون إلي بعين التهمة والشبهة لأني أدافع عن أصدقائي السوريين الذين ينظرون إلي بعين التهمة نفسها لأني فرنسية. هنا يجب أن تكون لي إرادة فولاذية لكي ألتزم وأحافظ على الحياد وعدم التميز والحكم المتحرر الذي يترفع عن التحزب لأحد، وأن أرغم نفسي كل مساء، حين أجلس أمام صفحات الورق الأبيض، على إلقاء بعض الضوء على هذا الخليط من الأفكار والانطباعات التي توحي بها هذه الأيام المليئة بالأحداث.

١٠ تشرين الثاني ١٩٢٥

أخيراً صرت قادرة على معرفة الأخبار إذ بدأت تصلني صحيفة «ليكو دو باريس» تصلني منذ ثلاثة أيام، كما ووصلتني اليوم رزم كبيرة من صحف مصرية متنوعة بتواريخ

مختلفة، وكشفت لي هذه الأعداد المتنوعة عن وجود اضطرابات في هذا البلد. وقد ثارت الصحف الفرنسية أيضاً على هذا الوضع أيضاً، ولكن بعد مرور وقت طويل. . . ! ويخيل إلي أننا بهذا التغيير نكون قد خرجنا من عزلة فكرية مضنية فما هو الشيء الذي جعل سدود الرقابة تنفتح بهذا الإتساع. . . ؟ هل هو تعيين مفوض سام جديد. هو المسيو دو جوفينيل «M. de gouvenel» كما علمت أخيراً. . . ؟

١١ تشرين الثاني ١٩٢٥

اليوم عيد الهدنة، وأي حزن بمقارنته مع عيد السنة الماضية، الذي قضيته في بيروت. ! فالزينة الوحيدة التي أقيمت هي بعض الأعلام الصغيرة المعلقة على حافلات الترامواي وكانت المدينة في حالة حزن فلم تعبر عن فرحها. وقد مشى موكب الحراس وموكب الفرقة الموسيقية فترى أفراد «زمرة» الطبل والنفخ والزمر في رأس الموكب، وفي مؤخرته، صعدوا طريق الصالحية برفقة هؤلاء المرثي لهم «حملة المشاعل» ولم يمد أحد رأسه من النوافذ أو ينزل إلى الأرصفة، إلا القليل من الفرنسيين الذين كانوا يرافقون العرض. كما وقف عدد من الرجال أمام مبنى «قيادة الشرطة» ينشدون ويهللون وظل، الاحتفال مصطنعاً بشكل عام، ولم يحدث أي صدى حقيقي في أوساط الشعب.

وقالت لي السيدة «أم . . . . .» إن الأهالي لايريدون رؤية الفرنسيين في دمشق بعد الآن، فما من أحد يستقبلهم الآن حتى لوكان الزائر فرنسي من أولئك الذين لازالوا يتابعون بحسن نية، طرق الأبواب بدون أن يتساءلوا عن سبب عدم فتحها في وجوههم هذه الأيام. . . !

١٥ تشرين الثاني ١٩٢٥

قال لي الصديق «. . .C» هذا المساء: إن الحركة الثورية قد تضخمت وامتدت إلى لبنان حتى أن حاصبيا وراشيا قد حوصرتا من قبل الدروز. . . !

وتابع الصديق يقول: تابع الثوار احتلال ضواحي دمشق كما أنهم نسفوا جسر تورا الذي يقع قرب أحد أبواب دمشق، وحدث هذا البارحة. وتخشى الحكومة في أن ينضم البدو «الكثيرون» إلى الثوار.

ويقول صديقنا: إن سلطان الاطرش قد وعد بأنه سوف لن تجري أية محاولة ضد دمشق بالذات وإن أخاه الأمير زيد قد ألقى خطاباً بصفته القائد العام لجيش الثورة.

١٨ تشرين الثاني ١٩٢٥

قالت لي السيدة «N» بعد عودتها من الأسواق: إن الاولاد السوريون يهتفون الأن بحياة الاشقياء الاكثر شهرة ويبيعون قصص حياة هؤلاء في كراسات صغيرة كما هي الحال في مدينة «بيل فيل» عندنا حيث يتغنى الناس بحياة الأوباش اللطفاء، الذين أصبحوا بمثابة الابطال.

وهكذا أصبح «حسن الخراط» وأولاد عكاش قديسي هذه الأسطورة الجديدة المذهبة يتمتع حسن الخراط بشعبية تجعل الغيرة تدب في قلب «السيبياد» نفسه. أما أولاد عكاش فمن المحتمل أني قابلتهم لما كنت أسكن في دمر، وكان لي منزلاً هناك كنت أرتاح فيه على أنغام خرير المياه من جولاتي المحرقة في السهول والمرتفعات المجاورة. إنهما أخوان شجاعان إلى أقصى حد، وهما يحتلان المضائق المشرفة على نهر بردى وأحدهما شخص نبيل بكل ماتحمله الكلمة من معنى، وقد رويت لي هذه القصة عن أخلاقه ونبله:

كانت بعض السيدات من عائلة (. . . . .) يركبن احدى السيارات الذاهبة إلى بيروت وعندما وصلت إلى مضيق دمر، رأى السائق عصابة أولاد عكاش هذه، فأوقف سيارته ولماوصل زعيم العصابة هذا إلى السيارة سأل عن سبب إيقافها وهنا قدمت له النساء نقودهن فرفض أخذها وقال: وهل أنا لص لآخذ أموال النساء. . ؟

وأعاد إليهن أموالهن، وطمئنهن عن سلامة الطريق ولما رآهن خائفات عرض عليهن أن يرافقهن لكي يحميهن في الطريق. . . ! وكان يصب حقده على الفرنسيين فقط وكان يقوم بأعماله الإنتقامية بكثير من روح الدعابة فمثلاً: كان يقتل كل العسكريين إلا أولئك الذين يقودون السيارات منهم ولذا تنكر صديقنا «M.J» بهيئة سائق لكي يصل إلى بيروت، وكان يمثل بشكل جيد أدوار الأشقياء في روايات «الأوبرا- كوميك».

وعلى هذا فيجب على دمشق ألا تشعر من هذه الناحية بأية غيرة مما تحويه كورسيكا أو صقيلية من اللصوص الأشراف. وذات يوم دخل سعيد عكاش ورجاله بيت الأمير (. . . .) وهو رجل مسن في الثمانين من عمره وقد تزوج من فتاة بكر لايزيد عمرها عن أربعة عشر ربيعاً بالرغم من أنه سبق وتزوج ست نساء من قبل. ترك سعيد عكاش رجاله عند الباب،

ودخل بمفرده إلى البيت مسلماً بالبنادق والمسدسات ويكسو صدره حزام مليء بالخرطوش وطلب كزعيم للمنطقة هبة مجانية تتضمن بعض المؤن سجادة أو خمس ليرات ذهبية لكن الأمير المسن «العروس» احتج بأنه فقير كالنبي أيوب وبأن ذلك يعتبر من قبيل قطع لقمة العيش عن فمه . . . ! وتوسل كثيراً بمرارة، لكنه في النهاية قبل أن يدفع الليرات الذهبية الخمس، حملتها العصابة ورحلت بدون أن تحدث أي أذى في البيت.

وفي اليوم التالي اشتكى هذا «العروس» إلى الشرطة فكلف خمسون رجلاً بحراسة بيته، وقد عاش هؤلاء في بيته، نوماً وأكلاً وشرباً، وصاروا يعبثون بأدوات البيت كافة لدرجة أنهم أحدثوا من الأضرار بمدة ساعة واحدة من الزمن، أكثر مما يمكن أن يُحدثه أولاد عكاش في المنطقة طوال مئة سنة . . . !

١٩ تشرين الثاني ١٩٢٥

سمعت مساء البارحة لعلعة رشاشات وأصوات انفجار عدد من القنابل التي ألقتها الطائرات في منطقة باب شرقي وصباح هذا اليوم، أخذ الناس يتناقلون نبأ مقتل «حسن الخراط». . !

٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٥

قام الجنرال غاملان بتمشيط مناطق مدينة دمشق بواسطة خيالته وذلك لكي يذهب لتفتيش «حصن غورو». وقد توجه قسم كبير من قوات دمشق إلى منطقة الحرمون لكي يتم قطع طريق الإتصال والتنقل بين دروز حوران ودروز الشوف.

وبدأت حملة من الشائعات تغزو المدينة، وقامت جهات عديدة بنشر خبر مفاده أن الثوار قد احتلوا مدينة تدمر، ولكن أحد أصدقائنا العائدين من هناك أعطانا أنباء أكثر دقة عن الوضع هناك، وقص علينا السلوك الحسن الذي تميزت به سرية الهجانة، والتي يقودها ثلاثة ضباط بعد أن هُجرت هناك لعدة أسابيع وليس من غذاء ولا دواء في مخازنها سوى بعض الرز «والمكرونة» الذين كانا يؤكلا مسلوقين بالماء فقط هناك. وكانت طائراتهم لاتقدر على الإقلاع بسبب نقص الوقود أيضاً، وذلك لأن بالبدو قد هاجموا قافلة تحوي صهريجاً من البنزين وثقبوا الصهريج بالطلقات النارية، وخسر جانبنا حوالي ١٢٠٠ ليتر من الوقود، بحيث لم يبق في الصهريج إلا مايكفي لست عمليات إقلاع فقط. فاحتفظوا بهذا الكم القليل

لأجل العمليات العسكرية المهمة التي كان يحتمل أن يقوموا بها ورغم أنهم كانوا يموتون من الجوع، فإنهم لم يرضوا أن يستخدموا أي جزء من كمية الوقود الباقية هذه للذهاب إلى حلب والتزود بالمؤن اللازمة.

٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٥

وصلت من بيروت تعزيزات عسكرية ومن ضمن سيارات مصفحة ويتمركز الثوار الآن في بساتين الغوطة القريبة من حي باب توما في منطقة القصاع. وفي كل ليلة تحدث الإصطدامات بين المعسكرين، وتسمع الطلقات النارية على خطوط التماس، وهذا مايدل على أن الطرفين حذران تماماً وقالت لنا الخادمة «مريم» وهي من يبرود إن الثوار قد أتوا إلى بلدتها أيضاً وطلبوا تزويدهم بالمؤونة وبقليل من المال لكنهم تركوا للنسوة ذهبهن، ولم يزعجوا الفلاحين.

٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٥

في دمشق تم هدم الأسوار المحيطة بالبساتين، وذلك بأمر من السلطة العسكرية، لكي تسهل عملية مطاردة الثوار داخل الحقول والبساتين وتقوم الدوريات أثناء الليل بالتجوال في الشوارع التي تقود إلى هذه البساتين. ويزود كل جندي فيها بعدة قنابل يدوية وتحدث هذه الأيام عمليات نزوح في المنطقة المعرضة لطلقات الرصاص وفي كل مساء يجب على سكان القرى المساكين إذا أرادوا أن يناموا بسلام أن يحملوا «فرشاتهم» ووسائدهم ويذهبوا إلى البيوت البعيدة عند أصدقائهم المحسنين الذين يعيشون في هدوء أكثر.

٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٥

قال لي بعض الأشخاص بأنه قد تم البارحة إرسال بعض الخراف المحشية من المدينة إلى الثوار، وأن الجنود الذين يحرسون الأبواب ونقاط الحدود لم ينتبهوا إلى تلك الأحمال «سواء رأوها أو لم يروها» ويضاف إلى ذلك أن كثير من الجنود لايرون الآن أية ضرورة للإقتتال مع أهل الشام لأن السيد «دو جوفينيل» كما يقال، قد أتى لإحلال السلام، وهذا مانأمل جميعناً بالوصول إليه وصدر اليوم إعلان بالعفو عن سجناء أرواد معلوم أن زوجة أحد الضباط الذين قتلوا في الجبل أوشكت أن تجن وتفقد صوابها من شدة الألم عندما سمعت بخبر مصرع زوجها، بعد أن كتموه عنها شهراً كاملاً، وأصبحت المسكينة مثل أوفيليا إذ أنها تترك طفلها

الصغير عند بعض الأصدقاء كل يوم لكي تذهب بذراعين محملتين بالزهور، وبهيأة مجللة بالحزن العميق إلى المقبرة العسكرية للتفتيش عن قبر العزيز الراحل الذي لن يعود أبداً.

٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٥

بما أن دور السينما قد توقفت عن العرض هذه الأيام فقد ظهرت الحاجة إلى «الحكواتي» والقصاصين الشعبيين. وظهرت قصص خيالية تتناقلها الأفواه في حارات باب توما: وحسب هذه القصص يكون حسن الخراط قد بعث حياً بعد موته، لأنه شوهد يشرب «العرق» في ساحة المرجة ويكون الثوار قد حددوا يوم ٣ كانون الأول القادم ليدخلوا دمشق فاتحين منتصرين..! والحقيقة أن الثوار كانوا يتسربون على شكل جماعات صغيرة إلى داخل دمشق كلما أرادوا ذلك وقال لي أحد معارفي من الفرنسيين بأنه شاهد بنفسه هذا المساء مجموعة من الثوار كانت وجوههم مقنعة بالسواد، ويحملون سيوفاً طويلة، لكنهم لم يعترضوا لصاحبنا بكثير أو قليل ولقد دخل ثمانية منهم البارحة إلى حي الميدان والشاغور، وقتلوا وجرحوا اثنين من رجال الشرطة وسلبوا كل موجودات مخفري الشاغور والميدان بكل اطمئنان...! وأخيراً لاحقتهم رشاشات كثيفة، ولكن بلا جدوى.. ونجم عن ذلك أن أمطر جيش السلطة حي الشاغور بالقنابل فقتل طفل وثلاثة عمال كانوا ينقلون القمح على إحدى الطرقات.

وبهذا الشكل تدور الاحداث على الدوام فيصاب الأبرياء بقذائف السلطة ولايصاب الثوار وبهذا يزداد سخط الشعب علينا وعلى العموم فإن الفرنسيون ينظرون إلى رجال الشرطة السوريين نظرة سيئة، ويتهمونهم بالخيانة وبالتواطؤ مع الثوار ولذا فقد أقدم العديد منهم على الإستقالة.

علينا نحن الفرنسيين أن نعرف طباع السوريين ونتفهما بشكل صحيح، ونتفهم حالتهم الفكرية وكم نخطئ إذا أردنا أن نحكم على هؤلاء بحسب طريقة شعورهم فهم أقرب إلى الطبيعة الأصلية للإنسان، ولذا فهم يقدرون عالياً ثمن حيواتهم: أثماناً تزيد عن الليرات القليلة التي يتقاضونها منا وتعرض حيواتهم للخطر! هذا بالإضافة إلى أنه كان عليهم أن يقاتلوا أصدقاء الأمس: لعل هؤلاء الثوار أبناء أحيائهم أو حتى أخوانهم وأقربائهم...! ولهذا أصبحت وضعية رجال الشرطة السوريين صعبة للغاية، لأنهم كانوا موزعين بين إرادة

أحمد مريود

الإحتفاظ بهذا الراتب البسيط وبين الميل الطبيعي الشديد الذي يشعرون به نحو أبناء وطنهم. فهل بوسعنا إذن أن نطالبهم بأن يكونوا مثل «كاتون» وهل بوسعنا أيضاً أن نكون بالذات مثل كاتون هذا لو كنا في مكانهم . . . !؟

٢ كانون الأول ١٩٢٥

الطقس اليوم جميل رائع الصفاء والشمس مشرقة ساطعة في النهار، ولكن لايمكن الخروج والقمر كامل النور، لأن التجول ممنوع بعد الساعة السادسة مساء وهكذا يعيش المرء، سجيناً في مدنيته وفي حي باب توما حيث أسكن منذ بضعة أيام تبدو الشوارع القديمة مقفرة تماماً وهادئة وصامتة لقد عدنا من الصالحية وتألمنا لعودتنا إذ لايزال الذعر يسود هناك نتيجة لبعض الأخبار الصحيحة أو الموضوعة. تم القبض على أحد الثوار قرب مخفر شرطة عرنوس حيث كان متنكراً بزي ضابط فرنسي ورأينا رجال الأمن يسوقونه وهو دامي الوجه، ونتج عن هذا الحادث أن عم الخوف في أرجاء المدينة فصرف الموظفون إلى بيوتهم قبل حلول موعد

إقفال أبواب الحي السجين، واشيع خبر دخول ألف من الثوار إلى حي الميدان، فعاد السكان للخروج إلى حي المهاجرين الآمن، وأغلقت المحلات وعززت حالة الحصار المفروضة على دمشق ويتحدث الأهالي اليوم عن احتمال قصف دمشق بالقنابل من جديد. . . ! ويقوم رجال الشرطة بإيقاف السيارات والعربات والمشاة، وبفصل الأزواج عن زوجاتهم عند خروجهم معاً، لأنه لايسمح الآن للرجال بأن يدخلوا الصالحية التي أصبحت قلعة الصالحية. . ! وقد عادت المصفحات للظهور في شوارع المدينة، ويبدو أن الفرنسيين قد فقدوا شيئاً من هدوء أعصابهم ولاتزال الأوهام الذاتية تسيطر على أهالي الصالحية لأن المدينة هادئة تماماً في بقية الأحياء وكان أهل الشام يهزأون من ذلك إذ يجدون أنفسهم أشجع من حراسهم. . . !

السبت ٥ كانون الأول ١٩٢٥

قطع هدوء الليالي الأخيرة لعلعة رشقات نارية غزيرة في باب شرقي والميدان والقصاع. واليوم ومنذ الساعة السادسة صباحاً تزمجر المدافع وتقذف بحممها، وعند الظهيرة، احتدمت معركة عنيفة تشبة معركة ١٩ تشرين الاول الماضي، وابتدأت الطائرات تقصف بقنابلها حي الشاغور.

(لكن ماذا بقي منه. . . ؟) ومن مقابر باب الصغير. . ؟ وفي المساء ذهب واحد من الاصدقاء إلى الميدان، ثم عاد في حافلة «الترامواي» وقد امتلأت بثقوب الطلقات النارية ويخيل للمرء اليوم أنه يسمع معزوفة موسيقية تشترك بأدائها مختلف الآلات: بنادق ومدافع ورشاشات وطائرات ومصفحات. . . . وقد ظلت أصداء هذه المعزوفة تضج في الجبال حتى المساء بدون انقطاع. . . وعندما عادت صديقتي «المعلمة. . . س» «Malemma s....» إلى منزلها ليلاً شاهدت كما قالت لنا طنابر «Tomboreaox» ملطخة بالدماء البشرية تمر من الشارع. فاعتقدت صديقتي هذه، بأن هذه الطنابر تحمل لحوماً لذبائح حيوانية، لكنها صعقت لما رأت فجأة أقداماً وأيادي آدمية تتدلى من أطراف صناديق العربات. ! وبعد السؤال والاستعلام عن الأمر، تبين أن هذه العربات كانت تنقل إلى المدينة جثث القتلى من الثوار «العصاة» ليتم التعرف على كل شخص منهم. وهؤلاء قد شاركوا في معارك اليوم. وهذا خرق لحرمة الموت لامبرر له، فالموتى لايستطيعون فعل شيء تجاه الأحياء لكن. . . !

٦ كانون الأول ١٩٢٥

بعض المسيحيين القادمين من «راشيا» في لبنان قصوا علي بأن قريتهم قد أحرقت، وأن القلعة قد تهدم سورها بكامله. وقالوا بأن الثوار قد هاجموا بعنف شديد، وحاولوا احتلالها بعملية انقضاض مستخدمين لذلك السلالم. وكان بوسع المرء أن يسمع نداء أحد عائلة « الأطرش» وهو يقول لرجاله: «بيعوا أرواحكم. . . . !» . . . «النصر أو الموت. . . !» . . ويُفهم من أقوال القادمين بأن بيروت قد اكتظت بالناس وأصبحت الحياة فيها غالية جداً، واليوم في الساعة العاشرة صباحاً تابعت المعزوفة لحنها إذ سمعنا صوت انفجار قنبلة يدوية.

٧ كانون الأول ١٩٢٥

هذا النهار كله موسيقا، «كونشيرتو» على مدار الساعة في كازينو دمشق، وقد سجلت كل هذا القصف.

في الساعة الرابعة وعشر دقائق قذف حوالي مئة قنبلة ومن سطح منزلي تمكنت من أن أرى على بعد ستة كيلو مترات من جنوب شرقي المدينة الغبار والدخان يرتفع على شكل زوبعة عند كل انفجار وفي الساعة العاشرة صباحاً عددت ثلاثين قذيفة في «حصن غورو» وفي الساعة الثامنة صباحاً عددت عشرين قذيفة أخرى، وفي الساعة العاشرة مساء أيضاً، عددت عشرين قذيفة أخرى في البساتين ورأيت أضواء انفجاراتها ترتفع في السماء وتنير المكان ولكن ماذا يجدي هذا كله في استهداف المشاغبين الذين انتشروا على مساحات واسعة من الأرض المليئة بالتضاريس. . ؟ هل الهدف هو إثارة الضجة فقط. . ؟ أم استعمال الكميات المخزونة من الذخيرة الفائضة عن الحرب الكبرى كما يقول أهل الشام. . ؟ أم أن الهدف هو زيادة الإضافة على مجموع الحساب الضريبي المرقم الذي ندفعه في فرنسا وفي هذه الحال لي الحق بأن أحتج وأقول أن العسكريين الفرنسيين مبذرون كثيراً. .

٨ كانون الأول ١٩٢٥

في الساعة الرابعة صباحاً استيقظت على صوت وضجيج مزعج (أربعون قذيفة مدفعية) وأصبح هذا أمر عادي مألوف وكأنه طقس ديني، وفي الساعة الثامنة بدأت الطائرات تقصف بضراوة المناطق المجاورة للبلدة من الجهة الجنوبية الشرقية وفي الساعة الخامسة مساء

عم المدينة رعب من نوع آخر، يمكن أن نعتبره أحد الأمثلة المشوقة لثورة الأعصاب الجماعية التي رأيتها طيلة حياتي، ويجب أن نعترف بأن أعصاب السكان المساكين، هنا في دمشق قد تعرضت منذ حوالي شهر حتى الآن لتجربة قاسية. عسكريان فرنسيان في شارع السنجقدار أطلقا النار على مشبوهين تمكنا من الهروب وقتل من جراء ذلك رجل يمتطي بغله، وقتل بغله المسكين أيضاً، وقد سبب هذا الحادث رعباً لامثيل له، وزعراً كبيراً، فهرب الحاضرون وهم يصرخون: «إنهم دخلوا.... ! دخلوا... !» وتفرق الناس بسرعة كبيرة وقد نهب محل أحد الصرافين من قبل جنود المستعمرات، وآخرين من الفرقة الأجنبية.

المونسينيور تريفونيونر الأورذ وزوكسي كان يدخل ليسلم على السيد «دو جوفينيل» في بيروت وقد وقع من سيارته وفقد أكمام ردائه، وتعرض لأذى من قبل العصاة، وكان رفيقه السيد «مالوك» «Malok» وقد تمزقت ملابسه أيضاً وقد عوجلا في بيت تابع «للمسلمين» وبقيا حتى ارتاحا من الحادث العارض. وأخيراً ركبا العربة وبالعكس نجد أن أحد الصرافين قد نُهب محله من قبل الجنود «المغاربة» «MAROCAINS» وجنود الفرقة الأجنبية وقص علينا الصديق «.....I» بأنه شاهد عربجياً أوقف من قبل عدد من الجنود، حيث أخذوا منه كيس نقوده وكانوا وقحين لدرجة أنهم أجبروا ضحيتهم على أن يقودهم بعربته حتى أوصلهم إلى دائرة صف الضباط لكن الضابط المذكور قام بطي القضية وكأن شيئاً لم يحدث وكأن الأمر عادي لايستدعي التفكير.

٩ كانون الأول ١٩٢٥

تم تعزيز قوات الفرقة الأجنبية بعناصر جديدة وقد وصلت اليوم مجموعة جنود «هنغاريون والمان وروسيون» إلى دمشق عن الطريق البري. وكانوا على جمالهم المحملة تعبين، جائعين، منهكين، لدرجة أنهم اندفعوا فوراً باتجاه المحلات الصغيرة لشراء الخبز، ثم قاموا بنصب الخيام ليسكنوا فيها، وستشعرون حتماً بالبرد تحت هذه الخيام لأن الشتاء قد بدأ وكان هذا النهار هادئاً ولكن حوالي الساعة السادسة مساء سمعت بعض طلقات البنادق القادمة من ناحية حي الميدان، وتبع ذلك رشقات رشاشات، وقصف مدفعية استمرت حتى الساعة السابعة مساءً.

١٠ كانون الأول ١٩٢٥

اليوم «هم» حقاً دخلو المدينة، لقد دخل الثوار حقاً، وإن باب توما يغلي كالمرجل، وقال

لنا «شيخاً» بأنه صادف حوالي ثلاثين من الثوار في حي العمارة، كانوا يمشون في وضح النهار وكأنهم في منازلهم نفسها أما السيدة «G....» التي جاءت لزيارتنا فقد صادفتهم أيضاً، وكانت ملابسهم ممزقة معفرة، ووجوههم شاحبة، وقد تبادلوا إطلاق النار مع رجال السلطة فجرح فرنسيان، وتوجه الثوار بعد ذلك إلى مخفر الشرطة ليتزودوا منه بالسلاح والذخائر، فوجدوه فارغاً تماماً من كل شيء والتقوا بعربة محملة «بالبترول» فأخذوا حصان ومال سائق العربة، فراح هذا يصرخ ويستغيث ويقول بأن الحصان له هو وليس للدولة، فتدخل رجال الحي ليحلوا الأمر بينه وبين الثوار، وبعد المداخلات والمناقشات فكر الثوار وهم ليسوا شياطين قنص بالأصل، فأعادوا له حصانه وماله عندما اقتنعوا بأنهم ملكه الشخصي وليسوا ملك السلطة، وبأنهم مسحورون فقط بالسلاح ولايبحثون إلا عنه ويظهر أن الحالة أصبحت خطيرة ابتداء من الساعة الحادية عشرة من صباح هذا اليوم حيث قامت الطائرات بقصف المدينة ثم آزرتها المدافع المتمركزة في القلعة بالقصف. بدأ قصف الطائرات في الساعة الثانية عشر والنصف واستمر قصف المدافع حوالي ساعة. وشاركت بعد ذلك القنابل اليدوية، ثم مدافع المصفحات التي سمعت في حي القصاع حوالي الساعة الواحدة. وفي الساعة الثامنة وحتى التاسعة مساءً تجدد القصف وشاركت المدافع والقنابل اليدوية وفي منتصف الليل، أطلقت المدافع من القلعة عشرين قنبلة، وكذلك المدافع المتمركزة في مصنع البارود، التي قامت باجراء قصف كثيف رمت به حوالي ستين قذيفة وسمع انفجار هذه القنابل بعيداً وهي تنصب على قرية «جرمانا» وعلى أماكن أخرى في البساتين لكن كيف يمكن أن يبقى الثوار فيها أيضاً، رغم هذا القصف القوي. . ؟ وعلى الأخص، كيف يمكن للدمشقيون أن يحتفظون بهذا العناد والموقف الصلب رغم أعمال القصف والقمع التي يقوم بها النظام الحاكم لقد نفذ صبر أهالي القصاع، وقرروا الرحيل إلى أي مكان آخر، فالحياة صعبت ولم تعد تحتمل على الإطلاق

ولاأحد منهم يستطيع النوم وهو يسمع صرخات الإنذارتتجاوب ليلاً ونهاراً. ويرى على الدوام طلقات الرصاص تئز فوق البيوت وتصطدم بالاسطحة. . . ! وبين حين وآخر تقتل الأبرياء وأحياناً أطفالاً يسيرون في الشوارع وفي بعض الأيام تصبح زيارة الأصدقاء أمراً مستحيلاً، لأن الطلقات النارية قد تحبسك في بيت الآخر ولاتعرف متى يمكنك الخروج لقد عادت إلي الانفعالات المتميزة تماماً، التي كنا نشعر بها في باريس أيام كانت تضج مدافع «بيرتا» وكنا نجتاز حديقة اللوكسومبورغ المقفرة بسرعة وبخطف، ونسرع الخطوات في الوقت الفاصل بين الطلقة والطلقة. أما هؤلاء الأشقياء فإن اعدادهم تتزايد بشكل مطرد وكأنهم

رفاق البطل الأسطوري قدموس الذين كانوا يتوالدون من أسنان التنين ، ونحن نعلم اليوم أن كثيراً من سكان المدينة هم من الثوار . وفي النهار ، عندما نذهب لشراء بعض حوائجنا من المحلات ، فنلاحظ غياب ولد البائع أو قريبه لمدة طويلة فنسأله عن أخباره وأين هو ، يبتسم صاحب المحل بنعومة ولايأتينا الجواب وفي كل ليلة بعد أن ينجز هؤلاء أعمالهم يذهبون إلى بساتين الغوطة وينقلب ، «أحمد كاكاتي» إلى« الأخ ديافولو» بكل سهولة لعمري ، هذا عمل خارق ، من النادر حدوثه في التاريخ . وكان من الممكن أن أجده مسلياً تماماً لو لم أكن فرنسية ، ولو لم تكن الطلقات التي ترمى موجهة ضد أبناء وطني .

١١ كانون الأول ١٩٢٥

إن السكان قد اعتادوا الإستيقاظ على نغمات قصف المدافع ، وأن ذلك قد أصبح من طباعهم .

في الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم سمعت طلقات مدفعية قوية من جهة مصنع البارود ، وكان عدد الطلقات خمسين ، وتوقف القصف ثم عاد الإطلاق في الساعة الخامسة والنصف ، وفي هذه المرة أطلق أربعين قنبلة . ولايشوقني فضولي لأن أعرف مقدار النفقات الإجمالية ليوم حرب بين سوريا وفرنسا ، على أن تحسب تكاليف الذخيرة ومقدار الأضرار الحاصلة ، ولاشك أن المبالغ ستكون كبيرة جداً . وابتداء من الساعة العاشرة صباحاً، اكتسح بساتين الغوطة قصف متقطع ، وحدث الشيء نفسه في الساعة الثانية عشرة ظهراً، وفي الساعة الثانية بعد الظهر قامت الطائرات بعمليات قصف جديدة وقد تسللت مجموعة صغيرة من الثوار إلى المدينة ، واشتبكت مع القوات النظامية ، فجرح جندي فرنسي ، قام الأهالي بإيصاله إلى مخفر شرطة قريب . وفي سوق الحميدية ، قام ثلاثة جنود من المرتزقة المأجورين من المستعمرات ، وهؤلاء يعرفون عملهم جيداً ، قاموا باحداث ذعر شديد كالذعر الذي حصل منذ بضعة أيام . قام أحدهم بإطلاق النار في الهواء واغتنم الباقون فرصة هروب بعض التجار الخائفين ، فحطما بالضرب بأخماص البنادق ، الصندوق الزجاجي وحملا ماخف وزنه وغلا ثمنه . . . ! وقام عدد كبير من الجنود المسلمين بالتجوال في الشوارع جماعات وهذا ماأحدث قلقاً شديداً لدى التجار ، فقاموا بإغلاق محلاتهم على وجه السرعة .

١٢ كانون الأول ١٩٢٥

كل فترة الصباح كانت فترة قصف بقنابل الطائرات ولعلعلة البنادق الآلية في منطقة «باب شرقي» وقد دمرت القذائف قسماً من حي جوبر وكذا حي المزرعة ومن الساعة الثامنة حتى التاسعة مساءً عادت لعلعة الرصاص، ثم هدأت في باب شرقي ويمكن أن نقول إذن أن اليوم كان هادئاً ومن ناحية أخرى، فقد قص علي البعض الطريقة التي أحتل بها الثوار قرية «التكية». لقد استولوا على كل مافي المحطة، وقطعوا الإتصال بين بيروت ودمشق، على مسافة ٣٥ كم وفجروا جسراً وحاولوا احتلال المصنع الكهربائي[1] وفي باديء الأمر صدهم التيار الكهربائي، إذ قام الحرس بوصلة خصيصاً لذلك الغرض، لكن الثوار قاموا بقطعه وبالقبض على رئيس العمال السيد «C.......» لكي يكون مترجمهم إلى الفرنسية واليوم كان الشارع المستقيم مكتظاً بالمصفحات القادمة من باب شرقي، وكانت مغطاة بالغبار وكان الناس يتجولون حولها، وهكذا برهنوا على أنهم قد ألفوها الآن بعد أن علموا بأنها ليست فيلة.

١٣ كانون الأول ١٩٢٥

اليوم في الساعة الثالثة، وبينما كنت ذاهبة إلى أحد الإجتماعات، فاجأتني لعلعة الرشاشات خلفي عندما كنت في الشارع العام، واعتقدت للحظة بأني مجرد أرنب مطارد من قبل جماعات الصيادين. . . ! ولا أعرف لماذا أطلقت الرصاصات الغزيرة، لكن كل الذي أعرفه هو أن البنادق تقذف اليوم رصاصاتها بكثرة مفجعة. وفي هذه الأيام يبدو كل الناس عصبيون وثائرون على النظام غير الطبيعي الذي تسود فيه حالة الحصار المملة ويتمركز الأعداء في داخل المدينة وفي خارجها. وطيلة هذا اليوم بدت المدينة وكأنها تشتعل وظلت الرصاصات تنطلق من كافة الجهات. وقد وصلني خطاب مكتوب من بيروت يقول بأن نزوح الدمشقيين إلى هناك مازال قائماً، وأن أصدقاءنا قلقون على مصيرنا المجهول هنا واليوم أيضاً

ألصقت على جدران المدينة إعلانات حكومية، كان الناس يضحكون عند قراءتها ويسخرون منها كثيراً، وقد مزقوا قسماً كبيراً منها بعد أن ألصقت مباشرة وكانت هذه الإعلانات تحمل دعوة ساذجة للسلم وجهها السيد «دو جوفينيل» إلى أهالي دمشق وقد ترجموا نص الدعوة بهذا الشكل: «لبنان والعلويين، هما طفلان عاقلان يسمعان ويصغيان جيداً لمايقوله البابا

---

(١)- قام بهذه العملية البطولية ثوار عكاش

والماما ولذا فقد تلقيا مكافأة سخية من السكاكر فلماذا لاتكونون عقلاء مثلهما وتحصلوا على مايحصلون عليه هم، بدلاً من تمسككم بدور الأولاد المشاكسين. . . !؟. . » . ويقول السادة «R.....» من المهاجرين بأنهم يسمعون طلقات المدافع عند إطلاقها ثم تعكس الجبال صداها كالصاعقة وعندما تسقط في بساتين الغوطة تثير الإنفجارات زوابع من الغبار والدخان وهذا تفصيل بمجموع قنابل اليوم في الساعة السابعة صباحاً قصفت الطائرات بقنابلها، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أطلقت المدافع حممها البالغة حوالي عشرين قذيفة، ثم عشرين أخرى بعد حوالي الساعة أي في تمام الساعة الرابعة ثم أصبحت الأصوات متقطعة في الساعة السادسة مساءً.

١٤ كانون الأول ١٩٢٥

يشاع بأن الجيش سيجري عمليات تأديبية في الغد القريب بعد أن أتم تجهيزاته الجديدة.

وفي الساعة السادسة من صباح هذا اليوم، انطلقت فجأة القوة التي يقودها الضابط «فينية» Vigne إلى خارج المدينة ثم بدأت المدفعية المتمركزة في مقر القيادة، الكائن في معمل الزجاج بقذف حممها وكان من الممكن أن يسمع المرء بوضوح أصوات القنابل، وهي تئز مارة فوق المدينة، التي استمر قصفها بالقنابل حتى الساعة الثامنة صباحاً وعلى أربع مراحل. وكانت معارك اليوم نظامية تماماً، فقد جرى الرمي التحضيري من قبل المدفعية تلاه هجوم بالرشاشات والبنادق ثم جاءت الإنفجارات البعيدة غير المألوفة في جهات دوما وعربين وكانت الشمس تسطع فوق كل اسطحة المنازل، التي كان أصحابها يقفون فوقها جماعات جماعات. كي يراقبون أحداث المعركة الدائرة قرب المستشفى الإنكليزي. وكانت الأصوات البشرية حادة لدرجة أنها غطت أصوات الإنفجارات، وفي هذا الصباح قامت وحداتنا التي تضم جنود الفرقة الأجنبية «والسباهي» SPAHIS والمغاربة بعرض عسكري لمدة ساعة من الزمن في حي القصاع وكانت المجموعات ترتدي اللباس الميداني الكامل وتحمل التجهيزات والمؤن والذخائر. ويقال بأن جنودنا فاجأوا الثوار بينما كانوا ينصبون خيامهم ويتناولون الشاي في قرية عربين وفي الساعة التاسعة صعدت إلى سطح منزلي كي أكتب هذه المعلومات فسمعت لعلعة الرشاشات وطلقات البنادق المتقطعة وقد التقى سرب من الحمام الخائف بسرب آخر تحت سماء زرقاء صافية مضيئة ومن بعيد رأيت طلائع الثلج وقد ارتسمت فوق جبل الحرمون ذي اللون الوردي ومثل هذا الجو وهذا الطقس رائعان تماماً ليموت الإنسان

فيهما. وعلى أعلى سطح في حي باب توما، وقف أناس يرتدون الطرابيش والكوفيات يراقبون المعركة ويحصون طلقات المدافع ويحسبون النتائج وهم يحركون أيديهم بصورة واضحة. وفي باحات المنازل الداخلية تابعت الحياة المنزلية العادية في بيوتات الشام سيرها الرتيب، حيث تسمع طرقات القباقيب «KAB- KABS» الخشبية على الأرض كالعادة وهاهو حمار ينهق وصاحبه يشهق ويبيع الخضار متجولاً ويصرخ منادياً على بضاعته وكل هذا يدل على أن أهل الشام قد اعتادوا على الحصار. ومن المكان العالي «المرصد» الذي أقف منه بوسعي أن أرى الحياة الخاصة لهذه المدينة وهي تجري برتابتها المعهودة، رغم أن الموت يضرب ضرباته على مقربة منها. ولما فكرت قليلاً بمقدار التضحيات التي يقوم بها جنودنا، انقبض قلبي وارتعشت . . . هؤلاء الشبان الذين تسميهم الأمهات السوريات «الأولاد» وكلما مر جنودنا من أمامهن يقلن «هؤلاء الأولاد» «OUALDS». لكن أين هو الآن ذلك المجند الغر، ذو العينين الجميلتين الزرقاويين، الذي كان البارحة يأكل رغيفه بشهية أمام معسكره في باب توما عندما بدأ تبادل إطلاق النار؟ من الممكن أن تكون إحدى الطلقات النارية التي أسمعها الآن موجهة إلى صدره فلأجل ماذا ولصالح من تكون هذه الميتة المظلمة . . . ؟ ومن الذي يقدر أن يعزي الأم بفقدان ولدها عندما ستسمع عن أسباب هذه الحرب الباطلة . . ؟

وبينما أنا في مرصدي أتابع الأخبار والأحداث وصلني شخص قال لي بأن الحملة العسكرية قد خرجت على شكل دائرة لدحر الثوار إلى أبعد حد ممكن عن المدينة، وبالفعل كانت طلقات البنادق التي سمعناها بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف، تسمع وكأنها تصدر عن مسافات بعيدة كما وظهرت في الجو طائرة قاذفة، لكي تحرج الثوار بقنابلها ثم لم يعد يُسمع شيء. وحدث سكوت مؤثر بعد الضجة الكبرى التي حدثت في الصباح. وعن بعد كانت تظهر قمة جبل «ابو الحطة» «ABOUL HATTA» المستديرة مغطاة بدخان القصف والانفجارات ولكن الآن عادت قمة الجبل تظهر وفي الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين سمع انفجار آخر قنبلة في هذا اليوم، ولكن هاهي الآن طائرة تحلق من جديد وسمعت من جديد أصوات طلقات نارية بعيدة وهي تقترب منا قادمة من جهة الشرق.

وفي الساعة العاشرة مساءً سمعت طلقات نارية بعيدة ومتقطعة ثم أصبح رمي البنادق غزيراً ولكن بقي على مسافة بعيدة عنا، واحتدمت المعركة من جديد واستخدمت البنادق الآلية، واقتربت الآن من طريق بغداد. وهاهي إحدى الطائرات تعود بسرعة لتتزود بالقنابل

ثم لترجع إلى المعركة التي لم تنته إلا بابتعاد الثوار في منتصف النهار .

المعلمة «Z....» قرأت لي منشوراً وجهة حسن الخراط وكأنه بعث حياً ، ونشرته إحدى الصحف العربية . وقد عين بندائه هذا أربعين رجلاً كي يحملوا له رأس «دو جوفينيل» المسكين المطلوب الذي لايستحق هذا أبداً كمكافئة له على الجهد الذي يبذله كي يحسن التصرف بالتركة الثقيلة التي خلفها له الجنرال ساراي ويقول الوطنيون أن هذا جواب لخطب «دو جو فينيل» وإعلاناته وقد صادرت السلطات أعداد هذه الصحيفة لنشرها ذلك النداء ، وتم سجن مديرها المسؤول الذي كان الثوار قد هددوه من جهتهم بالانتقام منه إن لم يطبع الدعوة .

آه . . . ! أيها الصحفيون العباقرة . . . . ! الذين يأتون من باريس إلى هنا كي يشربون العرق عند «مايديلون» «MADELON» وثم تعودون إلى فرنسا وتقصون هناك هذركم السخيف . . ! تعالوا هنا إلى دمشق لتديروا ورقة «ملفوف في دمشق» وتكتبوا لصحيفة يوميات دمشق ، وعند ذلك سوف تتعرضون لدفع حياتكم ثمناً لتحقيقاتكم الجريئة الحساسة .

١٥ كانون الأول ١٩٢٥

كان اليوم هادئاً بشكل عام ، إلا بعض الطلقات النارية الصادرة من حي القصاع في الساعة الحادية عشرة والربع وحدث ذلك كي لايكون في الهدوء التام مخالفة للعادة وفي الساعة السادسة مساء سمعت انفجارات في البساتين ، تبعها لعلعة رصاص الرشاشات ثم طلقات بنادق وانفجار قنابل يدوية في الساعة العاشرة مساء . وعلمنا اليوم بموت السيد «عمر بيك» OMAR BEY أحد وجهاء حي الميدان ، وذلك على يد الجنود الفرنسيين وقد ذهب وفد من أهالي دمشق لمقابلة السيد «دو جوفينيل» ولكن هذا رفض مقابلتهم ويظهر أنه كان يعتقد بأن أفراد الوفد إنما جاؤوا لاغتياله وهذا الصباح ، قام بعض الأطفال الذين شاهدوا أحد الثوار في الغوطة بالوشاية عنه للجنود فقتله الجنود . ويقال أن الثوار يعلمون بواسطة أفراد الشرطة السوريين بتنقلات الوحدات العسكرية ، ولذا قام الكوماندان «لافيني» «LAVI NE» بإعادة تنظيم ضابطة الشرطة وابتدأ باستخدام الجنود الفرنسيين فقط في دورياته .

١٦ كانون الأول ١٩٢٥

عاد الكولويفل «فينية» اليوم من مهمته هو وقواته التي قادها في الغوطة . وكانت

الطائرات تحلق منذ الساعة السابعة صباحاً، وقد قصفت الغوطة بكل غزارة ووحشية، ودام القصف حتى الساعة الحادية عشرة.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخمسين سمع صوت انفجار قنابل أخرى في حي القصاع، وقذائف مدفعية أطلقت من القلعة. كما وحدثت بعد ظهر اليوم معركة رهيبة في حي القصاع بدأت الساعة الثانية وانتهت الساعة الخامسة، حيث هوجم جناحا القوة العسكرية التي يقودها «فينية» وهي عائدة من قتالها في القابون وعربين. وقد امتلأت الأسطحة بالناس المتفرجين وهذا مايجعلني أتذكر حفلات السيرك، حيث يتفرج المشاهدون من مقاعدهم على حركات اللاعبين، وهم يموتون على الحلبة ويجري تناقل الأخبار من سطح إلى آخر بواسطة الصراخ طبعاً. وقد حددت ساحة المعركة بنقطتين في سطح جبل «أبو الحطة» حيث يصعد عمود طويل من الدخان المغبر في السماء، وينفتح ثم يدور على نفسه ويصبح الجبل مثل خيال صنوبرة كبيرة الحجم وفي الأراضي الممتدة من القصاع إلى عربين حيث ترى البيوت البعيدة البيضاء المتغلغلة في البساتين ضمن دخان كثيف. وقريباً جداً من حينا انطلقت رشقات رشاشات هائلة الرعب وافقتها أصوات بشرية وسمعت صرخات تلميذات المدارس الصغيرات اللواتي يرتعدن من الخوف، وهن يحاولن العودة إلى حي القصاع وقد استوقفهن الناس وقالوا لهن: «لاتعدن إلى بيوتكن. . . ! ذلك يعرضكن للقتل. . . ! »

انطباع مؤثر ومحزن ذلك هو أن الشمس تغفو فوق جبل الحرمون، بينما المعركة تتتابع ياله من مشهد مؤثر حقاً. . . ! ومن الحزن العظيم أن نفكر بالأرواح التي تذهب والحيوات التي تنتهي والعيون التي تغمض إلى الأبد في تلك النطقة، على نور هذا الشفق البادي وفي الشارع المجاور سقط ولد في السنة الرابعة عشر من عمره برصاصة طائشة أصابت قلبه مباشرة فتهاوى المسكين وكأنه مغمي عليه، وقال لي الرجل الذي كان يرافقه: «لم تسل منه نقطة دم واحدة، ليس فيه شيء سوى ثقب صغير فقط. . . . . ! ؟ » وهذا الصبي هو من اللاجئين الذين قدموا إلى الحي، وكادت أمه تجن حزناً لما سمعت نبأ موته، وكان أخوه الأصغر يشد شعره حزناً وقنوطاً، وقد قتل رجلان آخران في حي القصاع اليوم وفي المساء وصلت القوة العائدة إلى ساحة المرجة وكان يصدر عنها قعقعة وضجيج ومنظرها الوحشي يوحي لمن يراها بأنها أنتصرت في مهمتها العظيمة، وكانت تقوم بعرض جديد يشبه عرض الملك «تاغلات فالاستار» فقد قادت معها مجموعة من الفلاحين المقيدي الأيدي، وعدداً من الحمير تم تحميل

الغنائم على ظهورها: وهي سجاجيد وتجهيزات منامة كلها أحضرت من قريتي جوبر وعربين اللتين هدمتا وقد قامت فرقة «المدرسة الحربية» الموسيقية باستقبال المحاربين العائدين بمجموعة من الألحان العسكرية الحماسية وقام المصور الرسمي بالتقاط آلاف الصور لهذه الإنتصارات الكاريكاتورية التي خلت من أي حياء. وفي هذا الوقت كان سكان القرى التي تهدمت ونهبت يصلون إلى دمشق بحالة يرثى لها، حيث اقاموا في الجوامع لقد حدثت حتى الآن في القرى المحيطة بدمشق كوارث كبيرة، ويقال أن الفرنسيين يستشيرون فيما يختص بأعمال القمع أناساً من مصلحتهم أن يجعلوا الشعب يكره الفرنسيين أنفسهم.

١٧ كانون الأول ١٩٢٥

رويت لي قصة مسلية حول ديبلوماسية رئيسة دير «الأورثوذوكس» في صيدنايا وهي تدعي بأن لها اتصال شخصي مع السيدة العذراء وتقول القصة أيضاً بأن الثوار قد سرقوا الطحين المخصص هناك. فنصحتها العذراء بأن تصلح الطاحونة القديمة التي في الدير فأصلحتها بسهولة ومشت الطاحونة على مرأى من الفرنسيين ويقول الناس معلقين هذه طريقة للحصول على (البخشيش) «BAKCHICHE» الاكرامية وعلى الماء الذي يغذي الطاحونة فبهذه الطريقة يمكن تحويله ولكن... ! لو أن العذراء مشت أمام الجنود الفرنسيين كما تقول الحكاية لكانت ستترك خلفها أشياء محسوسة تبرهن «وكان في القصة مبالغات أكثر لم نذكرها». ، أماحساب معارك هذا اليوم: من الساعة الثانية عشرة وحتى الثانية بعد الظهر أطلقت المدفعية حممها في مناطق باب شرقي والقصاع والقلعة.

ثم وفي الساعة الثانية وحتى الثالثة أطلقت المدافع قنابلها الثلاثين ثم عادت للإطلاق في آخر النهار.

١٨ كانون الأول ١٩٢٥

الزبداني بلد التفاح وجنة الله في الأرض.

الزبداني هي أيضاً قصفت بالمدافع لأن الأفعى تختبئ في بساتينها كما حصل في قديم الزمان[١] جرى القصف رغم التأكيدات التي أعطت للفلاحين من قبل القائم مقاح «مسلّم» KAIMAKAM MUSSALEM الذي كان موظفاً في رصيف أورساي [٢] وقد غضب تماماً

---

(١)- مقصود أن الثوار كانوا يختبئون في البساتين، وهم الذين يقودهم الثائر سعيد عكاش وكانوا يتحكمون بالأمن في المنطقة الواقعة بين دمر وحدود لبنان.

(٢)- رصيف اورساي في باريس «QUAI DORSAY» وفيه تقع وزارة الخارجية الفرنسية حالياً.

الفسحة الداخلية للقلعة بين الأعوام (١٩٢٥ - ١٩٢٧) ابان الثورة السورية وإلى اليمين في العمق الجامع الأموي.

من ذلك، وقدم استقالته احتجاجاً على إكمال القصف ومعلوم أن زوجته فرنسية. وإن حسابات دمشق هي مهمة اليوم أيضاً.

فقد سمعت الانفجارات بين الساعة السابعة والثامنة صباحاً ثم قامت المدافع بالقصف مرة أخرى وفي الثامنة والتاسعة وبين الساعة التاسعة والعاشرة سمعت معزوفة كاملة اشتركت فيها كل الآلات الموسيقية وكانت جو معركة كامل.

١٩ كانون الأول ١٩٢٥

وأخيراً أمطرت السماء، واستراحت الآلات الموسيقية وقام الثوار بالسطو على صندوق سرية الجيش المتمركزة في قرية «الفيجة» وقد ادعى مستخدم أرمني هناك بأنه إيطالي لكي ينجو بنفسه.

وأعلن السيد «عكاش» رئيس العصابة بأنه في حالة حرب مع الفرنسيين وحدهم فقط ومع العسكريين منهم بشكل خاص.

علي العيطة- سعيد عكاش- أبو سليمان التهامي- هايل الشعلان- شكيب وهاب
محمد عكاش - المجاهد مصطفى عبد الرزاق.

٢١ كانون الأول ١٩٢٥

هو جمت قافلة تغذية بالذخائر على طريق الميدان اليوم ونتج عن ذلك مصرع أحد الجنود الشركس «un TCHERKESSE Tue» وكانت كونشيوتو اليوم على الشكل التالي:

طلقات بنادق عادية من الساعة السابعة وحتى العاشرة وقذائف مدافع 75 مم بين الحادية عشرة والثانية عشرة في باب شرقي ثم عادت البنادق للإطلاق من جديد في حي الشاغور. تبعتها طلقات مدافع كثيفة.

٢٢ كانون الأول ١٩٢٥

ابتدأ القصف اليوم في الصباح، حيث ألقت الطائرات قنابلها في الساعة السابعة، ثم شاركت المدافع وقذفت ثلاثين قنبلة على حي الميدان في تمام الساعة الثامنة وعلمت بأن السلطات العسكرية عازمة على قطع جميع الأشجار المحيطة بمدينة دمشق وهدم حواجز البساتين كلها هذه وحشية بلاشك...! وحشية تحرق القلب موجهة ضد غوطتي الجميلة الصافية، والجداول العذبة وأشجار المشمش والزيتون...! آه.....! يادمشقي

المسكينة. . . ! مالذي سيبقى من روائعك وجمالك حين تهدم القرى الخضراء وتقطع أشجار البساتين الحلوة. . . !؟ هذا الفعل الوحشي يجرح شعوري في أكثر نقاط هذا الشعور حساسية، حتى أنه يخيل لي وكأن الأملاك المعتدى عليها هي لي أنا. . . . ! إني أحب هذه البلاد منذ أن اكتشفت روحها.

٢٣ كانون الأول ١٩٢٥

أثناء زيارتي للصالحية في الساعة الرابعة مساء سمعت طلقات نارية عديدة اتية من البساتين على مايبدو وقد حدثت مشكلة مشوقة اليوم في سوق الحميدية فلقد فوجيء ثلاثون ثائراً في المدينة، وهم يرتدون لباس الجنود الفرنسيين ولقد كان لكثير منهم من الجرأة ماجعلهم يدخلون باحة إحدى الثكنات ووقعت اشتباكات، وكاد جنودنا أن يقضوا عليهم لولا أن تدخل الدمشقيون لتخليصهم «بطرق ذكية» وهذا ماجعل أحد الرقباء يطلق النار وقد شاهد أحد أصدقاءنا رجلين من هؤلاء الثوار يُضربان بأخماص البنادق وكان الثوار يقصدون طريق معمل التبغ «أو» «مستودع التبغ» كما يبدو. (١)

٣ كانون الثاني ١٩٢٦

قال لي السيد «N.......» بأن الشركس الذين يسكنون في القنيطرة والمتحزبين لنا قد تلقوا إرشاداً من أحد زعمائهم في عمان، يقضي لهم بألا يتقاتلوا أبداً مع المسلمين.

٧ كانون الثاني ١٩٢٦

سألت أصدقائي المسلمين عن الحالة هذه الأيام، فقالوا لي بأن الثوار ليسوا مستعدين لإلقاء السلام. وأنهم يعترفون بالنية الحسنة التي يمتاز بها السيد «دو جوفينيل» ولكنهم يأخذون عليه بأنه قد تصرف بقلة دراية، وقد اعتبروا العرض الذي قدمه للدروز باحلال السلام في المنطقة مقابل تسليم أسلحتهم ليس سوى خدعة حربية، كما أن أسلوبه الأخرق باعطاء حق الإنتخابات للمدن الصغيرة في الوقت الذي فرض فيه الحجر على مدينة دمشق أم البلاد. (٢)

---

(١)- وردت الجملة بالفرنسية: «PASSER ATABAC»

(٢)- «Oumm el balad , (lamere des pays)»

قد بدا وكأنه خدعة سمجة وسخيفة أو عقاب فرضه معلم مدرسة ريفية وإن الثقة تنقص أبناء الشعب، كما أن الرأي العام بحالة غليان الآن.

١٠ كانون الثاني ١٩٢٦

وصلني عدد من صحيفة المقطم «MOK KATTAM» القاهرية التي تباع تحت المعطف «soun le MANTEAU» بسعر مجيدية واحدة لكل عدد وتعطي الصحيفة قائمة بأسماء الجنود الفرنسيين الذين قتلوا في الجبل مع أرقام هوياتهم المعدنية الميدانية كدليل على صحة الخبر.

١٣ كانون الثاني ١٩٢٦

دمر الثوار الخط الحديدي الذي يصل بيروت بدمشق وذلك بين قريتي جديدة والأشرفية ولم يكن هذا العطل ظاهراً أبداً مماجعل أحد المقطورات تخرج عن الخط الحديدي. ولم ينتظر الثوار أكثر من ذلك، إذ ذهبوا فوراً ليطبقوا الخطة نفسها في الخلف مع قطار مصفح جاء لنجدة الأول، ونجحت الخطة وخرج القطار الثاني عن الخط أيضاً وتدهور وكالعادة فقد قامت السلطة بحرق قريتي الأشرفية والجديدة للثأر من الثوار، وقد نزح أهل القريتين، ووصل بعضهم إلى دمشق نصف عراة والآن تدور في تلك المنطقة معركة حامية الوطيس بين القوات العسكرية وعصابات الثوار وقد بدأ الاعتقاد يسود بأن خط حديد دمشق بيروت لم يعد مضموناً أبداً بعد هذه الحادثة المرعبة، وهذا مايجعل المدينة بحالة حصار كامل فعلي، وخوفاً من هذا الحصار فقد بدأ الناس بجمع الطحين وتخزينه للمؤونة، وعندما كان بعض الثوار يعطلون خط بيروت دمشق الحديدي كان الآخرون يقطعون الخط الحديدي الواصل بين رياق وحلب.

١٤ كانون الثاني ١٩٢٦

اليوم يحتفل بالسنة الأورثوذوكسية الجديدة وقد حضرت الاحتفال الذي أقيم في الكنيسة الأورثوذوكسية اليونانية، خطب الأسقف «أبيفانيوس» وكان القداس عظيماً، والمدارج مليئة بالنساء اللواتي كن يتكلمن بصوت عال. وعند الباب اندفع الشماس بحماس يرافقني في الردهة ويقدم لي كرسياً كي أجلس عليه. وأثناء مروري كان الناس يقولون

فرنساوية . . . . . . فرنساوية . ! «FRANZAOUIYE» وهذا ما أحزنني لأني استنتجت منه بأن الفرنسيين لم يعتادوا دخول هذه الأمكنة هنا ، ولهذا كنت غريبة وأن الفرنسيين ينظرون إلى هؤلاء بأنهم أعداء رغم أنهم مسيحيون مثلنا . وبعد ذلك وصل عدد محدود من الرجال الرسميين كان أثنان منهم باللباس الكاكي . ومشى الأسقف بملابسه التي تشبه ملابس العرائس في العصور السحيقة الماضية وتشبه عيونه عيون المغول . وقد ذكرني مظهره بمظهر «فرا آنجيليكو» وكانت هناك امرأة فرنسية هي الوحيدة غيري التي حضرت هذا القداس ، وكانت تشاهد مايحدث بتكبر وعجرفة ، وكأنها أحد أعمدة القاعة ، ولما رأت الأيدي تمتد للحصول على الخبز المقدس هزت كتفيها واستدارت نحوي وقالت بلهجة ازدراء : انظري . . . ! انظري إليهم . . . ! يعتقد من يراهم بأنهم لم يألكوا شيئاً منذ ثمانية أيام . . . . ! وكانت تجلس بقربي إحدى البدويات مع طفلتها التي ظلت تنظر إلي وتتأملني بانتباه شديد وثم مرت بيدها الصغيرة على وجهي برفق وكأن غريزتها قد دفعتها إلى ذلك . وقدموا لي بهذه المناسبة حبوب السكاكر ولاحظت بينهم وجهاً جميلاً يافعاً عرفت فيه وجه صديقنا السيد «توفيق شامية» (١) الذي عاد بالسلامة من السجن والنفي .

١٥ كانون الثاني ١٩٢٦

قام أحد أصدقائنا للمرة الأولى منذ ثلاثة أشهر بمجازفة تعريض نفسه للخطر وذلك بالخروج بدراجته إلى مسافة تبعد سبعة كيلو مترات عن مدينة دمشق وقد تنبأنا له برصاصة تخرق رأسه ، لكنه عاد سالماً معافى بعد أن رأى في جولته (حسب قوله) واحة الربوة التي كانت واحتي المفضلة للتنزه منذ ستة أشهر ، وقد أصبحت الآن صحراء قاحلة ورأى هذا الخراب على طول الطريق ولم ير أي شخص أو منزل مفتوح طوال الطريق ولم يرى في دمر جنة عدن الصغيرة بالنسبة لنا «DOUMMAR NOTRE PETITE ADEN» إلا علماً وحيداً يرفرف بحزن وحارس حقول لم يبق عنده مايحرسه فسكن لوحده في القرية ومن المحتمل أن يكون قد انخرط في إحدى عصابات الثوار . . . ! وعلى طول الطريق كنت تسير أرتال محزنة من النساء والأطفال تتوجه من القرى التي تم إحراقها إلى دمشق التي أصبحت مكتظة بالسكان . وأعطوني تفصيلات جديدة عن اصطدام مسلح حصل يوم أمس : فلقد قامت عصابة الثوار باقتلاع قسم من خطوط السكة الحديدية ونقلته على ظهور الجمال إلى

(١)- هو حالياً وزير الأشغال العامة في الحكومة المؤقتة في دمشق) وهذا تعليق المؤلفة في العام ١٩٢٦ .

الجبل، وذلك منعاً من الإستفادة منه. هذا ماسبب خروج القطار عن الخط وسقوطه في الوادي المجاور للسكة. وقام القرويين بنهبه، وتزودوا من البرتقال وصفائح البترول ويكون ذلك مؤونة لهم. وكانت البيانات الموجودة في المحطة حول المقياس الكيلو متري للسكة الآمنة، يعطي معلومات خاطئة ولذا سارت القاطرات المصفحة بدون أن تصطحب معها صفائح حماية وأمان وهذا ماجعل القضية عويصة تماماً وكان أحد الميكانيكيين المرافقين للقطار سورياً. ولذا اقتاده الثوار إلى القرية، أما الثاني فقط سقط تحت القاطرة ولكنه تخلص من هذا المطب أثناء الليل وكان يحمل جراحاً خطيرة في ساقه وقد تحامل على نفسه وابتدأ المسير تجاه قرية جديدة دون أن يظن بأنه سيسقط في أيدي الثوار لكنه وقع. وقد أراد رئيس العصابة وكان يعرف الفرنسية صدفة أن يقتله ولكن زميله السوري أكد للرئيس بأن الجريح من المدينيين وأنه إيطالي لافرنسي فأخذ الثوار برأيه وقيدوه بعد أن هددوه بأنهم سيقتلونه إذا ظهرت إحدى الطائرات أو الوحدات العسكرية ولكن الثوار لم يحرسوه جيداً، ولذا تمكن من فك قيوده والهروب. وظل يسير حوالي ثمانية كيلومترات مشياً على قدمه المجروحة، حتى وصل إلى دمشق وهو الآن طريح الفراش يتأثر من قدمه في رمشفى(سانت لويس) «Ssint- Louis»

١٦ كانون الثاني ١٩٢٦

مازالت قصص الانتخابات تقلق الأفكار، وقد عملنا أنه حدث في حلب في يوم الاقتراع نفسه، أن تم احتلال القلعة من قبل الثوار، وذلك لتخليص رفاقهم الكثيرين السجناء في القلعة. وقد قاد هذه الحركة «ابراهيم بيك هنانو» ورفض الناخبون في حمص وحماة بصورة جماعية أن يدلوا بأصواتهم، وحدث نفس الشيء في طرابلس وبعلبك، وإن أغلبية أهالي «لبنان الصغير» قد خرجوا على حركة الوحدة اللبنانية، ويريدون الانضمام الى سوريا.

ويسود التفكك والاضطراب كل البلاد حالياً، كما أن الاستياء يتزايد يوماً بعد يوم، وقد وصلت «مضابط» "MAZBATAS" احتجاج الى المسكين دو جوفينيل الذي لم يدر ماذا سيصنع بها، ويقول بعض الناس عنه بأنه رأى في هذه البلاد مايكفيه، ولذا قرر أن يرحل بعد تقديم استقالته، وبينما يقول آخرون بأنه سيعود ومعه جيش ضخم، وتنبأ البقية بأن الانتداب على سورية سيصبح دولياً وبما أن كل ذلك يدعو للضحك الشديد والسخرية، ولذا فإن

الصحف الفكاهية هنا مثل جريدة «حط بالخرج»(1) تصور المشكلة السورية على شكل حمار يرتدي البنطال والقميص الأوروبيين ويقف على قائمتيه الخلفيتين، ويريد أن يأكل كعلف له ثلاثة أطفال خائفين، هم جبل الدورز وحلب ودمشق، تحملهم أمهم سوريا بين ذراعيها، بينما وقف الثائر يهدد الحمار بضربه بالنبوت(2) وهذه النكات الظريفة المسلية الساذجة تمتع الشعب السوري كما هي شخصية غيفنول في فرنسا.

١٧ كانون الثاني ١٩٢٦

فرنسيوا هذه المدينة يبدون مغتاظين من كل هذه الأحداث التي لم يسببها السوريون أصلاً، حتى أن القليلي الذكاء من هؤلاء الفرنسيين، وهم عدد كبير، يظهرون في كل مناسبة وأحيان بدون مناسبة استياءهم الواضح. فهذا اليوم، وفي «السرايا» "AU seraï" أحدث مهندس سيء الخلق، ذو شاربين طويلين فضيحة كانت محط أسف عامة، فلقد أتى يسأل عن زميله السيد «....W» ولم يتمكن الحاجب السوري من فهم مايريد هذا المهندس، فسأله الأخير ثائراً:

- هل أنت فرنسي؟ .. أجب بنعم أو لا!

فقال الحاجب: - لا.

قال المهندس: - إذن أنت سوري..!؟

ولما رد عليه بالايجاب، دفعه مهندسنا بوحشية وقال له:

- ابتعد عن طريقي...! إنك واحد من هؤلاء السوريين الـ (....)(3)

وتابع مهندسنا صياحه، وكأنه اصيب بمس أو أذي وقال أحد الحاضرين متدخلاً وهو يهز كتفيه:

«هذا الشخص غير حذر أبداً، في هذه الأيام التي ينطلق فيها رصاص البنادق من تلقاء نفسه...»

---

(1)- وردت: "HOTTE BEL KHORGE"

وشرحتها المؤلفة "mettez câ dans le sac" ومعناها «ضع هذا في الكيس»

(2) وردت بالعربية "NABOUT" وهي عصا صغيرة من النبات وشرحتها المؤلفة بأنها مطرقة "MATRAQUE'

(3)- وردت العبارة الفرنسية: "un de la sales syriens" ولانريد ترجمتها

١٨- ١٩- ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٦

في هذه الأيام سمع قصف شديد وطلقات بنادق عديدة، بالرغم من تساقط المطر الغزير الذي لم يستطع تبريد حدة المتحاربين، وتم ايقاف قطار بيروت منذ يومين، وبدأ البريد يصل الينا عن طريق درعا.

وقد غمرنا الجنرال «اندريا» "ANDRÊA" [١] بوعود لاطائل منها، وأثنى على الدمشقيين لسلوكهم الحسن، ومدد ساعات السماح بالتجول حتى الساعة التاسعة مساءً، وهذا يدل على طيبة أصيلة فيه.

٢١ كانون الثاني ١٩٢٦

في العيد السنوي لموت لويس السادس عشر، حدثت في دمشق ظاهرة جوية مدهشة اليوم، إذ سقطت أمطار أنزلت معها نجوماً فوق دمشق.

فقد منح أحد المسؤولين وسام «جوقة الشرف» ومنح آخر يهتم بالفنون الزخرفية وسام «الصليب الحربي» لأنه كمهندس قاد عملية تهديم بيوت حي الشاغور الملتهبة. وقد منح أحد البياطرة نفس الوسام لأنه بذل عنايته التامة بأبقار الدولة وحمير الجمهورية [٢] واستفاد من حركة الترفيعات مدير الشرطة الغني عن التعريف، والذي يعرفه الدمشقيين تماماً، إذ يحمل سوطه ومسدسه، وكذلك زوجة أحد كبار المسؤولين المدينيين في دمشق لأنها أظهرت شجاعة فائقة في فترة الاضطرابات، ببقائها الى جانب زوجها وأطفالها الأربعة الصغار، كما ذكر في براءة الوسام نفسه، ومع هذا فإن طياري تدمر الذين كافحوا، حتى آخر قطرة، لم ينالوا وسام الصليب الحربي..! وكذلك الكوماندان «اوجاك» الذي قال وهو يلفظ آخر نفس في حياته: «لقد نلت حسابي على أتم مايرام، فاذهبوا لتخليص جنودي...!» لم يذكر اسمه حتى في سجل أوامر الثناء اليومية للجيش. ويبدو أن أمطار النجوم قد اقتصرت على الأراضي المجاورة لدار المندوبية فقط. ولطالما أعطي الصليب الحربي الى زوجة مسؤول كبير لأنها لم تترك زوجها، فإن المنطق يقضي إذا لم نقل العدالة تقضي، بإعطاء الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن في دمشق «وسام جوقة الشرف» لأنهن سمحن لأزواجهن بمغادرتهن الى الأبد»

---

(١)- الجنرال اندريا هو القائد العسكري الجديد لدمشق.

(٢)- نلاحظ سخرية المؤلفة من حركة الترفيعات التي أجريت في الجيش.

٢٢ كانون الثاني ١٩٢٦

حمل لي أصدقاء مسلمين عدد من صحيفة «الغد الجديد» «EL ADH EL DJEDID» العربية، فاطلعت على مقدار الاضطراب الذي تسببه في البلاد كل هذه المجموعات من الافكار الانفصالية والوحدوية، وتحوي هذه الصحيفة احتجاجات كل النقابات المهنية في صيدا مذيلة بتوقيعي القاضي والمفتي، ومرفوعة الى رئيس دولة «لبنان الكبير» مع طلب لانضمام هذه المدينة إلى سوريا، وقد قدم الطرابلسيون الطلب نفسه كذلك. وهذه هي أهم المشاكل الحالية اليوم، فلبنان يريد الاحتفاظ بالأقاليم التي منحه اياها الجنرال «غورو» لأنه بحاجة اليها ليعيش ويتاجر. ويقال ان البطاركة قد أثروا على المفوض السامي بهذا الخصوص، ومن جهة أخرى نجد هذه الأقاليم التي ضمت الى لبنان تشتكي من أنها مثقلة بالضرائب أكثر من مقاطعات لبنان الأصلي، وإن البلاد بحالة فوران كبير بسبب هذه العوامل.

٢٤ كانون الثاني ١٩٢٦

عندما عدت الى البيت هذا اليوم، قامت امرأة ريفية ذات نظرات جميلة عذبة للغاية، وهيئة تدل على الطيبة والبساطة، وبالتعلق بعنقي وبتقبيلي بكل احترام كما يقبل الخبز، وهذا الشعور المعبر، هو أحد أركان الشخصية عند هؤلاء الناس الطيبين، وتبدو هذه المرأة، إذا ماقارناها بالفتيات المعاصرات، مثلاً للسيدة النبيلة بردائها المخملي الطويل، وغطاء رأسها البني المنقوش بأزهار كبيرة تميل الى الحمرة، وهذا لباس سيدات يبرود المسيحيات عموماً وقدجاءت هذه السيدة لرؤية ابنتها، بعد أن قلقت عليها، فأمضت يومين حتى قطعت المسافة البعيدة بين يبرود ودمشق، رغم أن هذه المسافة قصيرة تماماً في الأحوال العادية، وكان قدومها ضمن قافلة تضم عشرين من الفلاحين، ومعهم ثلاث بنادق، وقد جلبوا معهم عربات مليئة بالبطاطا المشهورة في بلدهم وأعلمتنا هذه السيدة بأن حسن الخراط ليس ميتاً وبأنه ليس عنده النية في أن يموت أبداً، وقد شكل مع رجاله حكومة مؤقتة ثم قلبت المرأة طرف وشاحها بحركة لايتقنها إلا أهالي هذا البلد، وأردفت قائلة: «لكن أهالي بلدتي لم يقبلوا بهذه الحكومة» حتى أن الثوار لم يتمكنوا من تناول طعامهم في البيوت، واكتفوا بفرض بعض الاتاوات على القرى، وهي عدد محدد من الليرات الذهبية مقسمة بالانصاف على المواطنين حسب ثروة كل منهم ومنذ أن ذهب الفرنسيون من هذه المنطقة تناوبت مجموعات الثوار على

حمايتها ابتداءً من يبرود وانتهاء بمعلولا وأضافت السيدة تقول بأن السكر والأرز الذي تحمله شهد بأنه من أجل استهلاكها الشخصي هي وعائلتها فقط، وأن الإذن بنقله مختوم من الحكومة العربية آه. . . لو يعلم مدير الشرطة بذلك. . ! إذن يوجد للثوار قنصلاً في المدينة يعرفه كل من لهم مصلحة بمراجعته. . . . ! هذا أمر مثير حقاً.

وعند وصول المرأة كانت هادئة جداً، ويلاحظ محدثها بأنها قادمة من عالم عجيب لازال الناس فيه يتمكنون من النوم ليلاً والتجول نهاراً. . . ولم تكن لتخاف في الطريق، وكانت تجد مطالب «ملك البلاد» طبيعية تماماً، ولكنها منذ أن استنشقت هواء دمشق تسممت، كأية واحدة من سكان الصالحية، فلقد أثرت فيها الشائعات وأخذت تتطلع بعين القلق الى أكياس السكر والأرز التي أحضرتها، وكأنها تخاف من معاودة السفر، وهكذا زاد عدد ضحايا قلق الأعصاب. . . هذا المرض الجماعي الذي يعاني منه أهالي هذه المنطقة.

وهذه الأيام يهتم السيد دو جو ڤينيل بشكل فعال بقضايا التعليم في سوريا، ولقد نظم نوعاً من الجمعيات يشترك فيها ممثلون عن كافة الطوائف، ومندوبون عن المعلمين، بل حتى مندوبون عن التلاميذ أنفسهم. وأظن أنه بعمله هذا قد وضع العديد من الشياطين في قفص واحد،

٢٥ كانون الثاني ١٩٢٦

أخبرتنا صديقة قادمة من بيروت بأشياء جديدة، وحكت انطباعاتها عن رحلتها بالقطار، فقد كان القطار مزدحماً جداً، وكان يظهر على الركاب الذين يشاركونها مقصورتها سوء النية تجاهها كأوروبية وخاصة بعد أن رأوها تقرأ الصحف الفرنسية، وهذا ما استغربته تماماً، لأنه كان قد مضى عليها مدة طويلة في سوريا، وقد سألوها فيما إذا كانت تعرف العربية ولما علموا بأنها تفهم لغتهم طلبوا أن تذهب الى مقصورة أخرى هذا التصرف نادر الحدوث تماماً في هذه البلاد المعروفة بالكرم والضيافة، لدرجة أنه لم تصدق أذنيها ماتسمعه. لاحظت أيضاً أن رجال الشرطة يخشون الاصطدام مع المواطنين ولايريدون احداث أي خصام معهم. وقد صعدت على سبيل المثال سيدة مسلمة في بيروت، واستقرت في احدى قاطرات الدرجة الثانية، ولم تقبل أن تدفع القيمة أو تبديل القاطرة أو حتى النزول. وفي مثل هذه الحالة يتم عادة انزال الشخص بسرعة ودون تردد، ولكن الذي حدث هو أن استدعى المراقب رجال الشرطة، فاضطروا هؤلاء لتركها في مقعدها لما لاحظوا وقوف جميع الركاب الى جانبها

ومساندتهم لها، وأخيراً صار جميع الركاب يضحكون .

أما صديقتنا فقد أظهرت شفقتها على جنودنا المساكين إذ كانوا ينتشرون على طول الخط الحديدي من بيروت الى دمشق لكي يحرسوا المحطات وكانوا يسكنون في الخيام الموزعة بين مجاري الماء البارد ويرتجفون برداً في هذا الجو الماطر الرطب. وخاصة في منطقة «عين صوفر» حيث يعم البرد الشديد وخيم الضباب الكثيف في بلد معاد لهم. فيصبحون تحت رحمة رصاصة تطلق من الثوار لقد كان هناك حقاً مفارز من جنود «السباهي» تتجول مع خيولها وبغالها على الطريق في كل مكان، ولكن الخط الحديدي كان محروساً من قبل الفرنسيين فقط .

٢٦ كانون الثاني ١٩٢٦

أعلمت الحكومة الفلاحين الذي لجأوا الى البطرياركيات بأنهم يستطيعون الآن الرجوع أراضيهم وزراعتها بأمان. وإن عودة هؤلاء الى حقولهم كانت تفرحهم وتقلقهم في الوقت نفسه، لأن المسؤولين لم يمدوهم بقوة عسكرية ترافقهم في الطريق، وظل هؤلاء قلقين على مستقبلهم: فكيف سيعيشون؟ ومن أين سيؤمنوا أقواتهم إذا وصلوا الى قراهم المخربة بدون دوابهم التي فقدوها في القصف والحوادث. . . ؟ وتم قطع الخط الحديدي الواصل بين دمشق وحلب قرب قرية القصير، ونزعت هناك العوارض الحديدية تماماً، على مسافة تقارب المئة متر. وفي البقاع اللبناني تجول حالياً قوة ضاربة من الثوار وقد سُيرت قوة عسكرية لمقاتلتهم، ويقال أن القطار سوف لن يعاود سيره قبل مرور ثلاثة أيام .

وهذا المساء شاهدت مشهداً غريباً في ساحة المرجة، فقد كان يمر في الشارع ضابط كبير ذو هيئة متعجرفة، وكان كل شيء فيه ينطق بالترفع، ولكن لما وصل متطوعان أرمنيان شابان مدرعان بصفوف الطلقات النارية ومثقلان بالأسلحة، نزل الضابط من الرصيف ثم وقف بهدوء وتغيرت تعابير وجهه القاسية فوراً، حتى أنه بهيئته الجديدة يخاله المرء يتملق أمام سيدات راقيات في أحد المجتمعات. وإن كل مافعله وقاله لهذين المتطوعين يعبر عن الود، حتى أنهما ذهبا مسحورين من هذا اللقاء الظريف والابتسامة تعلو وجهيهما، وعندما صعد الى الرصيف من جديد، عاد الى أخذ وضعيته السابقة، والتي يفرضها على بقية أبناء البشر .

٢٧ كانون الثاني ١٩٢٦

فتح طريق بيروت من جديد، وعادت بعض السيارات تسافر على الطريق العادي، إذ لم يعد يطلق النار عليها الآن، بل يكتفى بإيقافها فقط، ولايسمح الثوار إلا للسوريين فقط بالمرور من هناك وفي بعض الأحيان يجري تعرية الأجانب من ملابسهم واطلاق سراحهم، فيكون في ذلك خزي لهم وفي أحد الأيام، أمر الثوار عدداً من الأجانب بخلع ملابسهم، فقام رجل انكليزي، وكان أول من خلع، بأخذ ملابسه خلسة، ثم ارتداها بسرعة وبتسري واستطاع أن يهرب حين كان الثوار مشغولين بغيره. . . ! وقد أرسل تعميم حكومي الى مكاتبها، يخاطب الموظفين السوريين، وينذرهم بأن النقد الذي يوجهونه للسلطات، وعدم استلطافهم لحكم الانتداب، أصبحا أمرين معروفين علناً، لدرجة يصبح معها من المفضل أن يلتحقوا بالثوار ويخدمون جيشهم بدلاً من خدمة الحكومة، وقبض رواتبهم من الثوار مرة واحدة، وهذا الاقتراح سخيف وساذج ولكنه يوحي بالكثير الذي لاداعي لقوله هنا. . . ! قال لنا السيد «A....M» بأنه بات مقتنعاً بأن كثيراً من رفاقه سيقومون بحمل السلاح مع جيش الثوار في الليل بين وقت وآخر

٢٨ كانون الثاني ١٩٢٦

روت لنا الصديقة «S....   » وهي معلمة، فقالت أنها لما كانت في سوق الصاغة تشتري بعض الأشياء، قرب المسجد الأموي، كادت احدى الرصاصات العشوائية التي لم يعرف مصدرها أن تخترق رأسها، إذ أحست بها وهي تمس خدها. . . ! وعلى هذا يكون الثوار قد تسللوا الى السوق. . . !

٢٩ كانون الثاني ١٩٢٦

يسود حي باب توما الذي أسكن بالقرب منه قلق عظيم اليوم، إذ قام الثوار باختطاف صهر رئيس البلدية، وهم يطالبون بفدية كبيرة للإفراج عنه. . . ! ومنذ عشرة أيام، تحدث معارك عنيفة تسمع فيها أصوات القذائف المدفعية الثقيلة، وأنا بفضل اعتيادي وضجري، لم أعد أحسب عدد الطلقات والقذائف، لأن ذلك يوجب علي حمل الساعة في معصمي على الدوام. . . ! وحتى الآن مازالت دمشق مطوقة ومحاصرة من قبل الثوار وقد بقي فلاحو

«وادي العجم» "OUADDI AJAM" في البطرياركيات مع كهنتهم، ويبلغ عددهم حوالي أربعمئة عائلة حشرت على بعضها في المدرسة الاورثوذوكسية القديمة التي لم تكن تتسع سابقاً لأكثر من مئة وخمسين شخصاً، وباستطاعة المرء أن يراهم مكتظين في الباحات الرطبة العفنة، وهم يجلسون القرفصاء وينفضون ملابسهم المليئة بالقمل، فوق موقد قد حفر في الأرض خصيصاً، وتشتعل فيه الأغصان. وكان النساء يقمن بما وسعهن لكي يبقين نظيفات بالرغم من البؤس الذي يعشن فيه وكان علامة الرفاه الوحيدة عندهن أغطيتهن البيضاء التي يغسلنها على الدوام، وكانت اغطية الشابات منهن مزركشة مزينة برسومات، أما أرديتهن المخملية السوداء، وملابسهن المبهرجة المزينة بالذهب فقد برش لونها الآن واخضر بسبب التغيرات الجوية من جهة، وظروف جديدة من ناحية أخرى، فهن الآن ينمن بكامل ملابسهن منذ عدة شهور، والأقل فقراً من هؤلاء استأجرن في المدينة غرفة، وأخذن يحاولن ايجاد عمل لهن: كمدبرات بيوت وماشابه ذلك... ! وهناك استاذ مدرسة أخذ يعمل بتكسير الاحجار على الطريق. يجب أن يعيشوا فهم لم يقرأوا فلسفة «شوبنهاور» بعد وكلهم الآن مضطربون: فالمطر يهطل دون أن يستفيدوا منه، ووقت البذر والحرث قد حان، وقد توارثوا عن أجدادهم علمية البذار في مثل هذا الوقت، ولايمكنهم أن ينقطعوا عن أدائه الأن.. وهذا يشبه محاولتنا لمنع السنونو من الهجرة في الربيع ولذا فهم يرسلون كل يوم ممثلين عنهم برئاسة بعض القساوسة، لكي يقابلوا البطريارك، ويقولون له: «ليس لنا من سيد غيرك.....! نرجوك أن تكلم الحكومة بشأننا كي تعيدنا الى أراضينا»

ويتحمل البطريارك العجوز عبئهم الثقيل هذا، لأن الحكومة تسد آذانها عن سماع شكاواه، فهو يطعمهم مما يرسله المهاجرون في أميريكا ومن التبرعات، ولكن كل شيء قد نفذ الآن. وإن الأوقاف (١) والتي يوجد أكثرها في سوق الطويلة قد تهدمت بعد القصف بالقنابل، وهناك اشعاعات تقول بأنه سيتم اغلاق المدارس وروى بعض العارفين أن الأباء الفرنسيين أيضاً قد اضطروا للإقتراض من المصارف كي يواجهوا هذه الحالة المحزنة.

٣٠ كانون الثاني ١٩٢٦

عادت حفلات الزمر والضجيج تسمع هذا المساء بدءاً من الساعة الثامنة، واستمر ذلك في جميع أنحاء المدينة تقريباً، حتى نفذت الطلقات النارية. وقد احتل الثوار البقاع وهم الآن

(١) وردت بالعربية: "WAKAF" وعلقت المؤلفة عليها في أسفل الصحفة بأنها الهبات الدينية.

يهددون زحلة وعلى هذا فإن الدمشقيون الذي لجأوا الى هذه المدينة لم يعودوا يعرفون أين يتوجهوا من جديد. . . !وفي هذه اللحظات أسمع تظاهرات صاخبة من قبل أنصار القنابل، وجواب أعداء القنابل على ذلك. ويمكن أن يكون هذا تعبيراً عن غضب حسن الخراط لأن حياة ابنه مهددة بالإعدام، وإن الخراط يعرف كل صغيرة وكبيرة تحدث في المدينة، وإن عدداً من الشبان الذي ذهبوا خصيصاً لحضور المحاكمة التي جرت البارحة في السرايا، قالوا لي بأنه قد حكم على أربعة متهمين بالاعدام وهم من مجموع اثني عشر متهماً، وأن بين المحكومين بالإعدام ابن حسن الخراط الذي استمرت محاكمته عشر دقائق فقط، وأن التهمة التي وجهت إليه هي: حمل السلاح ضد الدولة وقام ستة من المحامين بالدفاع عنه وقالوا بعدم وجود النية الجرمية عنده، وأنه لم يقترف أية جريمة سوى كونه ابن حسن الخراط. ! وعادت الاشاعات تتردد باحتمال قيام الثوار بهجوم مفاجيء على دمشق، وقد ذهب أحد الوجهاء الذين أقلقهم هذا الكلام لمقابلة قائد الموقع العسكري، وكي يحصل منه على تأكيدات بالدفاع عن المدينة. فأجابه هذا المسؤول مطمئناً:

«لدينا قنابل تكفي لهدم دمشق ثلاث مرات»

لعمري إن هذا القول يطمئن كثيراً بمقدار مايقلق! ويجري الحوار الآن بين بعض سكان الشارع المستقيم في قضية شنق ابن حسن الخراط، ويتمنى الجميع بصدور العفو عنه خوفاً من نتائج غضب أبيه، وهناك خوف كبيرا أيضاً من أن يقوم الثوار بأعمال انتقامية جماعية أو فردية.

٣١ كانون الثاني ١٩٢٦

عرفت اليوم عن طريق الرسائل التي وصلتني من فرنسا بأن كثيراً من رسائلي التي أرسلتها يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٥، سواء الى الصحف المختلفة الاتجاهات أو الى الشخصيات السياسية التي اعتقدت بأنه من المفيد أن أعلمها بحقيقة مايجري في دمشق، قد وصلت كلها متأخرة، وبأن بعضها لم يصل مطلقاً.

وإن أهم هذه الرسائل قد وصلت الى صاحبها بتاريخ ١٣ كانون الأول ١٩٢٥ أي قبل ستة أيام فقط من اجتماع جلسة ١٨ كانون الأول الشهيرة في البرلمان الفرنسي، التي تجرأ بها رجال شجعان على محاولة تنوير الرأي العام الفرنسي بخصوص أحداث دمشق. آه. . . . . !

مغارة الأشرفية حيث مستودع الثوار وسجنهم

كم يبدو لي «لويس ماران» "LOUIS MARAIN" على حق بأن يقول في العدد الصادر بتاريخ ١٩ كانون الأول من جريدته الرسمية «لوفيسييل» "L´OFFICIEL" الذي أقرأ الآن به: «نحن علينا واجب البحث عن الحقيقة التي أخفوها عنا.

وهنا تدخل الحرب مرحلة جديدة، وهذا مايثبت بشكل قاطع خطأ السياسة القعمية التي طالما بالغوا في إطرائها. إذ لا توجد أعمال حسنة تنفذ بواسطة العنف في أي مكان من العالم، وإن الدرس الذي لقناه لدمشق لم يعط أية فائدة، كما أن أساليب الضغط قد ثبت افلاسها تماماً، لأنها قلبت أزمة التمرد الى حركة ثورية فعلية، لا يمكن القضاء عليها بواسطة عمليات عسكرية صغيرة ولا كبيرة، ويمكننا أن نضيف الى ذلك هذا السؤال لماذا جئنا أصلاً الى هنا وحملنا معنا هؤلاء الجنود...؟

لقد بدأت اعتقد بأنه كان من الممكن لنفوذنا في سوريا أن يكون أكثر قوة لو لم نمارس مهام الانتداب عليها...!

وكان لصحافتنا، في الحقيقة، تأثير كبير في تشويش العلاقة بيننا وبين السوريين، وكم

يتألم الناس هنا من لهجة السخرية والتعالي التي يتكلم بها بعض المحررين المتجولين بخصوص الأحداث والناس في سوريا! وبعد الآلام التي عاناها هذا الشعب بسبب أخطاؤنا السياسية، يلمس الآن عندنا نقصاً في الذوق يقترب من حد التوحش، وغلاظة فكرية وعدم تفهم لايمكن الصفح عنهما في هذا المجال، وإن كافة السوريين سواء في المهجر أو هنا في وطنهم يشعرون بهذا كله بحدة. هذا المساء ينشغل الجميع بحديث واحد، هو عمليات الاختطاف، حتى أن صحيفة «لوريان» تحدثت عن اختطاف ثلاثة عشر شاباً من أحد المقاهي في مدينة دمشق، كما أنه جرى اختطاف رجلين آخرين من احدى حافلات الترام، بعد أن أطلق النار بغزارة على هذه الحافلة، وتعطيلها. وفي حي باب توما، قامت احدى العصابات بالسطو على بيت أحد الكتاب بالعدل، حيث خلعوا باب منزله، ودخلوا بيته، وطلبوا مفتاح الخزنة، وأخذوه عنوه من صاحب البيت، وفتحوا الصندوق واستولوا على مئتي ليرة بمثابة ضريبة حربية، وطلبوا خمسمائة ليرة أخرى من الوجيه «ملوك» "MALOUK" لكن هذا هرب الى مصر حاملاً معه أمواله. وكان الثوار يطلقون النار من بعض المنازل بغية ازعاج رجل الشرطة الذين كانوا يردون عليها بعاصفة مدوية من الطلقات والقنابل، لكن بلا جدوى. . .! وقال لي صديقي السيد "....S" بأنه رأى بعض الثوار يدخلون ساحة المرجة وكان من السهل عليهم أن يتجولوا في المدينة آمنين دون أن يُعرفوا، رغم أنهم كانوا يحملون بنادقهم، وذلك لأن مظهرهم كان يشبه مظهر المتطوعين الأرمن، وكان عند هؤلاء الثوار من الجرأة ما جعلهم يطلقون النار على عربة عسكرية كانت تمر هناك ولما خرج الموظفون والجنود الفرنسيون من أحد المطاعم ليشاهدوا مايجري، هرب الثوار دون أن يقتلوا أحداً. إن أكثر من سبعة الاف دمشقي قد غادروا المدينة، وهذا مايشكل هجرة جديدة، ولذلك يجب أن يعتبر عام ١٩٢٥ كبداية للتقويم الهجري الجديد الذي يسجل على صفحات التقاويم الاسلامية. . ! وقد نصحني بعض الناس بأن أرحل أنا أيضاً لأن بيتي قريب من الأمكنة الخطيرة التي يزورها في الليل «القرصان» وعرض البعض أن أرتدي «الملاية الشامية»[1] أو المنديل. لكني لم اخذ بأي من النصيحتين، لأن الثوار يعرفون كل شيء، وعلى هذا فهم يعرفون بلا شك بأني لست رأسمالية، وأن جيوبي: بعكس مانراه عند البقية هنا في سورية خالية أكثر من كونها مليئة، وبأني أحمل لمدينتهم الجريمة أعمق مشاعر الشفقة.

---

(١) وردت باللغة العربية كالتالي: "HABARAH" ولم أستطع معرفة هذه الكلمة العامية، وعلقت المؤلفة عليها بأسفل الصفحة بأنها: حجاب أسود للمسلمات "voile noir des muslmanes" أو المنديل»

١ شباط ١٩٢٦

بات من المؤكد الذي لايمكن لأحد أن يشك فيه بأن حسن الخراط "HASSAN KHARRATTE" قد عاد للحياة، وأنه «غاريبالدي» الشام، وأصبح أبناء دمشق يهتمون به وبمغامراته لدرجة كبيرة. . . ! فبعد أن خانه فلاح من إحدى القرى المجاورة لدمشق، جرح الخراط، في هجوم قامت به جماعته على حي الشاغور، وقيل وقتها بأنه قتل في ذلك الهجوم، وأثناء المدة التي اختفى بها قلت عمليات الهجوم على المدينة، لكن كان للثوار مستشفى لهم يديره الدكتور شهبندر بلا شك، ولكن أين يقع هذا المستشفى. . . !؟ لا أحد يعرف. . . !؟ وقد عولج الخراط في هذا المستشفى وشفي وعاود بعد ذلك قيادة جماعته، وعادت الأعمال المسلحة من جديد. . !

وهذا الوقت ليس مناسباً أبداً لكي ننتزع منه أبنه «ونعدمه» ومع هذا فقد قامت السلطة بذلك صباح اليوم، في ظروف تدعو الانسان للثورة الحقيقية، وأعيد مشهد الصيد الذي رأته دمشق كلها سابقاً في ساحة المرجة وأما أبطال المشهد الجديد فهم ثلاثة شبان بقيت جثثهم معلقة تتأرجح على حبال المشانق حتى ساعة متأخرة من نهار هذا اليوم. . . ! وذلك لكي يكونوا عبرة لغيرهم. وإن الاسلوب الذي ثبت فشله لاتزال السلطة تصر على اتباعه وهذا يدل على عدم تفهمها لهذا الشعب، بعد كل هذه المدة الزمنية. . . ! وقد وقف صف من الجنود أمام المتفرجين من السكان الوطنيين، الذين كانوا يحوون بينهم، ولاشك في ذلك، عدداً من الثوار، وذلك لكي لايتمكن هؤلاء من الاقتراب من المحكومين أما الأوروبيون والأوروبيات الذي كانوا يفرحون بالتقاط صور تذكارية للمشهد فقد سمح لهم بالمرور وعبور خط الفصل الذي صنعه الجنور. . . ! وقد بدا مظهر هؤلاء التعساء «المحكومين» مخيفاً حقاً: وكان وجه ابن الخراط مليئاً بالغضون، وهئيته تدل على أنه كان يتحمل آلاماً شديدة. . . ! وكان لسانه منتفخاً وأسوداً. وأما الآخران، فقد كان لهما وجهان ممتلئان نظران. . . !

وبدا هذا المشهد مفجعاً حتى بالنسبة لي أنا. . . ! أنا التي رأت الكثير الكثير من الأهوال في زمن الحرب العالمية. . . ! وكان أقرباء المحكومين يتألمون كثيراً، ويئنون في أحد أركان الساحة، أما البقية من الحضور فكانوا يشاهدون ذلك بهيئة تدل على السخط والاستسلام معاً. واحتجاجاً على ذلك فقد أغلقت المحلات أبوابها هذا المساء، لأن المحكومين حسب رأي الدمشقيين ليسوا مجرمين أصلاً وليس من سبب يدعو لمعاقبتهم. . . ! بل هم مواطنين انتقم الفرنسيون منهم بدون حق. . !

٢ شباط ١٩٢٦

كما كان يخاف المسيحيون، فقد حدث مايقلق تماماً: إذ ظهرت نتائج حادثة الشنق مباشرة، اليوم، ففي هذا الصباح أعلمنا الناس بأن جندياً فرنسياً يافعاً، اعتاد أن يمر كل يوم من الشارع المستقيم على دراجته، لأنه يعمل كساعي بريد عسكري على الأغلب، وقد هوجم اليوم في الحارة "HARAB" التي تقع تحت بيت صديقتي المعلمة "...Z" إذ قام رجلان يرتديان العمامة البيضاء[1] " بضربه على ساقه، ولما نزل الجندي عن دراجته، وأمسك بندقيته ليدافع عن نفسه، تلقى ضربة سكين في كتفه ورصاصة في صدره، فخطا عدة خطوات ثم سقط صريعاً. وقد هرب المعتديان، وهما غريبان عن الحي، وقالا قبل أن يتواريا بأنهما سيقتلان ثلاثة جنود بدلاً من السوريين الثلاثة الذين تم شنقهم يوم أمس . .

وقد وضع بعض التجار في السوق الطويل، الجندي في احدى العربات، حتى وصل رجال الشرطة وحملوه الى المستشفى. وأنا شخصياً سأتقدم بشكوى نيابة عن ذلك الجندي المجهول الذي يسقط في جميع أنحاء سوريا ويدفع هو ثمن الاخطاء التي اقترفتها الروح العسكرية الغريبة عن تقاليدنا الوطنية نحن الفرنسيين وقد سبب الحادث المذكور قلقاً عاماً في الحي كله ذلك لأن الأسلوب الذي يطبق عادة هو ذلك الأسلوب الذي طالما أخذناه عن الألمان، والذي يعتبر كل الناس مسؤولين عن الجريمة التي تحدث. وبالفعل فقد طبق هذا الأسلوب أيضاً اليوم. وتم اعتقال ثلاثين شخصاً من أبناء هذا الحي، وهددوا بفرض الغرامات عليهم وبقصف السوق بالقنابل. أما صديقتنا الطيبة المعلمة "....Z" التي كانت تبكي على الجندي المصاب، فقد أصبحت الآن تبكي على نفسها، وعلى بيتها الصغير الذي تخاف أن تراه مهدماً، وهكذا خاف كل الناس وتزايد شعور بغضهم لنا كالعادة.

وبينما أنا أمر من أحد الشوارع منذ أيام، سمعت أماً تقول لابنها الصغير الذي كان يصرخ:

«اسكت وإلا فسوف أنادي الفرنسيين فيأتون لك . . . !»

وكما قال الشاعر:

(١)- المقصود مايسمى «بالحطة» التي يضعها الرجال على الرأس وليست عمامة المشايخ

«الأم في الحال تحاكي طفلها الجائع
الذي يبكي
تهدده إن لم يسكت
فسوف تطعمه للذئب. . . . !»

٣ شباط ١٩٢٦

أعلنت السلطات العسكرية بأنها ستقوم بعمليات ثأر إن لم يتم القبض خلال ثلاثة أيام على الشخصين الذين اعتديا على الجندي الشاب، الذي يأمل الناس بشفائه. وهذا اليوم، وجدت نفسي في وسط مجتمع فرنسي يضم المدنيين والعسكريين بالإضافة الى بعض السوريين أيضاً.

يعكس رأي الجنود عادة رأي رؤسائهم، فهذه البلاد لاتشوقهم أبداً، حتى أنهم كانوا ينظرون إلي بدهشة لما سألتهم عما إذا كانوايقدرون جمال دمشق، وكانوا يهزؤون من كلامي، ومن المفروغ منه أنهم يعيشون حسب مخطط غير الذي أعيشه أنا.

وهم ينتقدون، رخاوة السيد «دو جوڤنيل» الذي لم يدعهم يهدمون أحياء أخرى في دمشق، لكي يعيدوا الناس الى جادة الصواب.

وأعلمني شخص منهم، بأنهم كل مساء يتعرضون للهجوم من جهتين من منطقة باب شرقي، وذلك لأن المقابر المجاورة للسور القديم للمدينة، مليئة بالثوار، وأنهى محدثي كلامه قائلاً:

« إن كلا الطرفين يكمن للآخر داخل البساتين هذا يجيز اطلاق النار عشوائياً. »

وكان المدنيون يرددون بهيئة متجهمة الجملة التي أصبحت معروفة تماماً لكثرة تكرارها وهي:

«أن ساراي لم يقم إلا بعمل صالح واحد، وهو بأنه قصف دمشق بالقنابل. »

وكان السوريون الحاضرون ينظرون إلي بقلق دون أن يتفوهوا بكلمة، وكنت أنوي أن أعلق على قضية قصف المدينة بالقنابل، حين أضاف عجوز فرنسي قصير القامة قائلاً:

«لولا هذا التدبير لكانوا سيذبحونا جميعاً»

جميعاً. . . !؟ ومن هم المقصودون بهذه الكلمة. . . ؟ هل هم الأشخاص الذين كانوا محاصرين في «قلعة الصالحية» بينما كنا نحن تحت رحمة الثوار أنفسهم. . . !؟ ها أنا برهان حقيقي على أن العكس هو الصحيح.

وقال لنا صديق حضر مراسم تأبين أحد القتلى في المقبرة التي تقع خارج السور:

«إن مخيم الأرمن قد زال من الوجود نهائيا! . . . وإن معمل الزجاج قد أصبح قلعة حقيقية وأنشئت فيه تحصينات رهيبة، وخنادق ووضعت الأسلاك الشائكة، كما أقيمت مثل هذه التحصينات في شارع «القيمرية» وهو المكان الذي اختطف بعض شخصيات المدينة، والآن لايسمح بالمرور من هناك إلا لابناء هذا الشارع نفسه» ومازال الذعر يسود في حي القصاع والناس لايستطيعون النوم، لأن الثوار هددوا بإحراق الحي انتقاماً منهم. . . ! كما تم احراق مخفر فرنسي كان يستخدم كمستودع للسلاح في الحي المذكور. وقد عاد الكاتب بالعدل الذي اختطفه الثوار سالماً بصحة جيدة، بعد أن استولوا على المبالغ المالية التي كانت في جيوبه. . ! فقد اقتادوه الى بيت قروي يحوي جهاز هاتف، وهناك اتصلوا بمركز قيادة الثورة ليسألوا عن مقدار الفدية التي حددها الثوار للإفراج عنه، وتم التشاور مع القيادة وتنازل هؤلاء عن مقدار الفدية الذي حدد سابقاً، وتم تخفيضه من ألف ليرة الى ثمانين ليرة فقط. وقد عرفت قصة أخرى مسلية أيضاً، ففي مناسبة عيد تتويج البطريارك العجوز «حداد» قامت رئيسة دير صيدنايا بإرسال تهنئة له بطريقة مبتكرة تماماً، وذلك بإرسالها عن طريق الحكومة العامة للثوار التي تتمركز حالياً في قرية «منين» على بعد خمسة كيلو مترات من دمشق وقد ذهب أحد البدو الى صيدنايا ليأخذ الرسالة التي تم تسليمها مفتوحة، وحيث قامت الرقابة التابعة للثوار بفتحها وفحصها في قرية «منين» محتذية بذلك الاسلوب الذي تعمل به رقابتنا مع الأسف.

وبعد ذلك جرى نقل الرسالة الى دمشق واستلام الجواب بالشكل نفسه، حتى أن رسالة البطريارك قد سلمت مفتوحة أيضاً. . . !

وهذا يدل على أن ساراي قد ترك اتباعاً له في هذا البلد. . . . !

٥ شباط ١٩٢٦

اليوم، وبينما كنت أستقبل بعض الاصدقاء، بدأ المدفع يدق، وبسرعة تلته «تكتكة» "TAC TAC" الرشاشات الآلية والبنادق. وكان هذا احتفاء بقدوم السيد «دو جوڤينيل» الى

دمشق، لكن الثوار كانوا يجهلون ذلك، وظنوا بأن القوات العسكرية تقوم بهجوم عليهم كالعادة، جاء ردهم على النار بالنار. وقد قص علي بعض الاصدقاء نبأ ذهاب وفد من «طلاب كلية الحقوق» لمقابلة الجنرال «أندريا» لكي يطلبوا منه الافراج عن زميل لهم تم القبض عليه بدافع الاحتياطات الأمنية فقط، لكن الجنرال لم يتركهم يتكلموا أبداً، فبادرهم بإلقاء خطاب طويل على مسامعهم لكي يبرهن لهم بأنهم تصرفوا كالأطفال، وهذا ما أغضبهم قليلاً..!

٦ شباط ١٩٢٦

في هذا الطقس البارد الماطر والسيء استقبل السيد «دو جوڤينيل» أعضاء الجالية الفرنسية، وكان الاستقبال كالعادة، عبارة عن سلسلة من أعمال حب الظهور، ولكن كان كل من الحاضرين يعلم بأن المفوض السامي ليس مستعداً لسماع المتاعب والمشاكل، ولذا كان الاستقبال ودياً تماماً ووقوراً فحسب، ودل على أن السيد «دو جوڤينيل» محبوب وأراد زيارة أنحاء دمشق بعد الظهر، فكان استقبال أهل المدينة له بارداً تماماً، وكان سوق الحميدية مليئاً برجال الشرطة وجنود الحرس السوري، ولقد نزل السيد «دو جوڤينيل» من سيارته في آخر «شارع النصر» وبدأ باستعراض الحرس برفقة كبار الموظفين الفرنسيين «وأميرال»(١) وعدد من الضباط بينهم عدة جنرالات. وكانت جماهير المستقبلين تصطف على جانبي الطريق الذي يمر منه الموكب... لاتتفوه بأية كلمة...! ولاتقوم بأية حركة أبداً..! وكانت الكثير من المخازن قد أغلقت أبوابها، ودخل السيد «دو جوڤينيل» ومعه أحد المترجمين الى عدة محلات يملكها مسيحيون ومنها محل السيد أسفار "ASFAR" الذي لا يمكن الاستغناء عن زيارته، ثم دخل الى محل لأحد المسلمين، لكي يكون سياسياً تماماً، ومن هناك توجه الى الجامع الأموي الكبير، ولكنه لما وصل الى نهاية السوق، وقف قليلاً قرب البوابات البيزنطية، حيث اصطف جماعة من أصحاب العمائم "KEFFIYEH" وكانوا يصفقون بطريقة غريبة، وقد وقف قربهم بعض التجار يبتسمون بسخرية، لكن الزائر لم يدخل الى الجامع الكبير بل عاد من حيث أتى وتبعه الجميع، فهل فهم ياترى في تلك اللحظة مقدار عداء الدمشقيين له من هذا الاستقبال البارد؟..

وفي هذا الوقت بالذات سمعت طلقات نارية تأتي من جهات حي الميدان، وتتابع اطلاق النار طيلة هذا اليوم.

---

(١) أميرال كلمة عربية الأصل وتعني أمير البحار أي قائد القوات البحرية، ويقال بالفرنسية أميرال و أدميرال "AMIRAL" والكلمة مأخوذة عن الأصل العربي.

وذهب الزائر بعد ذلك الى المستشفى العسكري ومنح الجندي الصغير الجريح وساماً، وقال لي أحد رفاق هذا الجندي في هذه المناسبة: «لقد نجا صديقي المسكين بول "PAUL" من حادث الاغتيال، وعلمت أن لهذا الجندي المسكين أختاً يساعدها، أنه لايخاف الموت حزناً على روحه بقدر ماخاف من أن تحرم أخته منه لأنهما تربيا معاً يتيمين، وقد فرضت غرامة قدرها ألف ليرة ذهبية على جميع أهالي السوق الطويلة، وجميع الجنود الذين يمرون الآن من هذا السوق يضعون أيديهم على أسلحتهم ويبقون على منتهى الحذر.

٧ شباط ١٩٢٦

أقام السيد «دو جوڤينيل» اليوم حفلة شاي في دار البلدية، ووقفت مجموعات من الناس على ضفاف نهر بردى، واصطفت سرية من الجنود، وعلى رأسها ضباط مقطبوا الوجوه، وكم كانت نظراتهم قاسية... ! ومتكبرة... ! وكم يختلفون عن أولئك الضباط الذين عرفناهم قبل الحرب... ! وهنا التقيت بصديقي الشاب "H...." وكان بعينيه الصافيتين الجميلتين اللتين، تنطقان بالشرف، خارجاً من السرايا، وهو مفعم بالحماس بعد أن قابل السيد «دو جوڤينيل» مع وفد من الحقوقين. فأكد لي بأن سيادته قد استقبلهم بحفاوة وعاملهم وكأنهم أصدقائه. كما واستعاد معهم ذكرياته عندما كان طالباً، وقبل بالتقاط صور جماعية معه، فكسب بذلك وُدّهم الى الأبد.

هذه هي الشبيبة المفعمة، العزيزة، شبيبة سوريا التي أكنّ لها في قلبي شعوراً خاصاً.

واستقبل «المسيو دو جوڤينيل» أيضاً ممثلين من مختلف المهن ثم سمح لكل واحد سواء أكان فرنسياً أم سورياً بلقائه وبمصافحته وتناول ضيافته. وهذا مادعى الكثيرين للذهاب لمصافحته عدة مرات آه... ! لو أن ساراي قد فطن لهذه الطريقة من قبل وكان يوزع المثلجات بدلاً من القنابل... ! ولو أنه فعل ذلك لكان سيكتسب شهرة أخرى تختلف عن تلك التي حققها تماماً... !وقد أعطى السيد «دو جوڤينيل» وعوداً كثيرة، وهو رجل طيب بلا شك، فمن كثرة وعوده، قيل أنه بالغ بعض الشيء، حين أعلن عن تخصيص عدة ملايين من الليرات لإزالة الخراب الذي لحق بالمدينة. وأضاف يقول بأنه أخذ هذه الملايين من جيوب السيد "M. PIERRE ALEP" ثم استقبل بعد ذلك عدداً من البطاركة، ومنهم السيد «حداد» الخبير بالشؤون العربية، والذي يكن له وجهاء المسلمين الكثير من الاحترام والتقدير،

وهذا ماجعل الحكومة الفرنسية ترتاب في وضعه، وقد خرج الموكب من السرايا، ورأيته محاطاً بعدد من الفرسان فقط، ، ويخرج ببساطة. وكان من الممكن أن نميز بين أفراده عمامة الشيخ «تاج الدين الحسيني» هذا الشخص الذي كان يرافق السيد «دو جوڤينيل» أينما سار وأينما حل، وقد تميز وجه السيد «دو جوڤينيل» بالامتلاء بالرجولة، وبدا بكتفيه العريضين كأنه أحد القادة الصليبيين. و بعد مرور الموكب، قال أحد جنود الحرس الفرنسيين البسطاء لصديقه:

«هيا ياصديقي. . . ! سنرى برج «إيڤيل» عما قريب إذن. . !»

وهذا مايعتقده هو على الأقل، ومع هذا لم يكن هناك أي تصفيق أو أية زينات على الطرقات والمنازل بالرغم من كلام المديح الذي ملأ الصحف الموالية لنا.

٨ شباط ١٩٢٦

ذهب السيد «دو جوڤينيل» مثلما جاء، فهل ياترى اتخذ قرار السفر هذا بعد الانفجارات التي سمعت ليلة البارحة. . . ؟! قام الثوار حينها بأربع هجمات مركزة، كانت احداها في حي الصالحية على بيت السيد «بيير أليب» الذي كان ينزل فيه المفوض السامي نفسه. . . !؟ لا أحد يعرف السبب، لكن يبدو أنه قلق من هذه الجرأة الكبيرة فغادر المدينة على الفور دون مراسيم التوديع. وقد حصلت هجمة أخرى على مخفر المهاجرين لكي يتم اخلاء مخفر الجسر «الأبيض» من عناصره، الذي كانوا سيقومون بنجدة المخفر الأول بلا ريب. وحصلت الهجمة الثالثة على «بيت رضا سعيد» وهو وزير قديم من أصل تركي، حيث طلب منه الثوار «منحة مجانية» على الرغم من ضخامة جسمه تمكن من الاختباء في مكان ما، ثم قدم استقالته إثر الحادث. وقد جرى الهجوم الرابع على ثكنة الحميدية قرب البرامكة، كما وسمعت مساء البارحة، في حي «باب توما» طلقات نارية على مقربة من بيتي الذي أسكنه، فقد تجرأ الثوار على اختطاف صهر رئيس البلدية، ولعلهم أرادوا منه أن يقدم استقالته، وكذلك اختطفوا ثلاث رهائن أخرى. وبالاضافة لهذا كله فإنه يتم اختطاف الخفراء والحرس بصورة منتظمة في الليالي الأخيرة. وقد اقتحمت عصابة الثوار بيت السيد "K...." وتظاهر أفرادها بأنهم يريدون قتله. لكنه احتج بأنه لايملك أية نقود فتركوه قائلين «فيما بعد» "BADEIN" ولم يعد أحد يخاف على نفسه في هذا الحي، بل أصبح الأمر مصدر تسلية

وضحك، وخاصة بعد أن أصبح هؤلاء الاشقياء الاتقياء يتركون بنادقهم عند بعض أصدقائهم لكي يذهبوا لأداء الصلاة في مسجد صغير مجاور لبيتي هذا الذي أسكنه. ويقع المسجد ضمن السوق الذي أقصده يومياً لشراء حوائجي، وهذا سوق مكتظ على الدوام بالتجار المسلمين المسالمين، حتى أن الاطفال كانوا كثيراً مايهجمون عليّ لتقبيل يدي هناك. وعندما أعود الى بيتي كل مساء، كان الخفير الليلي الموكل بحراسة الشارع الذي أسكن فيه، يقوم بمرافقتي خطوة خطوة، ولايتركني إلا عندما أضع المفتاح في ثقب الباب. ويرتدي هذا الرجل معطفاً سميكاً ذا قبعة ويخفي مسدسه تحت معطفه.. ويحمل بيده عصا غليظة يلوح بها تشبه عصا البطاركة.

لكنه قصير للغاية لدرجة أنه لايكفي لأن يكون لقمة واحدة في فم الثوار. ومع هذا فقد قص علي إحدى قصص بطولاته كما ادعى إذ قال بأنه قام أمس بمطاردة اثنين من الثوار، أعطيته الاكرامية "BAHCHICHE" و ينحني يريد أن يقبل يدي، لأن راتبه لايوازي الخطر الذي يتعرض له يومياً. ولكم أتأثر ببساطته وتواضعه وأنه يذكرني براعٍ من بلادي. لم يغادر قريته. ولم يفارق أمه مطلقاً، صادفته على أحد الطرقات ذات مساء، وفي ذلك اليوم كانت قد أعلنت التعبئة العامة في فرنسا، وكانت هيئة هذا الشخص تدل على استسلامه للظروف الجديدة التي لم يقدر على فهمها، وكانت يده تقبض على دفتر خدمة الجيش، وهو يسير حاني الرأس وعيناه تنظران الى البعيد...! إن هؤلاء البسطاء الذين يدفعون ثمن أخطاء الكبار، يستحقون الحنان، وإني أحمل لهم كل حناني، لأنهم يذكروني بالخراف التي يذبحها المسلمون هنا في أيام الأعياد.

١٠ شباط ١٩٢٦

قال لي أولاد الحي أن أبوي إحدى صديقاتهم قد تعرضا لعملية سلب من قبل الثوار وذلك في قرية الهامة، وقد اقتاد الثوار هذا الأب معهم، وتركوا زوجته لأنها ضخمة الجثة مما يصعب عليهم اختطافها طوعاً.

قيل لي اليوم أيضاً بأن حاخام اليهود قد تلقى إنذاراً نهائياً بوجوب دفع ضريبة عنه بمقدار ٣٠٠ ليرة ذهبية، وهذا مبلغ ضخم بالنسبة لليهود...! وقام هذا بعرض رسالة التهديد التي وصلته على المسؤولين في دار «المندوبية» فنصحه هؤلاء بألا يدفع شيئاً، ووعوده بأن يرسلوا

دا لحمايته ، وبالفعل فقد أرسلوا له ستة حراس فقط ، ومازلنا نعتقد بأن عدداً كبيراً من الشعب يحملون السلاح ليلاً مع الثوار ، كي يساهموا في إزعاج الفرنسيين ، فالحرب ع من حرب الفروند "FRONDES" وبعد الذي حصل ، تأكد أهل دمشق من مشاعر الحسنة تجاههم ، وعرفوا بأن الثوار لايحقدون إلا على الأثرياء البخلاء والفرنسيين نهم فقط ، وكل مطلع شمس أصبحت عادة الدمشقيين أن يسأل أحدهم الآخر مازحاً :

«هل من أحداث جديدة اليوم . . . !؟»

ويكون الجواب على غرار جواب المعلمة "....S"

التي أجابتهم ذات مرة بقولها :

«أنا التي يجب علي أن استقي الأخبار منكم . . . !»

ثم ينفجر الجميع بالضحك . . . وهكذا إذن . . . ! وعندما تمر القوات العسكرية من م ، يهزون أكتافهم ويقولون :

«ماذا يفعل هؤلاء الجنود بنا . . . ؟!»

قرأت في صحيفة «لاسيري» وهي الصحيفة الرسمية هنا ، والتي استطاعت أن تكسب الفرنسيين أكثر من غيرها ، والتي ماتزال أيضاً تقوم بحرق البخور بغباوة وحماقة ، أن السيد «دو جوفينيل» قد غُمر بالزهور من قبل سكان دمشق أثناء زيارته لها . ورد هذا الى جانب صور حية التقطها المصور الرسمي «ستيروني» للموكب ، ويمكن لمن ها آن يميز بسهولة بأن الموكب يمر في شوارع شبه خالية . . ! وفي الساعة الرابعة من بعد هذا اليوم تقريباً ، وكي لاننسى بأننا في حالة حرب ، أذكر بأني سمعت انفجارات ضخمة ة دون توقف وكان عددها حوالي اثني عشر قذيفة ثقيلة .

١٢ شباط ١٩٢٦

بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء هذا اليوم ، وعلى الحدود المحيطة للمدينة من (الشمالية - الغربية) جرت معركة عنيفة جداً ، بل هي من أعنف المعارك التي سمعت بها ه البلاد ، رافقها اطلاق قنابل مضيئة في حي القصاع والميدان ، وهذا ماجعل السكان ون على الموت من شدة الخوف .

وضحك، وخاصة بعد أن أصبح هؤلاء الاشقياء الاتقياء يتركون بنادقهم عند بعض أصدقائهم لكي يذهبوا لأداء الصلاة في مسجد صغير مجاور لبيتي هذا الذي أسكنه. ويقع المسجد ضمن السوق الذي أقصده يومياً لشراء حوائجي، وهذا سوق مكتظ على الدوام بالتجار المسلمين المسالمين، حتى أن الاطفال كانوا كثيراً مايهجمون عليّ لتقبيل يدي هناك. وعندما أعود الى بيتي كل مساء، كان الخفير الليلي الموكل بحراسة الشارع الذي أسكن فيه، يقوم بمرافقتي خطوة خطوة، ولايتركني إلا عندما أضع المفتاح في ثقب الباب. ويرتدي هذا الرجل معطفاً سميكاً ذا قبعة ويخفي مسدسه تحت معطفه.. ويحمل بيده عصا غليظة يلوح بها تشبه عصا البطاركة.

لكنه قصير للغاية لدرجة أنه لايكفي لأن يكون لقمة واحدة في فم الثوار. ومع هذا فقد قص علي إحدى قصص بطولاته كما ادعى إذ قال بأنه قام أمس بمطاردة اثنين من الثوار، أعطيته الاكرامية "BAHCHICHE" و ينحني يريد أن يقبل يدي، لأن راتبه لايوازي الخطر الذي يتعرض له يومياً. ولكم أتأثر ببساطته وتواضعه وأنه يذكرني براعٍ من بلادي. لم يغادر قريته. ولم يفارق أمه مطلقاً، صادفته على أحد الطرقات ذات مساء، وفي ذلك اليوم كانت قد أعلنت التعبئة العامة في فرنسا، وكانت هيئة هذا الشخص تدل على استسلامه للظروف الجديدة التي لم يقدر على فهمها، وكانت يده تقبض على دفتر خدمة الجيش، وهو يسير حاني الرأس وعيناه تنظران الى البعيد... !إن هؤلاء البسطاء الذين يدفعون ثمن أخطاء الكبار، يستحقون الحنان، وإني أحمل لهم كل حناني، لأنهم يذكروني بالخراف التي يذبحها المسلمون هنا في أيام الأعياد.

١٠ شباط ١٩٢٦

قال لي أولاد الحي أن أبوي إحدى صديقاتهم قد تعرضا لعملية سلب من قبل الثوار وذلك في قرية الهامة، وقد اقتاد الثوار هذا الأب معهم، وتركوا زوجته لأنها ضخمة الجثة مما يصعب عليهم اختطافها طوعاً.

قيل لي اليوم أيضاً بأن حاخام اليهود قد تلقى إنذاراً نهائياً بوجوب دفع ضريبة عنه بمقدار ٣٠٠ ليرة ذهبية، وهذا مبلغ ضخم بالنسبة لليهود... ! وقام هذا بعرض رسالة التهديد التي وصلته على المسؤولين في دار «المندوبية» فنصحه هؤلاء بألا يدفع شيئاً، ووعوده بأن يرسلوا

له جنوداً لحمايته، وبالفعل فقد أرسلوا له ستة حراس فقط، ومازلنا نعتقد بأن عدداً كبيراً من أفراد الشعب يحملون السلاح ليلاً مع الثوار، كي يساهموا في إزعاج الفرنسيين، فالحرب هنا نوع من حرب الفروند "FRONDES" وبعد الذي حصل، تأكد أهل دمشق من مشاعر الثوار الحسنة تجاههم، وعرفوا بأن الثوار لايحقدون إلا على الأثرياء البخلاء والفرنسيين وأعوانهم فقط، وكل مطلع شمس أصبحت عادة الدمشقيين أن يسأل أحدهم الآخر مازحاً متسلياً:

«هل من أحداث جديدة اليوم... !؟»

ويكون الجواب على غرار جواب المعلمة "S...."

التي أجابتهم ذات مرة بقولها:

«أنا التي يجب علي أن استقي الأخبار منكم... !»

ثم ينفجر الجميع بالضحك... وهكذا إذن... ! وعندما تمر القوات العسكرية من أمامهم، يهزون أكتافهم ويقولون:

«ماذا يفعل هؤلاء الجنود بنا... ؟!»

قرأت في صحيفة «لاسيري» وهي الصحيفة الرسمية هنا، والتي استطاعت أن تكسب قلوب الفرنسيين أكثر من غيرها، والتي ماتزال أيضاً تقوم بحرق البخور بغباوة وحماقة، قرأت أن السيد «دو جوڤنيل» قد غُمر بالزهور من قبل سكان دمشق أثناء زيارته لها. ورد هذا الكلام الى جانب صور حية التقطها المصور الرسمي «ستيروني» للموكب، ويمكن لمن يشاهدها آن يميز بسهولة بأن الموكب يمر في شوارع شبه خالية.. ! وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم تقريباً، وكي لاننسى بأننا في حالة حرب، أذكر بأني سمعت انفجارات ضخمة متتابعة دون توقف وكان عددها حوالي اثني عشر قذيفة ثقيلة.

١٢ شباط ١٩٢٦

بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء هذا اليوم، وعلى الحدود المحيطة للمدينة من الجهة (الشمالية- الغربية) جرت معركة عنيفة جداً، بل هي من أعنف المعارك التي سمعت بها في هذه البلاد، رافقها اطلاق قنابل مضيئة في حي القصاع والميدان، وهذا ماجعل السكان يشرفون على الموت من شدة الخوف.

كم يلزمهم من الصحة والقوة لكي يحتملوا مثل هذا العهد. . . ! . .

كما قام الثوار في الليلة الماضية بقطع الاسلاك الشائكة، واختطفوا أربعة رجال شرطة واستولوا على عدد من البنادق والذخائر في حي القصاع. وقد أرسل الجنرال «أندريا» الى الدروز نداء تغلب عليه البسيكولوجية [1] العسكرية البحتة فيذكرنا أسلوبه برومانتيكية سنة «١٨٣٠» وقد نشرته صحيفة «لاسيري».

وكي يتمكن الجنرال من اقناعهم فقد ذكرهم بقصة نابليون قائلاً:

« لقد كتب لكم نابليون من عكا. . . ! نحن أبناء نابليون العظيم. . . ! القائد الفاتح، نحن لسنا مثل الأترك، (وتبدو هذه العبارة شيقة خاصة وأنها تأتي تماماً بعد اسلوب الضغط الذي اتبعه) لسنا مثل سامي باشا أو تلك الحكومة العربية التي كانت تريد أن تجعل منكم محافظة تابعة ادارياً. »

وفي نهاية الخطاب، يوجه لهم التحية البطولية التالية:

«يجب عليكم أن تطيعوا حكومتنا، لأننا أقوى منكم»

ترى هل يعتقد الجنرال أندريا حقاً بأن مثل هذه العبارات تجعل الدروز يرمون بنادقهم. . . !؟ وفوق ذلك قدانقطع منذ زمن طويل عن استخدام التلميح ونفس الشيء في جبل الدروز.

١٤ شباط ١٩٢٦

قطع هذا الصباح مرة أخرى الخط الحديدي الذي يصل دمشق ببيروت وذلك في محطة دمر على مسافة سبعة كيلومترات من دمشق وقد قام الثوار بإطلاق النار بغزارة على القطار بعدما خرج عن الخط، فنزل المسافرون منه وانسلوا ليختبؤوا بين السواقي والبساتين، وتقدم الثوار فنهبوا القطار. وتم أيضاً قطع الخط الحديدي الواصل إلى درعا وجاء دور جارنا وصديقنا الدكتور: «توفيق أ-أ. . .» «TAOUFIK A- A.....» الذي تلقى رسالة من الثوار كي يدفع نصيبه من الضرائب الإجبارية، فهرب مع زوجته الحلوة إلى فضاءات أخرى. وأخبرتنا الخادمة التي وصلت من السوق بأن أصحاب المحلات قالوا لها بأنهم سينضمون إلى الثوار عندما يتحسن الطقس، وذلك لكي يستنشقوا هواء الغوطة العليل الذي اشتاقوا إليه، وإن أخاها المتطوع لدى الفرنسيين جاء ليراها اليوم، وكان فخوراً بنطاقه الجلدي، وبالبندقية

(١) أي علم النفس العسكري

والطلقات التي تزين صدره، وكان لايزال عندنا حين سمع إطلاق النار وأزيز الرصاص الذي يمر فوق سطح منزلنا فاندفع إلى الشارع ليقاتل كما يندفع الحصان المدرب فهل من الممكن أن يكون مثل هذا الحس القتالي قد تكون في بضعة أسابيع، عند هذا القروي الصغير الذي رأيته منذ مدة حينما وصل خائفاً وهو يرتدي ملابس متسخة وكان خجلاً لدرجة أنني اعتقدت بأنه أنثى. . . . . !؟

ولما خرج اصطدم برجل في الشارع فالتفت ورفع بندقيته وصوب بها نحو الهدف فهل من الممكن أن يكون هذا المحارب الموثوق قد ولد فجأة من ذلك الفلاح البريء الوادع الذي كان يعمل بزراعة البطاطا. . ؟ (١)

أهدي هذه الكلمات إلى «غوستاف لوبون» «GUSTAVE Lebon» وعندما رجعنا هذا المساء من حي «الشهدا» «chou hada» طلب منا السيد «M. G....» بأن نمر من حي العمارة لأن القتال قد احتدم في منطقة «باب الجابية» وكما نسمع الطلقات النارية ودوي القنابل عند مدخل سوق الحميدية.

وفي منطة «سوق الصغير» الواقع خلف الجامع الأموي الكبير، نصبت متاريس تثير الضحك لأنها ببساطتها، يستطيع أي شخص أن يقفز من فوقها بسهوله، وقد علقت عليها لوحة تحمل كلمتي: «ممنوع المرور» ترى هل يجرؤ الثوار على دخول المدينة ومثل هذه المتاريس موجودة. . . . ! ؟.

في منتصف هذه الليلة، وبينما وأنا أخط هذه الكلمات، احتدمت المعركة من جديد في منطقة باب شرقي، وإن السوريين مسرورون للغاية من هذه الإضطرابات المتواصلة التي يأملون منها بالفوز النهائي على الفرنسيين.

١٥ شباط ١٩٢٦

زرت بعض الأصدقاء في حي الصالحية، وقالوا لي بأنهم تعرضوا في الليلة الماضية لخطر معركة حقيقية، حين هاجمت عصابات الثوار بالرشاشات كل الشوارع المحيطة بهم حتى وصلت إلى الجسر والحق يقال أن الضباط الذين يسكنون الصالحية قد برهنوا في تلك المعركة

(١) يبدو أن المؤلفة هي التي دفعته للتطوع في جيش السلطة، وهي تقول بأنه جاءها منذ أسابيع وكان فقيراً بريئاً، وقد تحدثت في السابق أن والدة الخادمة التي تعمل عندها قد زارتها حين جاءت من يبرود.

عن شجاعتهم. إذ ظلوا في بيوتهم بالطبع، وجعلتهم الأحداث يتخيلون أموراً كثيرة: فقد رأى أحدهم صليباً أزرقاً مرسوماً على باب بيته، فظن بأن عصابة «اليد السوداء» هي التي فعلت ذلك أما المقدم «Comma ndanl» السيد «......T» الضابط المهم في شعبة المخابرات فقد بدل منزله وترك ذلك الحي كله، وعلى هذا نجد أن أبطال الصالحية لم يعودوا يشعرون بالأمان وفعلاً رأيت بعد ذلك تدابير تحضيرية للدفاع عن الحي، حتى أن دمشق كلها أصبحت تشبه المدن الواقعة على جبهة الحرب.

وقد أنذر الأوروبيون. بعدم التجول في سوق الحميدية حتى في ساعات النهار ورغم ذلك فإني مأزال حية مع أني أقصد ذلك السوق يومياً. . . ! هل من الممكن أن أكون بالذات محرّمة كأسطورة «اليهودي التائه»؟

احتدمت معركة ضارية في وادي العجم، وإن الأخبار الخارجية لاتصلنا إلابواسطة الصحف المراقبة بدقة، أو نقلاً عن الناس ونحن من داخل هذا الكمين الذي نختبئ فيه، لانقل أن نرى إلا نتائج «الأعمال البطولية» التي تجري فيما وراء جدرانه، فاليوم مثلاً تم جرجرة مئتي أسير موثقين بالحبال إلى ساحة المشيرية وكان بينهم كثير من المشايخ المعممين، وأدخل الجميع إلى السجن، وإن مايدل على أن تقدماً في سياسة الدولة قد حدث فعلاً هو أنه لم يجر اليوم عرض «تغلات فلاستر» كما حدث من قبل. إن فتيات صغيرات أتين من «الصوفانية» قالوا لي بأن الثوار قد استولوا على كل الجهة الشرقية من المدينة اعتباراً من باب شرقي موصولاً إلى الصوفانية، وأنهم يختبؤن في المغاور المحيطة بمقام «الولي» الشيخ رسلان العجيب، الذي يقع قرب أحد فروع بردى، وأن الطلقات النارية تسقط عند رميها داخل البيوت فتسبب، بين وقت وآخر مقتل امرأة قد فرغت لتوها من أعمالها المنزلية في ساحة بيتها أو في سطحه. عرفت تفاصيل عن قصة رحيل الدكتور «توفيق» المكلف بالإشراف على «نقطة الحليب» «la Goute de lait» فقد كان مجبراً بسبب أنظمة عمله على أن يسأل الأمهات اللواتي يصطحبن أطفالهن عن أسماء أزواجهن وعن مهنهم لكن النساء أخبرن أزواجهن بهذه الأسئلة فظن الثوار أنه يتجسس لصالح الفرنسيين فأرسلوا له كتاب تهديد غير موقع يحوي العبارتين التاليتين فقط:

«ارحل مع عائلتك، ولاتطرح بعد الآن هذه الأسئلة على نساء «نقطة الحليب»

وعلى هذا فإن تينك النساءهن زوجات ثوار حقاً. . . ! أليس كذلك؟

بإيعاز من المسيو «دو جوفينيل» تم تشكيل حكومات مؤقته، وكان أغلب أعضائها من الفرنسيين أو الموالين لهم، وحاولت هذه الحكومة ادارة وتصريف الأمور في دمشق بدون أن تلاقي في ذلك أي نجاح وبهذه المناسبة هدد الثوار كل من يشترك بهذه الحكومة بالإختطاف والعقاب ولهذا السبب فإن كثيراً من أعضاء الحكومة الجدد أقاموا في بيروت أو رحلوا عن منازلهم ليقيموا في فندق «فيكتوريا» الذي يعتبر الآن قلعة المقاومة الأوروبية في دمشق وإذا أردت أن تقابل وزيراً في بيته، فإن الخادمة التي تشك بأي شيء وتعتقد بأن الكل من الثوار تنظر من خلال منظار الباب قبل أن تشقه قليلاً ثم تقول على الدوام بأن الأفندي أو البيك ليس موجوداً وأنها لاتعلم أين يكون ومتى سيعود أو إذا كان سيعود. . . ! وعند ذلك تتصور بأنك تقوم بأداء دور في أحد الأفلام الأميريكية، وإن كثيراً من المسؤولين يفعلون اليوم ماكان يفعله بالأمس «دنيس» طاغية «سيراكوس» «Dens, Tyran de Syracuse» إذ يغيرون كل يوم ليس فقط الغرفة بل البيت الذي ينامون فيه لأن السيد «H.....» قال بأنه لايوجد أي إنسان في السرايا هذه الأيام، وإن مدير المعارف العمومية يمل الإنتظار وحيداً في مكتبة بعد أن كان المراجعون ينتظرونه صفوفاً طويلاً عند بابه، إن جماهير السكان لاتقبل عهد «آليب» «ALIPPE» ولا وزاته والشيء الظريف هنا هو أن الإمتناع عن العمل يتم بمعرفة الكبار أنفسهم، فهل يمكن تصور وضع اكثر طرافة من هذا. . . !؟ وزراء لايعملون شيئاً لأنهم لايستطيعون القيام بشيء أصلاً. بينما في فرنسا المراجعين يقفون في الردهات الداخلية خلف بعضهم قبل أن يتمكنوا من مقابلة أحد الوزراء. . . !!

١٦ شباط ١٩٢٦

حدثت اليوم عاصفة ضخمة جعلتنا نعتقد بأن مدفعاً من عيار جديد قد بدأ تشغيله بعدما وصل لهذا البلد وإن الثوار قد تركوا هذه الليلة مهمة مقارعة السلطة للطبيعة الغاضبة. ورغم ذلك فقد سمعت هذا الصباح قريباً من بيتي الطلقات النارية .

وفي حي الشاغور القريب منا، اختطف خمسة جنود شباب، ترى ماذا سيفعل الثوار بهم. . . !؟ وأين هم الآن. . . ؟

آه. . . . ! لو أن أمهات هؤلاء الفرنسيات المسكينات قد علمن بذلك. . . . !! وأية قساوة يتعرض لها الآن هؤلاء الأطفال رغم أنهم في الأصل أبرياء. . . ! وفي الميدان حصل حادث آخر مقلق، حيث أن واحد من الأرمن المتخزبين لنا والمتجند في جيشنا كان يقوم بإيقاف الناس ومضايقتهم هناك، يدعي بعض أبناء الحي بأنه قد أطلق النار على عدة أشخاص

أيضاً. وقام المسيحيون أيضاً بإيواء بعض المسلمين المطلوبين في بيوتهم وهذه طريقة يتبعها الجميع هنا بغية توحيد صف الشعب السوري وشجب مثل تلك الأعمال المسيئة للمواطنين، ولولا أن المسيحيون يقوم بإيواء هؤلاء لحدثت أعمال انتقام ضدهم. يجب علينا أن نعترف بأن المتطوعين الشركس والأرمن مكروهين من قبل الجميع في دمشق ونحن قد ارتكبنا خطأ كبيراً بقبول مساعدة هؤلاء الناس لنا. ماذا نعرف عن ماضيهم. . ؟ فأغلبهم أشقياء. حتى أن المرء يخاف عندما يقابلهم في بعض الأحيان، وهذا مادعى سيدة أجنبية لأن تقول لي في أحد الأيام: «انظري . . . . إلى هيئات هؤلاء الذي يدافعون عنكم فهل تقبلن أن يدافع عنك أمثال هؤلاء. . . . ! ؟ »

ومن المحتمل ألا يكون سبب تطوعهم للقتال تحت علمنا حبهم لفرنسا والفرنسيين، إذ من الجائز أن يكونوا قد قاموا بهذا العمل كنوع من التحدي للسكان الذين كانوا يسخرون منهم! أو أن يكون ذلك بغاية قبض الرواتب والإستفادة من المزايا المادية الممنوحة للعسكريين. وقد أكد لي بعض العارفين بأن هؤلاء يقبضون رواتبهم بالعملة الذهبية. وصدقت هذا الكلام بسهولة حين رأيت في سوق الحميدية ثلاثة من «هؤلاء» يشترون جوارب من الحرير، وهي أجمل مارأوه في السوق وبعد ذلك بعدة أيام شاهدت في ساحة المرجة دليلاً أكبر حيث رأيت عدداً من الفرسان المتوحشين بأجسامهم المغطاة بأحزمة الطلقات النارية وهم يهزون بأيديهم زجاجات مليئة بأثمن أنواع الكولونيا الباريسية ويحضّون المارة على شرائها منهم بمبلغ مربح، وكانوا أثناء ذلك يرسمون على وجوههم ابتسامات تجارية تتنافى مع مظهرهم الحربي. إننا لانشك بأهمية الدور الذي تلعبه القلعة باجتذاب عدد من أنصارنا هؤلاء إلى سلك الجندية وفي كل واحد من هؤلاء تتساوى نفسية التجارة والربح مع الروح العسكرية بل وأحياناً تتغلب عليها. . . . وعلى هذا نجد أن النفسية التجارية تمارس نفوذها حتى في ظل العلم المثلث الألوان لكن المؤسف هنا هو أن نعزي إلى جنودنا مثل هذه الأعمال السيئة التي يقوم بها هؤلاء الأنصار بقلة وعي منهم لانجدها عادة إلا عند أنصاف المتمدنين لكن أبناء الشعب هنا يخلطون بين الفرنسيين والأنصار، ويعزون جميع الحماقات وأعمال العنف إلى الفرنسيين أو كما يقولون بلهجتهم العامية، «فرانزاوي» وهذا مايجعل فرنسا مكروهة في هذه البلاد.

ولهذا فإني لاأحمل كثيراً من العطف نحو هؤلاء اللصوص الذين أصادفهم في زوايا الشوارع ويقال أن الثوار قد وضعوا مكافأة كبيرة لمن يحصل على رأس زعيمهم «جاك» الذي تشبه هيأته هيأة قطاع الطرق تماماً. إن المفوض السامي السيد «دو جوفينيل» تائه حالياً مثل

وزرائه في التقرب من أنقرة، ولقد صورته مجلة فكاهية جالساً في إحدى القاطرات وهو يرتدي القبعة الرسمية العالية وصورت أمامه حقائب كتب عليها كلمات: «أنطاكية» «حلب» وهو يقول لمعاونه الرسمي «فرانسوا» الذي كان يرافقه في رحلته.

- ماالذي أفعله إذا طلبت الجمارك مني مبالغ ضخمة عن هذه الحقائب. . . ؟

فيجيبه معاونه:

- اتركها في هذه الحالة للأتراك.

قيل لي بأن الهجوم الذي قام به الثوار يوم ١٥ شباط «البارحة» على حي الصالحية كان يستهدف اختطاف رئيس الشرطة الذي يكرهه الجميع في هذه البلاد اضطر هذا إلى الانتقال من بيته إلى بيت آخر قريب من قيادة الشرطة لكي تقوم هذه بالمحافظة عليه

١٧ شباط ١٩٢٦

بدأت في الساعة السادسة من هذا الصباح معركة عنيفة في حي الميدان، وأتصور بأن الجيش عاد لقصف المدينة، وبعد السؤال ومعرفة الأخبار علمنا بأن بعض الجنود الأنصار قاموا ببعض أعمال القتل والسلب هناك بعد أن هوجموا من قبل مجموعة من الثوار المتمركزين فوق أسطحة المنازل.

وعلى هذا بدأ نزوح الميادنة من جديد وهربت النساء حاملات الوسائد والحوائج الشخصية وكانت الواحدة منهن تبكي على بيتها «الجديد» الذي سيتدمر مرة أخرى لأنه يشاع بأن السلطة ستقوم بهدم أربعين منزلاً هناك. . . . !

١٨ شباط ١٩٢٦

يالها من ليلة رهيبة. . . ! ففي الساعة العاشرة مساء كانت القنابل تصفر فوق دمشق وترى اضواء انفجارات القنابل وسفرها وكانت تطلق من القلعة باتجاه القدم. وفي الساعة الثانية صباحاً سمعت أصوات معركة عنيفة في جهات حي الميدان ثم على طول محيط المدينة. وأكد لي كثير من الناس بأن المرتزقة الأرمن قاموا بقتل بعض المسلمين ثم نهبوا منازلهم وحملوا أثاث بيوتهم وتجهيزاتها في العربات. . . ! ولايزال الدخان ينبعث من الحرائق التي حدثت أمس، والتجأ بعض الأطفال والنساء المسلمات إلى كنيسة الاورثودوكس في الميدان. ونشر اليوم نداء من الثوار في الصحف العربية يهددون فيه بإعلان حرب دينية واكتساح

الأحياء المسيحية التي ظلوا يحترمونها حتى الآن في حال بقي الأرمن يتابعون أعمالهم هذه على هواهم. . . !

وتلقى الشيخ تاج الدين والبطرياك غريفوريوس: رسالتين متماثلتين. وتنتهي بالتهديد بالقيام بأعمال انتقامية إذا لم يمنعا الأرمن من الإضرار بالآخرين. . . ! وقد اضطر البطرياك المسكين لمراجعة دار المندوبية من جديد ولكن جهوده في سبيل السلام لم ينظر إليه بما يستحق من العناية وقد اطلق عليه الكاثوليك منذ وقت اسم: «صديق الثوار» رغم أنه حيادي تماماً ولايتعدى حدود دوره الديني، وقد حاول الأتراك من قبل في آواخر فترة انتدابهم لسوريا أن يجبروه على تأييدهم علناً بغية النجاح في حربهم لكنه رفض مساندتهم وأصر على أنه يجب على رجل الدين أن يساند السلام فقط. وهذه المرة تأثرت السلطة العسكرية ويقال بأنها أجبرت بعض النهابين على إعادة الأغراض التي سرقوها كما وسجنت أثنين من هؤلاء الأرمن الذين أقدما على قطع أيدي بعض النساء لكي يسرقا خواتمهن وهذا الخبر الأخير لم أكن لأصدقه من قبل ولكن عدة جهات رسمية أكدته لي والآن بدأت جماهير السكان بمطاردة العناصر الأرمنة في المدينة.

١٩ شباط ١٩٢٦

حدثت في الميدان اليوم مجزرة حقيقية وقد كان من المستحيل دفن الضحايا لأن طلقات النار كانت تئز في كل مكان ولذلك فقد تدخل الأمير سعيد وذهب إلى «ميدان» بصحبة ضابط برتبة كابتن (مندوبا عن المندوبية) وقد اجتازا المتاريس الخطرة وهما أعزلين من السلاح، ومرا بين الثوار كي يقوما بواجب احترام جثث الموتى وعند ذلك توقف إطلاق النار كهدنة مؤقتة، وصدرت الأوامر تسمح بمرور مراكب الجنائز حتى مقبرة «الشيخ حسن» التي نالت شهرة كبيرة محزنة منذ بعض الوقت ثم عاد الأثنان نحو المتاريس بدون أن يتعرضا لأية عملة انتقامية واليوم صدرت نتيجة الجلسة التي عقدتها جمعية الامم المتحدة وتتلخص بأن لفرنسا الحق بانتداب سوريا والبقاء على ذلك وكذلك لها كل الحق باستخدام مختلف الوسائط التي تراها مناسبة لتعيد الهدوء إلى سوريا بشرط أن تقترن تصرفاتها بالحكمة والحذر ورداً على ذلك قام الدمشقيون بإغلاق محلاتهم احتجاجاً وغضباً على هذا القرار، ويئس السوريون منه، وبدأوا يقولون بأنه لايمكن القيام بأي عمل مفيد صد حكم القوي ويدور الكلام الآن عن القيام بمظاهرة كبرى يوم الجمعة.

٢٠ شباط ١٩٢٦

روى لنا بعض «الميدانيين» بأن أرمنيا قد سرق 500 ليرة من مسلم وهرب إلى بيروت لكن الشرطة ألقت القبض عليه، وكان يعمل كاتباً في المحكمة وبالمقابل ينزعج أهل دمشق من قدوم 1500 فارس [١] اسماعيلي لمساندة الفرنسيين وحراسة مدينة دمشق لكن المسلمين المحافظين انزعجوا من ذلك وروى لي أحد الأشخاص بأنه بدأ باصطياد عدد منهم في الميدان بالرصاصات وإن هؤلاء يطمعون بالذهب الكثير الذي يطير في الميدان حيث يسكن الناس الأكثر غنى في دمشق.

وقد أصبح الميدان خالياً تقريباً فبعد المشاكل الأخيرة، رحل جميع سكانه الأصحاء الذي يملكون خيولاً إلى جبل الدروز الذي تشكلت فيه أخيراً حكومة مؤقتة مقرها مدينة السويداء وأنه بدأ التحضير لوضع دستور للدولة وأن الدروز الذين يحاربون هناك عندهم الآن رشاشات انكليزية وألمانية وأجهزة هاتف وأنوار كشافة

٢٢ شباط ١٩٢٦

أعطوني اليوم تفصيلات جديدة شيقة لحوادث قطع الخطوط الحديدية التي تذكرنا بقصة «ملك الجبال» ولما أبديت دهشتي من أن جميع هذه الحوادث تقع في منطقة «دمر» بالذات ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه محدثي، وأكد لي أنه قد تم توزيع إكراميات بصورة سرية على رؤساء العصب في بقية المناطق لكي يبقى الخط الحديد فيها سليماً.

والغريب في هذا الأمر أن الشخص الوحيد الذي ظل يرفض على الدوام تطبيق هذه الإكراميات هو السيد «عكاش» الذي يشبه أحد لصوص «كورسيكا»

وقد أُسر أحد أقاربه ثم قتل [٢] فوجدت بحوزته لائحة تحوي أسماء جميع ضباط عصابته وأرقامهم وأسماء من يمكن تطويعهم من الدمشقيين، وعلى ذلك تم القبض على هؤلاء الأشخاص من قبيل الإحتراز.

---

(١) وردت الجملة بالفرنسية كالتالي:

On se plaint beau coup de l'assirce de 1500 cavalies ISMAELT TES, Env oyés par soubhi Barakat. disent les gens paur Coloniser les environ sde DAMAS et défende la Ville.

(١)- هو عبدة عكاش

وحسب التفصيلات التي وصلتني يكون الخط الحديدي قد قطع في ليلة ١٤ شباط قرب طاحونة دمر وتكون محطة الهامة قد نهبت وأحرقت تماماً وفي الساعة الثانية وصل قطار حلب قادماً من دمشق فسرقت محتوياته كلها، وقد أصيب رشاش عربة الدفاع عنه وهي عربة مصفحة عادة، باستعصاء جعل الجنود لا يقدرون على حماية أنفسهم وقاد هذه العملية رجل دمشقي معروف هو من وجهاء المدينة واسمه. . . . !!؟ لا . . . ! هذا غير ممكن ويجب علي ألا أفصح عنه. . . . ! إنه رجل حباب ولطيف و«جنتيلمان» كان منذ ستة أشهر يركع على أبعة قوائم كي يرضينا. . ! وعلى خط درعا الحديدي. . . كان القطار يسير بشكل حسن، ولم يكن أحد يلاحظ وجود أية عوارض منتزعة من الخط، ولكنه تعرض في المدة الأخيرة لانتزاع العوارض والتدهور وثم الحرق. . . . . . ! وقد فتح الثوار عليه النار فقام الجنود بالدفاع عنه، وحدثت معركة حامية وحجز المسافرون داخل القاطرات التي أصبحت كالأفاص المتداخلة ضمن بعضها البعض، ولم يعد بالإمكان فتح أبوابها أو نوافذها ولماكان ركابها يخاطرون بأنفسهم ويخرجون رؤوسهم كان الرصاص ينصب عليهم كالمطر القوي. . . !

ولما ازداد الحريق، توجب على هؤلاء كسر النوافذ وتحطيم جدران القاطرات وقدمات من جراء ذلك حوالي عشر أشخاص أعرف واحد منهم. وهو قائم مقاقم القنيطرة الذي سحقت عظامه. . . . ! ومات أبشع ميته.

البيوت التراثية التي هدمتها القذائف في الاحياء المجاورة للقلعة

وكان مساعد قنصل انكلترا هو عريس متزوج حديثاً يركب في قطار تلك الرحلة مع زوجته الشابة، فتم نقلهما إلى دمشق في سيارة مصفحة، وهذا يعتبر تبديلاً مسلياً في رحلة شهر عسله. . . !

وهنا يدعي الناس بأن هذه الأحداث هي بداية لثورة كبيرة، وقد نصحوني من جديد وللمرة الأخيرة بأن أترك هذا البلد وأرحل عنه مادمت قادرة على القيام بذلك، لكن. . . ! هل أن أستطيع حقاً أن أرحل. . . . ! ؟

٢٣ شباط ١٩٢٦

نفذت الحكومة في الأيام الأخيرة عدة عمليات إعدام شنقاً (في ساحة المرجة) وعندما يطرح الآن المسؤال التالي على أهالي دمشق:

ماذا يريد الثوار. . ! ؟

يأتيك الجواب على الدوام:

«يريدون أن يرحل الفرنسيين عن بلدنا. !»

التقيت بفلاح قادم من قرية القدم. وروى لي بأن الثوار يعيشون في أقبية المقابر وأن أعدادهم كثيرة لاتحصى، وأنهم مصممون على القتال حتى آخر رجل منهم مادام الفرنسيين يحتلون هذه البلاد. . . ! وأنهم يقولون بلهجة مؤثرة وبعزيمة كبيرة بأنهم سيتنكرون حتى لنبيهم «محمد» إذا كان موالياً للفرنسيين. . . ! وهذا يثبت بأن الكره العظيم يولد غالباً الآلام العظيمة. لم تتحدث الصحف الأجنبية ولا الفرنسية عن الأحداث المهمة التي تجري في هذه البلاد الآن، فما هو السبب ياترى. . . ؟ ماسبب مؤامرة الصمت والسكوت المتفق عليه. . . !؟

وقد قرأت في الصحف المحلية نص الرسالة التي وجهها الجنرال «أنديريا» إلى الشيخ «بدر الدين الحسيني» CHEIKH BADR EDDIN EL HASSANI والتي روى فيها كيفية وقوع أحداث الميدان الأخيرة حسب وجهة نظره. . . . وهي كالتالي:

ويدعي الجنرال بأن المواصلات قد قطعت في «الميدان الفوقاني» بسبب تمركز الثوار هناك بكثرة ولهذا فقد كلف الجنود المرتزقة «Les PARTISANTS TCHERKESSES» الشركس بالقيام بحملة تفتيش على البيوت لكي يقبضوا على الثوار وإن هؤلاء الأنصار لم يقتلوا إلا

الأشخاص الذين بدأوا بإطلاق النار عليهم. . . . ! وإن بعض الأشخاص لجأوا إلى المساجد ليطلقوا النار منها، ولهذا أصدر صاحبنا أمره بجمع المشايخ كي يمنعوهم من ذلك تحت طائلة قصف المساجد بالقنابل. . . ! وهنا يقول «أنديريا» (سأكون منزعجاً إذا وجدت نفسي مضطراً لقصف المساجد. . . !) ثم يضيف بأنه يعتقد باحتمال إصابة بعض الأبرياء بالطلقات النارية ويقول: «لكن كان على السكان أيضاً إذا لم يساعدو الجنود في مهمتهم أن يجعلوا هذه المهمة أقل عسراً على الأقل. . . !» ويعلن أنديريا بأنه أمر بتسريح سبعة وثلاثين جندياً من الشركس والأرمن لأنهم أساءوا السلوك في المعركة وبأنه أيضاً وضع أثني عشر جندياً من هؤلاء المرتزقة في السجن لأنهم قاموا بعمليات سطو حقيقي وهذا مايثبت صدق القائلين بأنهم قد ارتكبوا مثل هذه الأعمال المخزية. . . . ! هذا وقد تم اجتماع القناصل في بيت السيد آليب «ALIPPE» لبحث الوضع الراهن وهذا يدل على تقدم سياستنا. وكم كنت أتمنى لو فعل ساراي ذلك قبل أن يقصف دمشق بالقنابل.

٢٤ شباط ١٩٢٦

صدر قرار عسكري يمنع تدخل رجال الشرطة المدينة وقوات المرتزقة «النهابين» ويحصر ذلك فقط بالشرطة العسكرية التي يجب ألا يتعدى أحد على حقوقها وواجباتها. إن الرصاصات الطائشة تفعل الكثير هنا وهناك وتقوم بزيارات غير منتظرة إلى البيوت، حتى عند غياب أصحابها عنها. وفي يوم مضى حدث في الصالحية أن دخلت واحدة من هذه الرصاصات إلى غرفة استقبال في الطابق الثاني لأحد البيوت وحطمت مرآة كبيرة يبلغ ثمنها مئة ليرة. إن أصدقائي من عائلة «X.......» قد استقبلوا في بيتهم وكانوا على مائدة الطعام، بعض هذه الرصاصات وحدثت حفلة مماثلة مفاجئة في «مقهى عدل» CAFÉ ADL التي كانت تعج بالزبائن الذين يحتسون مشروباتهم وقد ارتكبت حماقات كبيرة، ذلك أن بعض الأشخاص قاموا بعرض صور في واجهات محلاتهم للأشخاص الذين تم شنقهم بتهمة التمرد، وإن مثل هذا العمل لا ضرورة له، ولكن الصحف العربية تقوم بنشر صورهم، وكأنها تريد اضرام نار الحقد وقد بيعت في دمشق خلال يوم واحد 600 صورة من هذه الصور، وهذه فضيحة كان من الواجب تلافيها.

٢٦ شباط ١٩٢٦

احتدمت معركة في حي القصاع وإن جنود فرنسيين كانوا فوق اسطحة منازلهم، ويطلقون النار على البساتين حيث يوجد الثوار المختبئين داخل مغاورها. . . فرد عليهم الثوار بالمثل. مازالت عمليات الإختطاف تجري في حي المهاجرين الذي يعتبر خارج التحصينات والأسوار. وقد أرسل الفرنسيون الذين يسكنون في هذا الحي زورجاتهم إلى بلدان أخرى وذلك لكي يتمكنوا من مغازلة نساء أخريات بطمئنينة وراحة بال.

يقدوم الثوار الآن بتبني الأسلوب الشيوعي. حيث هاجموا عدة بيوت ولكنهم لم يأخذوا شيئاً من بيوت الفقراء، بل اكتفوا بفرض «المنح الإجبارية» على بعض أعضاء حزب الشعب لاستيائهم منهم وذلك لعدم قيامهم بدفع كل مايترتب عليهم تجاه الثوار. وشاع هنا نبأ اتفاق المسيو «دو جوفينيل» مع مصطفى كمال على حل مشكلة الحدود السورية ولاتزال نتائج مقابلتهما مجهولة.

دار (القوتلي) بعد احتراقها بفعل القصف في بدايات الثورة السورية (١٩٢٥) وفي منتصف الشارع لوحة معلقة في الهواء كتب فيها (محلات لافاييت الباريزية)
وإلى اليسار لافتة مثبتة إلى الجدار قرأت نصها بواسطة المجهر فكان (زقاق المرستان).

١ آذار ١٩٢٦

مازال الدمشقيون مستائين من عدم تسريح جميع المرتزقة من الشركس والأرمن واحتجاجاً على ذلك أغلقت المحلات التجارية وهذه عادة طريقة احتجاج أهل دمشق وقد نفذ الجنرال «أنديريا» تهديده فجعل المساجد شبه مراكز يقيم فيها عدد من الجنود المناصرين للسلطة، وحدث ذلك في «الميدان» الأمر الذي جرح شعور المسلمين في القلب وإن مقالاً كتبته لم يقدر له أن ينشر بعد في صحيفة «لوريان» «LORIENT» التي عوقبت كما يعاقب طفل شقي لأنها تجرأت وسألت السيد «دو جوفينيل» عن مشروعاته بالنسبة للبنان. وفي نفس الوقت تم إيقاف الصحف المناوئة لهذه «لوريان» عن الصدور أيضاً.

إن شاب يبرود الصغير، أخا الخادمة التي تعمل عندي، قد فرح لأنه أصبح الآن جندياً رسمياً وهو يأتي غالباً لرؤية أخته فيضع بندقيته الضخمة، التي أصبح يجيد استخدامها على السرير ثم يمطر أخته بألواح الشوكولاة والسكاكر والعطور التي اشتراها من المؤسسة العسكرية، بما قبضه من مال أول راتب له، وأصبح الآن نظيفاً ممتلئ الوجنات ومشرق الوجه. وهذا ماجعلني أسأله:

- من علمك أن تصبح جميلاً بهذا الشكل...؟

فضحك الصبي ببراءة طفل صغير وقال:

- إنه الرقيب...

٣ آذار ١٩٢٦

هذه الأيام تناقصت المعارك المسائية. ولم نعد نسمع أكثر من بضع طلقات متفرقة وقذائف متقطعة ويكون هذا صحيحاً إلا إذا كنت أنا قد اعتدت على سماع الانفجارات لدرجة لم أعد أسمع شيئاً منها....! لايستطيع المرء أن يتصور دمشق بدون قذائف مدفعية وطلقات رشاشات في هذه الأيام....!

٥ آذار ١٩٢٦

هنا، لايمكن أبداً تأكيد رأي مابشكل قاطع لأنه بين الساعة السابعة والعاشرة من صباح هذا اليوم عادت من جديد نفس أعمال القصف والتدمير التي جرت بتاريخ ١٨ تشرين الثاني الماضي.

وإن أحد الأرمن المتطوعين، قد عاد لتوه من منطقة الحرب فقال لنا بأ معركة عنيفة تدور الآن في منطقة «عربين» على بعد خمسة كيلو مترات من المشفى الإنكليزي. وأضاف يقول: «إن مفرزة من المتحزبين لنا «المرتزقة» محاصرة الآن في «دوما» وأن رجالها اضطروا لبيع ذخائرهم وأسلحتهم للثوار مقابل بعض أرغفة الخبز، ويضاف إلى هذا أن عدة عصابات من الثوار تتخفى بين البدو وتحاول تطويق الفرنسيين. ولكن كل هذه للمساوئ، لم تستطيع أن تخفي أو تمنع قدوم الربيع، فمن النافذة أرى شجرة خوخ صغيرة كستها الأزهار، وقد ازدانت الاسطحة باللون الأخضر وتبدو الغوطة مليئة بأغصان الأشجار وكأنها قد نثر فوقها دقيق أبيض ويبدو جبل حرمون الذي كان أبيضاً، ممدداً بخيوط سوداء تتخلل كتل الثلج الذائبة وقد أصبحت أشعة الشمس ذافئة تماماً الآن، لكن الرجال لايفكرون بكل هذا إنما يفكرون بالقتل فقط.....!

٦ آذار ١٩٢٦

حدث اليوم هجوم جديد قاده الأطفال في الأسواق فقد تم توقيف الشخص الذي ألف مرثاة قصة حياة «حسن الخراط» الحزينة وقد سيق هذا الرجل إلى سجن القلعة ورافقه إلى باب القلعة جميع الأولاد الذين كانوا يبيعون هذا الكتيب في الشوارع وهم ينشدون قصة المولد النبوي الشهيرة فقام رئيس الشرطة بالقبض على عدد منهم واقتيادهم وضربهم وبهذا يصبح لحسن الخراط شهداؤه الجدد أيضاً...!

٨ آذار ١٩٢٦

حصلت اليوم على خبر بسقوط وزارة برياند «BRIAND» وكم تبدو لي أحداث فرنسا بعيدة وغريبة، ذلك لأنها تدور في بلد خيالي بالنسبة لي الآن، يستطيع الناس فيه أن يناموا هانئين مرتاحين دون أن تقصف منازلهم بالقنابل...! وعلمت أيضاً بأن (الصحفي هنري دوكيريللوس) مرشح الآن للإنتخابات النيابية لكني كنت لاأفهم مثل الكثيرين غيري السبب الذي دعاه للإمتناع عن خوض المعركة السورية (على واقعها) وكنت أعتقد بأنه جاء إلى هذا البلد لكي يقدم لقراءه نتاجاً يحترم الحقيقة وفاجأنا بنتاج ملطخ بالتخريب والتزوير، ذلك لصالح جانب معين، في الوقت الذي تكون فيه سوريا بحاجة ماسة لقلمه النزيه أكثر من أي وقت آخر...!

آه. . . . . ! أيتها السياسة. . . ! هل هذه الغربة بسببك . . . . . !؟

السياسة. . . . ! السياسة. . . ! مامعنى هذه الكلمة. . . ؟ لاأعرف الجواب. . .

أتصور أن واجبات الإنسان هي بصورة لاتقبل الجدل أن يتعرف حسب وقائع الحقيقة الناصعة وتعاليم الإنسانية السمحاء، إذ لاتوجد عدة حالات يكون المرء فيها محقاً، وإنما توجد عدة حالات يكون فيها ماهراً. منذ الساعة السابعة من صباح هذا اليوم تسمع لعلعة الرصاص على أشدها، حيث أن القوة العسكرية التي أرسلت بقيادة «فيرنية» «VERGNE» لتموين قوات «دوما» ومساندتها هوجمت وجرح قائدها، وجراحه خطيرة، ولايظهر أنه لم يهتم بتعزيز عناصر الكشف والاستخبار التي ترافقه.

٩ آذار ١٩٢٦

هذا المساء دخلت إلى المدينة وبنظام تام القوة العسكرية التي جرى تبديلها البارحة وبهذه المناسبة جرى عرض عسكري للمصفحات ثم مرت بعدها السيارات المحملة بالخيام وبأعمدة وأشرطة الأسلاك الشائكة. وقد تم نقل الكوماندان «فيرنيية» إلى المستشفى بعد إصابته في المعركة يوم أمس ورغم ذلك نرى استعدادات الجالية الفرنسية لإقامة حفلة تنكرية كبرى. .

١١ آذار ١٩٢٦

صدر مرسوم حكومي ينص على رفع رواتب الضباط والجنود العاملين في سوريا بمقدار الضعف نظراً لظروف القتال الصعبة التي تهيمن على جبل الدروز ودمشق وسوريا الشمالية.

ورغم هذا لا أزال أقرأ في الصحف الفرنسية التي أتلقاها أن كل شيء يسير نحو الهدوء في سوريا وقال لي بعض الفرنسيين أنه يوجد اختلاف في الرأي بين العسكريين أنفسهم فبعضهم متحررون لايرون أية ضرورة لمتابعة الحرب وأخرون على العكس يريدون متابعة الحرب حتى النهاية.

وفي المدينة قام أحد الجنود الشركس «un TCHERKESSE» اليوم بالصعود إلى عربة مشغولة فرفض قائدها أن يسير به وهذا أمر طبيعي فضربه الجندي بسوط لكن الحوذي تلقاه بيده، ولم يكتف الجندي بذلك فقام بضرب «العربجي» بأخمص بندقيته وعندها تدخل الناس وسحبوا الجندي من العربة وضربوه بكل ماوهبهم الله من قوة. وأخيراً يسعنا بأن نستنتج أن

هؤلاء الانصار لايمكن إصلاحهم أبداً.

١٤ آذار ١٩٢٥

اختلطت أصوات طلقات مدافع رمضان مع أصوات قصف القنابل اليومية الإعتيادية بشكل أصبح معه من المتعذر معرفة بالضبط الوقت الذي «تبين فيه الخيط الأبيض من الخيط الأسود» وفي هذه الليلة سمعت الطلقات النارية تئز باستمرار مع المدافع الثقيلة.

١٥ آذار ١٩٢٦

هذا الصباح، حدثت معركة عنيفة في منطقة «الشيخ محي الدين» فقد أطلق الثوار النار على حافلة «الترامواي» وخرقوها بشكل كامل من أحد الجانبين حتى الآخر. ثم دخلوا المدينة حتى وصلوا إلى الجسر.

واليوم ذهبت قوة عسكرية إلى الغوطة تحوي مجموعة جنود شبان ويقول الناس الذين رأوهم يرون: «لكن هؤلاء أولاد»(١)

وفي الساعة الحادية عشر مساء، حصل هجوم بسيط على مكان قريب من بيتي، وسمعت رصاصات يطلقها خفيري «Mon GAFFIR» الشجاع مدافعاً عن الشارع.

١٦ آذار ١٩٢٦

في الساعات الأولى من صباح اليوم طارت خمس طائرات كسرب من العصافير وذهبت لتقصف قرية «عربين» بالقنابل وغداً سيجري تسيير سرية تموين وإمداد لكي تفك الحصار عن سكان قرية معلولا ولتحمل لهم الطحين ومن المستحيل إبقاءأمر هذه الحملات العسكرية مكتوماً، ولذا فإن الثوار يعلمون بها مسبقاً وقد حدث أن وقف أحد الضباط الفرنسيين أمام محل أحد الصرافين لكي يبدل بعض النقود فسأل الصراف قائلاً:

- هل تصرف هذه الليرات لكي تذهب بها إلى معلولا..؟

فانتفض الضابط مستغرباً، وسأله:

- وكيف عرفت بذلك؟

---

(١)- Mais ce sont des "OUALADS" (enfants) disent les juives qui les voient passer

أجابه الصراف :

- من خدمكم الذين يجهزون حوائجهم ومن الجنود السوريين والذين لهم أصدقاء في المدينة . . . !

وهكذا يستطيع الثوار أن يعرفوا الخطط العسكرية من قبل فينصبون الكمائن أو يخلوا المنطقة التي يتوجه إليها الجيش وبهذا يفلتوا من الوقوع في أيدي مطارديهم .

عادت صديقتنا السيدة «H.....» من لبنان ويظهر أن الطريق قد أصبح آمنا الآن خاصة وأن جميع الجنود قد احتلوا جميع المحطات فأصبحت كالقلاع الممضة، ولايحرسها إلا جنودنا الذين يعيشون تحت الخيام ويتعرضون للمطر والبرد ورطوبة الجبال وقالت لنا السيدة «H....» بأنها قد رأت ضمن بستان تكسوه الأعشاب المبللة عدداً من الستائر الحريرية التي كانت في السابق تزين قاعة استقبال فخمة وقد جلس عليها جنود ملطخون بالوحل وكان أحد أهالي البلد ينظر إلى ذلك بدهشة وغرابة ويقول :

- «هذا مشهد عادي في أيام الحرب»

وإذن فإن الخط الحديدي محروس بشكل خاص في الأراضي الممتدة من الزبداني حتى دمشق المنطقة التي يسيطر عليها عكاش وجماعته .

وبعد الزبداني يختلف الأمر، فسهل البقاع في هذا الفصل يعتبر جنة خضراء مزهرة، وجبل لبنان تكسوه أزهار «السيكلاما» أماهنا في هذه المصيدة المحاصرة فإن عودة الربيع لاتبدو إلا من خلال أزهار أغصان الأشجار الموضوعة في الأطباق والتي يبيعها باعة الحلويات الطرية المغطاة بالعسل التي تباع في رمضان . وعكر صفو هذه الليلة أصوات طلقات نارية لدرجة يستحيل على المرء معها أن يغمض عينيه فقد قام الثوار بالهجوم على المدينة من جميع الجهات دفعة واحدة والآن أسمع في هذه اللحظة دوي قنابل مدافع المصفحات والساعة بلغت الثانية عشر والنصف ليلاً .

١٧ آذار ١٩٢٦

دارت اليوم معركة عنيفة في المزرعة، وهي مكان صغير أعرفه جيداً، وقتل في تلك المعارك ملازم شاب، إذ اخترقت رصاصة قلبه، ولما لم يعد هذا الضابط إلى بيته، صار كلبه يبحث عنه وينتظره وكاد المسكين أن يجن وأخذ يفتش عنه في كل مكان متنقلاً بين شخص

وآخر وانتقاماً لموته قامت القوات العسكرية بتخريب المزرعة كلها بشكل كامل. . . . !

١٨ آذار ١٩٢٦

اليوم رأيت العربات والجمال تحمل كميات ضخمة من الأشجار الجميلة المزهرة التي قصفت بالقنابل التي رمتها الطائرات، وكان منظرها يبعث في القلب الرهبة والحزن معاً. وقام الثوار اليوم باعتدائين جديدين إذ أصبحوا ينزلون بكل اطمئنان إلى حي الميدان بعد أن اعتبرته السلطة حي خارج عن التحصينات وهناك يقدم لهم المأكل اللذيذ والمسكن المريح وكل اللوازم الأخرى. وقد قاموا اليوم باختطاف طفل في العاشرة من عمره وطالبوا والده بفدية قدرها عشر ليرات ذهبية تم تقديرها بعدد سنوات عمر الطفل ويعمل والده كتاجر حبوب، ويبدو أن مقدار الفدية الشخصية قد تناقص فعلاً واقتيد الطفل إلى مقر قيادة الثوار، في أحد بيوت الميدان وشاهد هناك العديد من الرجال يلعبون بأسلحتهم وقدموا له طعاماً شعبياً لذيذاً كما قال: وقضى ليلته هناك قبل أن يعود وإذا كان ثمن هذه الأطعمة اللذيذة كبيراً بعض الشيء فإن المرء يتمنى لوأن الثوار يخطفونه فيجري بعض التبديل في وجبات طعامه إذ أنه لايمكن داخل الأسوار أن يحصل المرء على طعام بهذه الجودة وهذه اللذة لأنه لا يمكننا نحن أن نتزود حتى بالأطعمة الضرورية إلابصعوبة. أما الحادثة الثانية فهي أكثر طرافة، إذتم اختطاف رجل دمشقي يعمل معلماً في أحدى المدارس الوطنية، بينما كان ذاهباً لرؤية بيته في حي الميدان فاحتج بشدة على اختطافه هو باعتباره يحمل مشاعر وطنية يبدو أنها شرحت قلوب سجانيه، ولكنهم سخروا منه قائلين بأن المعلمين ضروريون لتثقيف الأمة وليس من مهمتهم الاشتراك بالقتال ولهذا يتوجب عليهم أن يساهموا بمبالغ صغيرة تكون أحسن من طول الكلام الغير مجدي. وبمساهمته هذه يبرهن على حسه الوطني الصادق فعرض عليهم ليرة ذهبية واحدة لأنه بطبعه بخيلاً فاحتجوا بأن هذا البرهان على الوطنية يعتبر عديم الفائدة حقاً ولذا وجد نفسه في النهاية مضطراً لتوقيع شيك مصرفي لهم. وعندها أعطوه شهادة تثبت صحة وطنيته، مختومة وموقعة حسب الأصول، وسمحوا له بالإنصراف سالماً معافى، ويملك الثوار دفاتر أصولية تسجل عليها الهبات المجانية. قبل أن تدخل الصندوق. وينصب اهتمام الثوار الآن على منطقتي الصالحية والشيخ محي الدين، إذ دخلوهما في وضح النهار ليسلبوا مخفر الشرطة الواقع في الجسر، وقد كان بعض البنائين يعملون في مبنى المخفر، فأرسل الثوار لهم شخصاً ينبئهم بأن ينهوا عملهم أو ينبطحوا على الأرض وذلك لأن الثوار سيقومون باطلاق

النار، وبالفعل قاموا بعد ذلك بلحظات بالهجوم.

يرى من يشاهد دمشق، مشهد غير عادي أبداً فالمدينة الآن محصنة تشبه قصور القرون الوسطى أو قلاع المدن القديمة. وإن جبه القتال موزعة الأن بين حي الميدان ومنطقة الجسر، وفي هاتين المنطقتين يتقابل العدوان وباستثناء الأحياء المسيحية، وقلعة الصالحية التي يقيم فيها «آلهة الرعد» وهيئة أركانهم فإنه يمكن اعتبار بقية الأحياء قطاعاً خاصاً يسيطر عليه الثوار كما هو الأمر في الشيخ محي الدين، والأكراد والشاغور والميدان وغيرهم. . . وهكذا يمكن أن نرى هنا انقلاباً غير منتظر في الأدوار، فالقوة المسلحة التي تقوم عادة بأعمال الحصار هي الأن مشلولة عن الحركة. ومحاصرة في مكانها من قبل جماعة من أفراد المقاومة الشعبية، الذين يدينون بقسم كبير من نجاحهم للإتصالات السرية في المدينة.

٢٠ آذار ١٩٢٦

هذا اليوم رأيت في سوق الحميدية رجال شرطة مستنفرين، ويرأسهم ضابط ترى ماذا يجري هناك. . . . . ؟

كان هناك الجنرال «أنديريا» يقوم بشراء بعض السجاجيد من محلات «أصفر» ASFAR فراقبت جمهور المشاهدين أثناء ذلك، ورأيت وجوههم متجمعة عابسة، خانقة وقد التفوا على بعضهم البعض، مكونين جماعات دون أن يتفوهوا بأية كلمة. !

٢١ آذار ١٩٢٦

الدكتور «توفيق» سيء الحظ حقاً، فما إن عاد من رحلته التي قضاها في مصر حتى تلقى رسالة تهديد جديدة.

وهذه المرة يريد الثوار أن يختطفوا أبناء أخته وكان أن دخل حلقة الوزراء الخائفين وأصبح عليه أن ينام خارج بيته.

٢٢ آذار ١٩٢٦

هذا الصباح رأيت في أحد الشوارع الصغيرة أشخاصاً يقومون بتحريك أيديهم بطريقة غريبة ويتلون قصة بطريقة دراماتيكية: ولم أفهم منهم سوى بعض الكلمات: «دروز» و

«فرانزاوي»[1] ثم «قطنا» .

لقد تدفق مهاجرون جدد على البطرياركية التي لم يعد المسؤولون عنها يعرفون أين يسكنون ومن أين يطعمونهم .

ويقول الفلاحون بأن معركة قطنا هذه المرة كانت رهيبة جداً ، إذ احتل الفرنسيون البلدة في البداية ، ثم تركوها بعد أن وضعوا فيها الجيش اللازم وفي الليل ، دخلها الدروز فاتحين ، وقد دافع أفراد الحامية عن أنفسهم حتى نفذت ذخيرتهم وقام الدروز بأسرهم جميعاً ثم قتلوهم وأخيراً وصلت وحدات قوات الشركس للدفاع عن البلدة ، وكان أهلها قد غادروها هرباً فقام الشركس بنهب البيوت . وقد ذبح الثوار قبل دخول عناصر الشركس أخا الخوري في فراشه وأحرقوا بيته .

٢٣ آذار ١٩٢٦

السيد «دو جوفينيل» موجود الآن ضمن أسوار المدينة وقد رأيت سيارته أمام محل «ساركيس» SARKIS وكان يشتري بعض السجاجيد وهذا دليل أكيد على قرب سفره إلى فرنسا ، حسب رأي الدمشقيين الذين يستقوا الأخبار بطرق صحيحة ، وأصبحت عندهم خبرة بذلك بعد أن تعاقد عليهم العديد من المندوبين الساميين وسيقوم السيد دو جو فينيل بالسفر إلى فلسطين كرحلة تسبق صدور أمر نقله .

وقد قضى يومه هذا بالتجول في حي القصاع وفي جميع أنحاء الحي المسيحي لكي يزور بعض التحصينات فيه .

وطوال إقامته في دمشق ، ظلت طلقات الثوار المدوية كالعادة تحييه .

٢٤ آذار ١٩٢٦

إن موضوع الغرامة التي فرضها الفرنسيون على المدينة في أيام القصف العنيف . قد عادت إلى واجهة المواضيع الهامة في البحث .

أما جيوب السيد آليب «ALIPPE» التي تحدث عنها السيد دو جوفينيل قائلاً :

---

(١)وردت الكلمة بهذا الشكل : «FRANZAOUI» وبشكل عام هذه أناشيد شعبية ضد الفرنسيين

«يجب إخراج ملايين الليرات منها. »

هذه الجيوب لم يخرج منها إلا جملة صغيرة تقول: «يجب أن نجعل السوريين يدفعون. . . ! » وإن صديقتنا المعلمة «S.....» تتساءل عن كيفية تخلص الدمشقيين من دفع هذه الغرامة فهذه المعلمة، رغم براءتها تجد نفسها مضطرة أيضاً لدفع غرامة وذلك لقاء قصف بيتها بالقنابل وتدميره. . . !!

ولقاء مهاجمة الجندي في الشارع الذي تسكنه. . . ! وإن هناك أشخاص توجب عليهم أن يدفعوا إضافة لهذه الغرامات ضرائب أخرى للثوار.

وهكذا نجد دمشق تنزف دماء بدون ذنب اقترفته، ونجد أشد أنواع العقاب تنصب، كالعادة على البسطاء الذين لم يقترفوا أي ذنب. . !

وعلى أبواب إحدى مدراس الذكور الصقت سراً رسالة من الثوار، وفيها يدعون التلاميذ لأن ينضموا إلى الثورة والثوار وأن يساعدوهم بالمعونة المالية. . . !

٢٦ آذار ١٩٢٦

هل رحل ستيفانو الذي يبقى في البال. . . . ؟

هل أبحر إلى فرنسا. . . . !؟

أدرجت صحيفة «لاسيري» اليوم مقالاً منطقياً بعض الشيء ويعود الفضل في كتابته إلى صحفي جديد يخاطب هذا المعلق السياسي مشاعر الثوار كي يقنعهم بالكف عن القتال ولكن هؤلاء لم يعودوا يثقون بأحد.

ولنفرض أنهم وثقوا فهل سيقرؤون أصلاً هذه الصحيفة. . . !؟

وإذا قدر لهم وقرؤوها، فلابد من أنهم سيضحكون مما كتب فيها. . . !!

٢٧ آذار ١٩٢٦

أريت صور الرجال الذين يلبسون «شروال» «EN CHIROUAL»

التي أحملها في دفتري، لفتيات صغيرات من حي القصاع.

فقلن: «هاهم الثوار. . . . !» والحقيقة أن أغلبهم يرتدون ألبسة فضفاضة تشبه الملابس

المسرحية. وذلك لأنهم غير قادرين في هذه الظروف على زيارة الخياطين.

اليوم عادت الفرقة العسكرية التي كانت قد أرسلت إلى النبك، والتي شكلت أصلاً من العناصر الأجنبية، والسباهي المغاربة الذين يركبون أحصنتهم. .

وكالعادة، فقد عادت هذه الكتيبة تحمل معها غنائم حربية كثيرة (تم نهبها من البيوت بلا شك) وكان هؤلاء يحملون معهم حتى جسور الحديد التي كانت تدعم سقوف المنازل ورأيت جندي يحمل مصباحاً، وآخرون اسودت وجوههم من الغبار والعرق إذ دخلوا رغم تعبهم وآخرون يحملون الخرفان على سروج دوابهم وكانوا يمرون من شارع الصالحية قادمين من سفوح جبل القلمون، وذلك بعد أن تركوا في النبك حامية مناسبة، وبعد أن احرقوا في الغوطة ثلاث قرى أيضاً.

٢٨ آذار ١٩٢٦

رأيت هذا الصباح واجهات محل المصور «ستيروني» وقد حطمت بسبب الصور التي كانت معروضة فيها بكل غباء وحماقة ومن بين هذه الصور مثلاً: صورة تمثل السيد «دو جوفينيل» وهو يدخن لفافة تبغ مع السيد «آليب» ويقفان في خرائب قصر عظم، وهذا مايجعلها تصلح فيمابعد لأن يتقدم ستيروني بها إلى مسابقة جائزة روما، وإذن متى يكف مواطنينا عن فعل هذه الأعمال غير اللائقة التي تزيد الدعاية المضادة لنا. ؟ وهذا المساء شوهد جندي يطارد كلباً في سوق البزورية، وسمعت بأذني صيحات الاحتجاج الغاضبة التي صدرت عن عجوز يضع على رأسه عمامة بيضاء «TURBAN BLANC» وعندما رأى هذا المنظر حنق وجهه واحمر. وكان في صيحته نوع من الغضب والكره المكبوت: والذي أذهلني هو أني أعرف طبع هذا الشعب الهادىء المتسامح تماماً. وسمعت ملاحظة أبداها أحد الموظفين الذين هم على اتصال مباشر مع السوريين هنا، ويرى هذا الموظف بأن الشعور العام يزداد ثورة بين يوم وآخر، حتى أن أصدقاء فرنسا القدامى الذين تعلموا فيها، قد أصبحوا الآن معارضين لها، وأن الجميع يتطلعون إلى اليوم الذي ترحل فيه الوحدات العسكرية نهائياً، لأن هذه الحرب دمرت البلاد. ويأمل البعض بأكثر من ذلك، فيتطلعون إلى خروج الفرنسيين كلهم من هذه البلاد، وهذا نوع من المرض يشعر به السوريون في هذه الفترة كنتيجة لوجود الفرنسيين هنا، ويمكن للمرء أن يشعر بهذا الصراخ الصامت في كل مكان من المدينة،

وبخاصة في الشوارع التجارية، حيث نجد المحلات فارغة، والتجار ينتظرون الزبائن على أبواب محلاتهم وهذا لايمكن أن يدوم وإن جميع الأشخاص المتعقلين المتفهمين، حتى بين الفرنسيين أنفسهم، هم من هذا الرأي ويعتقدون بأنه يجب إيجاد طريقة للتفاهم، وهذا المساء راق لي أن استفيد من جمال الطقس الربيعي، والذهاب إلى (التكية) العزيزة على قلبي، علني أجد هناك هذه المرة أيضاً الركن الذي أستطيع فيه أن أحلم، في ذلك الجو الصامت الذي لايعكره إلا وشوشات قطرات الماء المنسابة. وهناك كانت المدينة مكتظة بالجنود المسلمين بمختلف صفوف الأسلحة. وبالمقابل كانت الشوارع خالية تقريباً من المدنيين وترى المدينة كلها أشبه بمعسكر مليء بالتحصينات سرت في شارع النصر ثم في الشارع الذي يقع فيه المستشفى الوطني والذي يطل على أحد مناظر دمشق بحيث ينساب هناك نهري بردى والقنوات، وعلى ضفافهما البساتين والأشجار. . . وترى أزاهير أشجار السوسن وأشجار المشمش.

وتسبح مئذ نتي التكية الدمشقيين في صفحة السماء المنيرة، وتحيط بالتكية أشجار الحور ذات الأوراق الذهبية الطرية المرتعشة وفي بؤرة المشهد يبدو جبل قاسيون العظيم الأصهب شامخاً وعلى جوانبه ترتسم بيوت الصالحية والمهاجرين وكأنها قطعة من الفسيفساء حفرت على جانبي المنظر البديع. وفجأة انتزعتني من هذه التأملات ضجة خطوات سريعة لجمهور الناس، في هذا اليوم الربيعي وعلى طول الطريق الموحل المتاخم لضفة بردى اليمنى كان يتقدم جيش من النازحين يشبه تلك الجيوش التي رأيناها في شهر تشرين الأول الماضي، وهاهو حشد من النساء المغطيات بأثواب زرقاء مطرزة تغطي كل شيء فيهن بحيث لايظهر إلا عيون جامدة خامدة النظرات وكن يلبثن وتتصبب وجوههن بعرق التعب والقلق ولكن. . . . ! رغم هذا كله، كن سائرات ويرضعن أطفالهن الصغار أثناء المسير، ويتبعهن باقي الأولاد الذين يتعلقون بأثوابهن باكين متألمين. وبين هؤلاء كانت تسير سيدة عجوز تحمل بصعوبة وعناء طبقاً أثرياً من الفضة ثقيلاً بالنسبة لها، وأخريات كن يحملن مصابيح من الزجاج الأزرق رخيصة بحيث يمكن الحصول على كثير منها في الأسواق التي تبيع المواد المستعملة، لكنها كانت بالنسبة لهن أثمن مافي بيوتهن بلا ريب. . !

وكانت مجموعة أخرى من النساء يحملن فوق رؤوسهن «قففا» مليئة بأدوات المطبخ تلاتلك المواكب عرض للحمير المسكينة المحملة بتجهيزات النوم النظيفة تماماً. والتي تكاد تكون جديدة تبعها الجمال المحملة بالمفارش والوسائد والأرائك المكسية بالقماش الدمشقي

الأحمر «الدامسكو» ثم مرت الخراف المذعورة، والابقار السوداء المضطربة ومعها عجولها التي كان يقودها رعاة قلقون متألمون. مغبرون

آه.... ! يالهؤلاء التعساء المساكين... !

اتكأت بمرفقي على حافة جسر بردى، وعلى الدوام كنت أرى قدوم هذه المواكب من بعيد... وعلى الدوام كنت أرى جماعات جديدة لاتنتهي.... وكلها تمر بوجوه قلقة حزينة، وسرعة مزعورة وكان العجائز يمتطون حميرهم الصغيرة التي تجرها بناتهم «BINT» .

إن هذا المشهد يقلقني بل ويهد كياني ولذا ألقيت على مسامعهم كلمات التشجيع التي خطرت على بالي فتوقف رجل عجوز ونظر إلي بهيأة استسلام وانزعاج تام نظرة سببت لي كثيراً من الألم، وقال لي: «إن شاء الله» IN CHA LLA والتحق بالآخرين وهو يهز رأسه. ومرت سيدة شابة، كانت تمسك طفلها بيدها وتبدو جميلة تماماً وحزينة الوجه وذات عينين سوداوين قلقتين رفعت حجابها فجأة لمامرت بقربي وصرخت بي بانتفاضة يائسة بداقلبها وكأنه تمزق فجأة من الألم وهي تقول: «الله..... !» «ALLAH» وأرفقت صرختها هذه بنظرة لايمكن وصفها إنها المتطلع لعدالة السماء السامية هناك في الأعالي حيث بقيت السماء زرقاء هادئة... ! وفي نفس الوقت، وعلى نفس الطريق مرت عائلات ضباط: كانت هيأتهم تدل على أنهم من الطبقة البورجوازية الصغيرة وكانت نساء الضباط يتميزن بوجوههن الملونة «بالمكياج والبودرة» ويلبسن تنانير قصيرة من الحرير أو المخمل ويكسين السيقان بجوارب ناعمة ملتصقة ويلبسن أحذية ذات أكعاب عالية وبأختصار فإن هذه الزينة تشبة تلك التي تتحلى بها الريفيات في فرنسا أيام الأحاد ويسير معهن أولادهن المدللون بشعورهم المجعدة ووجوههم الضاحكة وكانوا يبدون بصحة جيدة في عرباتهم الصغيرة التي كانت الخادمات تقودها وبهذا الشكل كانت هذه العائلات تتنزه متعالية متكبرة لامبالية بكل الذي يجري حولها إذ لم يقل أفرادها أية كلمة بل ولم تظهر على وجوهم أية علامات التأثر تجاه هذا القطيع البشري المحزن الذي صادفوه في الطريق. وكانت السيدات يغنجن، ويتكبرن، ويحتقرن، ذلك القطيع البشري، ويبدين عدم تفهم لكل ماحولهن، وهذا ماهزمني فعلاً ترى لو أنهن أمهات حقيقيات، فلماذا لايخطر ببالهن أن يجرين مقارنة بسيطة بين أولادهن المدللين، وأولئك الذين يتعلقون بأثواب أمهاتهم... ؟ فهؤلاء محميين أفضل حماية ومحروسين تماماً وأولئك تقصف بيوتهم، بل لم يعد لديهم أية بيوت يؤون إليها... ! ونجد

هذه اللامبالاة نفسها عند الجنود من مختلف الأجناس، الفرنسيين وهؤلاء (المرتزقة) الذين كانوا يتنزهون بقبعاتهم المائلة على آذانهم وهم يغنون رغم هذه الشدائد المؤلمة. وقد رأيت ثلاثة من هؤلاء الجنود واقفين يتفرجون وهم يصفرون، وكان أثنان منهم باريسيين، والثالث نورماند: له رأس يشبه رأس عامل لحّام يبيع (المقانق) وقد سألتهم عن مصدر هذا الموكب المزين، فأجابوا بهدوء وطبيعي، وكأن الأمر لايزيد عن قيامهم بمسح بنادقهم:

- يمكن أن يكونوا قادمين من القرية التي قصفناها هذا الصباح.

- ولماذا قصفتوها بالقنابل...!؟

- آه....! حسناً....! يظهر أنهم قد أطلقوا النار علينا، وهذا هو السبب...!

قلت: - ومن هم الذين أطلقوا النار...؟

أجاب: - آه....! حسناً ياصغيرتي....!

يظهر أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين يمروا أمامك الآن.

قلت: - ولكن جميع هؤلاء نساء وأطفال...!

وهنا أجاب النورماندي قائلاً:

- حسناً ياصغيرتي...! ليس هؤلاء هم المسيئون....! ولكن بعض الناس قد قاموا بإطلاق الرصاص علينا، فكان ردنا أن قصفناهم بالقنابل.

ثم أضاف هذا النورماندي بهيأة وقار مصطنع:

- أن جميع هؤلاء لايساوون شيئاً ثميناً أبداً إذ أننا لانعرف مالذي يخبئونه لنا في قلوبهم...!

ورغم كلامه هذا كان يعتقد بأنه لم يحسن التعبير، رغم أنه ظل يردد كلمات لقنوه إياها كالببغاء، والحق يقال إنهم جميعاً من الأعلى وحتى الأدنى، من الرؤساء وحتى الجنود الصغار، كلهم لم يعرفوا ولم يعترفوا بجميل هذا الشعب، الذي هو ضحية الحرب، والذي يخلص بسرعة لأولئك الذين يحبونه وقد اتخذ هؤلاء الجنود نوعاً من التحفظ العدائي حين لمسوا إصراري على الدفاع عن هذا الشعب، ذلك لأنهم نحتوا في عقولهم فكرة لاتقبل المناقشة ولاالزوال وهي أنهم وحدهم المتمدنون في هذه البلاد...! وبعد عدة دقائق حدث مايبرهن على صحة كلامي إذ احتكت بي إحدى السيارات العابرة وكستني بالغبار، وكانت السيارة مليئة بالجنود الشركس المتأنقين، ومعهم رفيقاتهم الكاشفات الوجوه والصدور، وكل

واحدة تحمل بيدها لفافة تبغ وتدخن بشراهة وبوقاحة، وكن يضحكن من علامات الدهشة والاستنكار التي ارتسمت على وجهي من هذا المنظر، وبينما أنا أتفرج بهيئة غير راضية، على مباذل هؤلاء المتمدنين انتصب أمامي أحد الجنود الشركس في السيارة بجسمه نصف انتصابة وأخرج مسدسه ومد ذراعه إلى السيارة، ووضع فوهة المسدس على خدي أنا نعم . . . أنا الأوروبية التي يظهر بوضوح أنني فرنسية . . . . !

ولم يطل الأمر بي قبل أن يتملكني الغضب ويغلي دمي . . . . !

ماذا . . . ؟ هل يجرؤ أحد على فعل ذلك . . . . ! ؟

وبسرعة ناديت أحد الرقباء المارين لكي يوقف ذلك الجلف العديم الإحساس، الذي جبن وحث السائق على الإقلاع بسرعة، واختفت السيارة عن النظر . . . ! من خلال هذه الحادثة يمكن للمرء أن يتصور نوع المعاملة التي يتعرض لها أهالي البلاد، من بعض عناصر الواحدات العسكرية. الأمر المؤسف هو أن التكية قد انتهكت حرمتها وأصبحت معسكراً للجنود المغاربة.

وعلى الضفة اليمنى لنهر بردى كان يقف فارس مغربي أسمر على فرسه البيضاء، ذات الذيل الطويل المتماوج، وراح ينظر بعينيه الحادتين إلى جبل الحرمون البعيد، وقد امتلأ وجهه المعتم بضحكة كبيرة أظهرت أسنانه الناصعة البياض . . . !

وفي ساحة «كلية الحقوق» كانت مجموعة كبيرة من المرتزقة الأشقياء الذين يرتدون ملابس «خاكي» KAKIS وكانت هيئاتهم شريرة تشبه المحكومين بالأشغال الشاقة وتشبه الأخوه ديافولو وكان هنا رجال طوال القامة، لهم أرجل طويلة تشبه أقدام «مالك الحزين» وكانوا يصبغون أحزيتهم الحمراء، فيبدون بطولهم الفارع وأجسامهم النحيلة كالصور التي نراها في الإيقونات الأثرية، وكانت وجوههم متصلبة سمراء باهتة، وأعينهم المخيفة تتوقد شراراً تحت «خوذات» الحرب السوداء المخيفة التي كانوا يرتدونها، وكان أحد ضباطهم ذو شكل وحشي وله رأس شيطاني ترتسم عليه بشاعة مخيفة وكان جسمه يدل دلاله كبيرة على أنه من جنود المستعمرات، وكان رغم أناقة بنطاله وملابسه يتمخط بين أصابعه بقرف وقد اكسبتني هذه النزهة شعوراً مقبضاً يمتلئ بالقرف والحزن، فإن دمشق التي عرفتها في العام الماضي بمباهجها القديمة، وهدوئها الكلي، ومتنزهاتها الظليلة الوادعة، دمشق تلك قد

تلطخت الآن بالقرف وضاعت إلى الأبد، وإذا كنت أنا الأجنبية عن دمشق هذه أتألم بهذا الشكل المريع فكيف تكون حالة هؤلاء أصحاب البلاد الأصليين . . . !؟

٢٩ آذار ١٩٢٦

لقد رحل المسيو دو جوفينيل إلى فلسطين، ويخشى أن يجري استقباله هناك بنفس السوء الذي لقيه «بلفور» هنا . . . ! وأخيراً صدر قرار يمنع بيع صور المشنوقين بعد أن وصل حوالي ألف من هذه الصور إلى جميع البلاد، وقد ذهب رجال الشرطة إلى محلات التصوير وحطموا الصور «والنيغاتيف» كما وفتشوا فيها ولكن هذه التدابير جاءت متأخرة بعض الوقت مع الأسف، وبهذا نجد أن السلطات تخطيء على الدوام وتنبع نفس الأسلوب مرتكبة نفس الأخطاء، فهم الذين يقترفون الخطيئة ثم يجرون المحاولات لاصلاحها، لكن بعد فوات الأوان إن سوريا لسوء حظها حقل للتجارب التعيسة . . . !

٣٠ آذار ١٩٢٦

رغم صعوبات الزمن، فإننا نعمل بجد في موسوعتنا هذه عن سوريا وقد أنجزنا كامل الصور تقريباً. ولأنه يتعذر الخروج من المدينة بفضل الحصار الذي يفرضه الثوار علينا، فلذا يصبح من الصعب الحصول على المعلومات والوثائق وإن هذا الكتاب «موسوعة سوريا» سيكسب شيئاً من قيمة العصر الذي أنجز فيه، وسيكون مرجعاً هاماً عن هذه الفترة الزمنية التي كتب فيها لأن هذا الإنجاز العظيم يعتبر تقريباً رمزاً لسوريا، سوريا التي تتأهب في الظلام، وتحاول رغم هذه الإضطرابات أن تنظم نفسها وتعيش حياة جديدة مستقلة وقد انطلقت عدة قطارات محملة بالجنود إلى حلب، إذ بدأت الثورة تنتشر هناك في تلك المنطقة التي استطاع الجنرال «بيلوت» «BILLOTTE» أن يحافظ على الهدوء فيها وعلي أن أذهب إلى هناك عما قريب لأكمل دراسي لكن بعض الأصدقاء نصحوني بأن أؤجل سفري إلى وقت آخر. وقد علمت بأن الضباط الذين وصلوا منذ مدة قريبة إلى سوريا، وقد احتجوا على جعلهم يقاتلون في بلاد يجهلون أرجاءها، لأنهم سبب جهلهم هذا يقعون في الكمائن الخطيرة، وهم لايريدون تكرار التجربة التي خاضها جنود الجنرال «ميشو» MICHAUD أو القوة العسكرية التي كان يقودها «نيدوها» «NEDOHA» في الشوف حين وقع جيش يضم الفرنسيين والسنغاليين في فخ حقيقي لأنه اتبع طريقاً خاطئاً، ولم يزود بالمعلومات الضرورية

الصحيحة. ولايمكننا إلا أن نؤيد مطالب هؤلاء الضباط المحتجين.

٣١ آذار ١٩٢٦

ثناء عودتي من المدينة كنت أحمل في يدي باقة من (الزنبق) فالتقيت صدفة، بمجموعة من الطيارين الشبان: ولما رأوني وقفوا كالأطفال الصغار وصرخوا وهم ينظرون إلي نظرات رغبة:

«أو... ! مدام... !»

فوزعت عليهم أزهار الزنبق، وتخاطفوها من بعضهم وهم يصرخون ويصيحون صيحات فرح آه... ! كم يمثل هؤلاء الشبان الصغار ماعندنا من شباب فرنسي... ! وكم أشعر عندما أراهم أمامي بحيوية العرق الذي أنتمي إليه ذلك العرق الفتي الذي يتأثر بسرعة فيغطي حساسيته بغلاف بسيط من الهزل... ! لقد أخذوا كل الزنابق، إلا واحداً منهم لم يتمكن من الحصول على نصيبه فبدا على وجهه بعض التأثر والحزن.... ! كم أنهم لطفاء هؤلاء العصافير الفرنسيين..... ! كم هم لطفاء حين لايقتلون أحداً، لأنه مامن أحد يعلم كم قنبلة أسقطت هذه الأيدي نفسها التي تمسك الآن الزنبق بكل رقة.. ! آه.... ! أي هول تصنعه الحرب حين تحول هؤلاء الأطفال إلى جلادين.... !؟

٣ نيسان ١٩٢٦

إن موظفاً محدداً في «إدارة الأشغال العامة» قد تلقى مكافأة لأنه قام «بتجميل دمشق» لكنه يستحق عقاباً نموذجياً يكون مثلاً في العقوبات ويستحق بأن يقوم جميع فناني العالم بتسميره على خشبة الصليب لأن هذا التجميل المزعوم استهدف قلع أجمل أشجار الدلب وأقدمها في العالم وقام هذا أيضاً بتدنيس ضفاف بردى وواجهة التكية القديمة بإضافة مجموعة من أعمدة «الباطون المسلح»وبتشويه منظر مدخل المدينة بوضع كشك للموسيقا لايوجد إلا في بلديات الدرجة الثانية وتخريب ركني الجميل المفضل الذي أقيم فيه وأحلم في منطقة «الصوفانية» وهي جزيرة من المروج تقع بين جدولين من الماء الجاري، وذلك لكي يقيم مكانها ميداناً سخيفاً وجعل باب توما هدفاً للسخرية حين نصب فوق بردى صورة هزيلة مضحكة عن جسر «اليكسندر» لأنه لمثل هذا الشخص يعهد هنا بإصلاح الأوابد التاريخية، وتسلم له مدينة ذات روعة فنية نادرة فهي مدينة الخلفاء، وآخر مدينة في الشرق. وذات يوم

أريد أن أنشر دراساتي هذه عن دمشق القديمة تحت هذا العنوان: «دمشق قبل الفانداليين» «Les Vandaleen»

آه.... ! سيتوجب علي فعل ذلك، وأذكر في هذه المناسبة: ذلك الرجل الفطن الذي قام بإصلاح مدينة «بيز» «PISE» القديمة فقد منع مرور العربات في ساحة «التعميد» «Batistese» وترك العشب ينمو بين بلاطات الفناء وذلك لكي يبقى لهذه البقعة النادرة بجمالها الجو الخاص بها الذي يذكر المشاهد بالعصور السابقة وإذن ألم يعد يوجد في فرنسا أشخاص يتمتعون ببعض الذوق الفني السليم كي يحتجوا على هذا العمل....؟

وبانتظار صدور مثل هذا الإحتجاج، أدعو جميع الفنانين في العالم لأن يلعنوا ذلك الرجل الذي قام (كما يقال) بتجميل دمشق.

ومعلوم أن هذا الرجل قد فوض على البلدية من قبل السلطات الفرنسية، التي تحميه و تدافع عنه مهما فعل، وبهذا الشكل لم يعد الدمشقيون أسياداً على مدينتهم... !

وقد وجدت بين قصاصات الصحف التي أضعها في علبة أسميها علبة الأكاذيب. موضوعاً نشرته صحيفة لوماتان Le MATIN وقد بدأ هذا الموضوع بالعبارة التالية: «إليكم هذه النبوءة، سوف لن يحدث في دمشق أي شيء رغم وجود الثوار الذين يزرعون الطرق كالألغام. فدمشق مدينة آمنة ومسالمة..»

وهذا نموذج عما يمكن للقارئ الفرنسي أن يعرفه عن مشاكل سورية، مساكين القراء الفرنسيين.... ! لأن الصحف تخدعهم... !

وإذا أرسلت لهذه الصحف مواضيع وتقارير حقيقية تتحدث بصدق عن حالة هذا البلد، فسترى بأن كل الصحف بمافيها اليمينية واليسارية، ومهما كان اتجاهها أو درجة تطرفها، كلها ترفض أن تنشر هذا المقال الصريح وعلى العكس نجد هذه الصحف نفسها تصدق بشكل عجيب أولئك الكاذبين الذين يكتبون آخر الأنباء المتعلقة بسوريا وهم جالسون بكل راحة إلى جانب الموقد في أحد الصالونات الأكاديمية وهناك بعض الرحالة المشهورين الذين قضوا في دمشق أكثر من أسبوع أمضوه على ضفاف نهر بردى ليعودوا بعد ذلك ويعتقدون بأنهم ملمون بالقضايا والشؤون السورية وليؤلفوا عنها مجلدات تباع بالجملة. ومثل هؤلاء يعتبرون سوريا مجرد منجم يجب استثماره واستغلال أرباحه الكثيرة التي يدرها ومهما تكن المتناقضات التي

يسمح هؤلاء لأنفسهم بأن يكتبوها، فأن أسماءهم وكثرة النسخ التي تطبع وتروج من كتبهم تعطيهم رصيداً لدى الجمهور الساذج الذي لايستطيع السفر إلى سوريا ليرى الأمور بنفسه على حقيقتها. ومنذ الأحداث الأخيرة التي جرت في سوريا أصبحت أفهم اكثر من أي وقت مضى أن الصحافة قد أصبحت مشروعاً للضحك على الناس وكل صحيفة تنشر من هذه الأحداث مايرضي زبائنها، أما الحقائق التي يمكن أن تصدمها فيجري مراقبتها وتنقيحها بعناية كبيرة. وإن لكل حزب مهما كانت وجهة نظره زعيم يديره هو بمثابة «الأب لوريكية» الذي يؤمن لهذه الصحيفة عادة اشتراكات إضافية عديدة مربحة لها أما المراسل الذي ينتمي لحزب «إيراسم» والذي ليس له أذنان إلا ليسمع بهما، وعينان إلا ليرى بواسطتهما وحس سليم إلا لكي يحكم بتعقل ويكون جزاء هذا إلقاء رسائله في سلة المهملات. آه.... ! كم نحن نتبجح بحرية الصحافة عندنا!! وكم نخالف هذه التعجبات التي تتطلب قبل كل شيء حرية التفكير وحرية التفكير تتطلب بعض التضحيات التي لايجسر إلا القليلون على القيام بها. فالصحيفة التي لاتنشر إلا الحقائق المجردة ستفقد زبائنها بمدة لاتزيد عن ثمانية أيام ذلك لأن الصحافة عندنا تتبع الرأي العام بدلاً من أن توجهه، وإذا أردنا الحقيقة نجد أن دمشق ليست بالمركز المسالم كما قالت هذه الصحيفة ومن تحقيقاتي وملاحظاتي اليومية يمكن أن أقول بأنه يوجد في سوريا حالياً جانبان لايمكن التوفيق بينهما وهما الثوار الذين يسيطرون على أكبر قسم من المدينة وبالمقابل هناك الفرنسيين وأنصارهم.

وهؤلاء الثوار لايوافقون أبداً على إلقاء سلامهم ولم يعد لهم أصلاً مايخافون أن يفقدوه، ولذا فهم لايتأثرون كثيراً من استمرار القتال. وهم يتلقون المساعدات من السوريين المقيمين في مصر وأميريكا، وإن تحسن الطقس يسمح لهم بأن يعسكروا خارج المدينة بدون مشقة. ويضاف إلى ذلك أن السكان الذين يكرهون الفرنسيين يؤيدونهم معنوياً وأغلب هؤلاء من الملاكين المهدمة أملاكهم والتجار المفلسين واللاجئين الذين لامأوى لهم ولاطعام... وعلى الدوام تلقى مسؤوليات النكبات. بحق أوبدون حق على عاتق الفرنسيين، فهذا الحقد قد انقلب إلى كره مستتر، لايمكنه أن يظهر في المدينة إلا على شكل سخرية في الصحافة الهزلية. بالإضافة إلى بعض المقالب التي يتعرض لها الفرنسيين بين وقت وآخر. إن الشرقي صبور بطبيعته لكن النار تمتد الآن تحت الرماد... ! ولاأريد أن أذكر هنا كبرهان على هذا إلا هذه الفقرات التي رواها لي أحد الشهود. إذ قال: إن الطالبات

الدمشقيات في إحدى المدارس الأميريكية في حي الصالحية يسرعن كل يوم لتخاطف الصحف من الباعة، وذلك لكي يعرفن عدد القتلى من الفرنسيين. وإنهن لايخفين ابتهاجهن من ذلك وعندما زار المسيو «دوجوفينيل» دمشق طل كثير منهن من النوافذ لكي يروه ماراً وكن يصرخن بشتائم هو الوحيد الذي لم يفهم معناها، ولقد كان لي بينهن صديقات حميمات منذ وقت قصير.

أما أولئك الذين يفعلون خارج المدينة مالايجرؤ أحد على فعله فيها. ألا وهم الثوار الذين شعر السكان نحوهم. بتعاطف خاص وعطف شديد وإن كلاً من هؤلاء السكان يضحك من أعمال الثوار التي يعاقبون عليها بالأعدام شنقاً، أحياناً ويظل يضحك حتى ليحين دوره. وعندها يدفع لهم أو يهرب منهم. لكنهم رغم ذلك يبقون محببين لأن الشعب يستهويه أن يتم قبض الضرائب من البخلاء، والأغنياء ومن المداهنين المرائين الذين يتلاعبون ويتعاونون مع الطرفين. أما هؤلاء الذين في الطرف الثاني، وهم الفرنسيون فلم يتدلوا منذ البداية أبداً، لكن كيف باستطاعتهم أن يفهموا هذا الشعب وهم معزولون في حي الصالحية لايرون ولايسمعون إلا الأمور المشوهة.

وهكذا يبقون شبه مخدرين بالخوف من الأفاعي الشامية التي يحتمل وجودها في أي

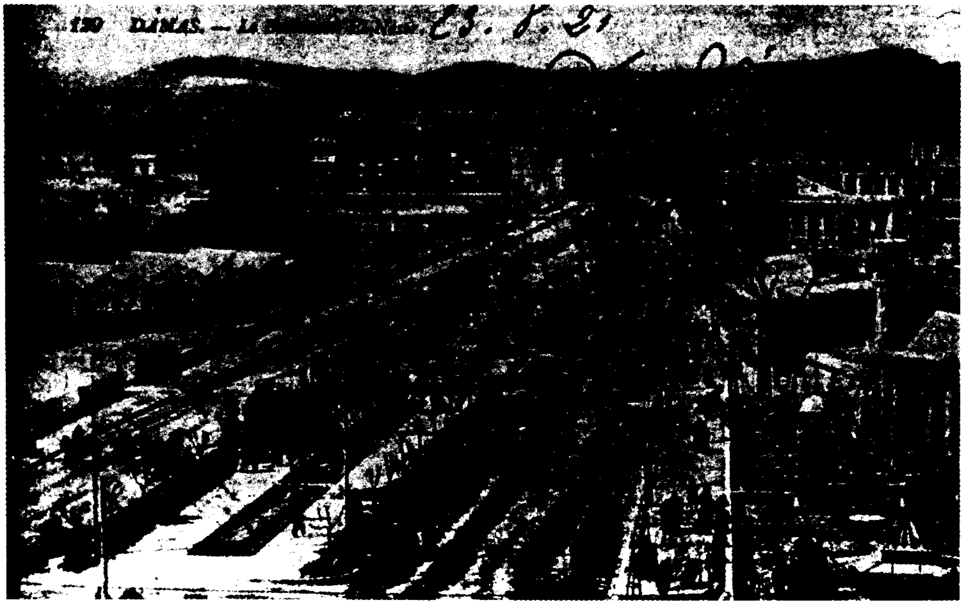

شارع النصر والصورة قبل العام ١٩٢١ حسب تاريخ إرسال البطاقة إلى باريس.

مكان وفي كل لحظة وهذا التعبير ليس من اختراعي أنا بل شائع هنا ومتداول وعام الإستعمال.

ولأنهم يحملون هذه العقلية فنراهم ملتفين بأجمعهم حول حماتهم الطبيعيين وهم العسكريون ونراهم يؤيدونهم في كل شيء وأغلب هؤلاء العسكريين قد أتو إلى سوريا على أمل الحياة فيها كحياة الحاميات في فرنسا وكان آخر ماينتظرونه فيها هو الحرب. وهنا أذكر خواطر ملازم فرنسي، . سمعتها منه على ظهر الباخرة، «لامارتين» «LAMARTAINE» فقد كان يهنئ نفسه بكل سلامة نية على خلاصة من الأخطار في مراكش. ويعتبر الفرنسيون أن السوريين هم المسؤولين عن هذه الحرب ويحاولون في بعض الأحيان تخويف الناس بكل غباء. ومنذ بضعة أيام، وفي مخزن مليء بالزبائن، سمعت من أحد «الكولونيلات» هذا القول:

«إن طريقة إخضاع دمشق هي بسيطة تماماً يجب تقسيم المدينة إلى قطاعات، فإذا حدث شيء ماضمن أحد هذه القطاعات أقوم بقصف شيء مافي قطاع آخر أو الرمي بالمدفعية عليه.»

وكان الناس يسمعون قوله هذا ويتبادلون نظرات السخرية متسائلين عند أي حد سيقف هذا المتبجح، والحق أن الفرنسيون يشبهون بهذا المسلك معلم المدرسة الذي هدم سمعته في الصف لنقص في شخصيته وأراد أن يعوض عن ذلك بمعاقبة التلاميذ بالضرب بينما يضحك التلاميذ خلسة. ويسخرون منه ويضربونه بالحصى.

كما أن هذه العقوبات التي تعرض بدون أية دراسة نفسية، تثير نوعاً من ردود الأفعال التي تعاكس بصورة مطلقة تلك التي كان حدوثها متوقع وإن الفرنسيون المدنيون يسيرون على نفس المنهاج فالمواظفون يواجهون الشعب بتعالي متناه يثير السخط في بعض الأحيان، وهم ليسوا قادرين على كسب ود هؤلاء الذين يحكمونهم، لأنهم لايريدون أن يحسبوا حساباً للسوري فيما إذا كان يفكر ويحس. . . أقول هذا وأنا متأكدة من أن أعنف وأقسى خيبة أمل تعرض لها السوريون بسبب فرنسا هي ذلك التعالي الغبي الذي أظهره تجاههم هؤلاء الحمقى. وأقول أن (الشخص الذكي لايحتقر أحداً من أبناء جنسه بل يحاول أن يفهمه. .) !

وهكذا نجد في الجانب الأيمن حقد عميق وكره أعمى وخيبات أمل في كل المجالات

وشعور حاد بالكرامة الوطنية، وفي الجانب الثاني نجد عدم الفهم، والغباء والإحتقار الأبله لشعب من المفروض أن نكون قد قدمنا إلى بلاده لتثقيفه لالقهره، عند هؤلاء أيضاً عدم الثقة وطباع سيئة وتصرفات أسوأ وإذن، فأن حياة مستديمة هادئة يعيشها هذين القطبين المتنافرين اللذين تصدر عنهما شرارات تشعل النار بصورة مستمرة مع العلم أنه كان من السهل أن يتفقا. وكان من السهل أن يتفهم الفرنسيون هذا الوضع ويتعايشون مع السوريين، فأبناء بلدي في فرنسا لطفاء تماماً كالسوريين في بلادهم، وإذن لم هذا الكره... ؟ بل لم هذه الحرب... ؟ ولماذا نرفض أن نمنحهم الإستقلال الذي يتغنى به تاريخنا في كل صفحة من صفحاته.. ؟

ستقول بأنهم سيقومون بحماقات، وأن السوريين سيقاتلون ويذبح بعضهم بعضاً كما قال بريان بسذاجة في خطابه الذي ألقاه في التاسع والعشرين من الشهر الماضي: «لن نترك سوريا ولن نتخلى عنها فإذا تركناها ستغطيها الحرائق وتجري فيها الدماء... !»

ياأصدقائي الدمشقيين.... ! هل سيحدث شيئاً من هذا... ؟

هذه الليلة سمعت لعلعة الرشاشات وفي الصباح كانت الطائرات قد طلعت عدة طلعات وذهبت المصفحات من جديد للقتال خارج المدينة. وقال لي شخص بأن القنصل الإنكليزي «S........» قد أبحر إلى مصر.

٤ نيسان ١٩٢٦

اليوم عيد الفصح عند الكاثوليك وقد أديت الصلاة القنصلية هذا الصباح في حي باب توما لدى المسيحيين الفرانسيسكان الذين هم في الغالب من الإيطاليين والإسبانيين لأن الفرنسيين الذين يتبعون هذا المذهب في الأراضي المقدسة يتناقصون شيئاً فشيئاً. وتشبه هذه الكنيسة مثيلاتها في نابولي لكن ذوق المشرفين عليها رديء للغاية لأنها كانت مليئة بالزهور والأواني الخزفية والورق المذهب والتماثيل المطلية بألوان متعددة عنيفة تجعلنا نعتقد بأننا في بلد للمشعوذين وقد حجزت بعض المقاعد باسم الجالية الفرنسية، وبدأ الفناء يمتلىء شيئاً فشيئاً بالضباط الذين سيذهبون إلى جبل الدروز في خلال خمسة عشر يوماً فكم واحد منهم سيعود إلينا سالماً.. ؟ هذا سؤال مقلق حقاً... !

وصدرت هتافات وتصفيقات على الطريقة الرومانية تدل على وصول الموكب...

ودخل السيد «آليب» وكان يحمل وشاحاً ثقيلاً ملوناً بثلاثة آلوان: الأحمر والأخضر والأصفر، وترافقه حاشية من السيدات المتباهيات للغاية وجلس إلى اليسار الجنرال «أنديريا» الذي يشبه (بمنظره الجانبي) وجه فارس ضال وكان يرافقه الضابط المكلف بحراسته الذي يشبه الممثل الهزلي «كوكلان» وكان هناك جمهور من السفهاء يتدافعون لكي يروا هؤلاء الرسميين ومرافقيهم، يحيطوا بهم لكي لاتفوتهم مشاهدة أدنى حركة من حركاتهم، فهؤلاء بالنسبة لهم (مشهد عظيم) يجب ألا يهملوا رؤيته، وكانت النساء يمددن رؤوسهن كدجاجات فضوليات لكي يتمكن من النقنقة والنقد بعض الشيء وجلس المندوب السامي السيد «بيير آليب» فوق كرسي الصلاة بهيأة تشبه هيأة الممثل الناجح السعيد بنصره ونجاحه وكان ينظر نحو الأعلى وكأنه يشُهد الله على مايقوم به أو ليشكره على ماوصل إليه. وفي ذلك الوقت استسلم الجميع إلى نوع من الخشوع الديبلوماسي، لم يكن يعكره إلا سلوك مدير الشرطة المصطنع الذي كان من مكانه يفتش بنظراته التي تشبه نظرات الفهد، عن الأشخاص الذين يشتبه بأنهم يحملون بعض القنابل في جيوبهم. . . . ! وبعد أن انتهى القداس، خرج الموكب بتصفيق قوي، وعاد من جديد شارع باب توما يمتلىء بالنساء ذوات الشعور الطويلة والرجال ذوي الطرابيش. «TARBOUCHES» وقد سار رجال الشرطة كالعادة أمام موكب السيارات الرسمي، وبدت على وجوه راكبي هذه السيارات أمارات الدهشة من أن يهتف بحياتهم هنا في دمشق بالذات. . . ! ولكن بمقدار ماكانوا يبتعدون عن مكان الاحتفال ويقتربون من نهاية الشارع المستقيم كانوا يقابلون عند مرورهم بصمت بارد، ويخيل إلي أن السائقين زادوا عندئذ في سرعة السيارات. . . !

٥ نيسان ١٩٢٦

أثناء قيامي اليوم بزيارة إلى أحد وجهاء المدينة قص علينا طبيبين عائدين من مستشفى «المزة» MEZZE فقبض عليهم حوالي مئتين من الثوار عند سفح قلعة «غورو» وقضيا ليلة كاملة عند الثوار الذين كانوا يصرخون بهم ثائرين ويحركون أيديهم بعنف وهم ينظفون بنادقهم، وإذن كيف يمكن إنقاذهما. . . . ؟ هل نستعين بالشرطة أم بالجيش. . . ؟ لكن ذلك قد يتسبب بقتلهما. . ! فقام الوجيه بالإتصال برجل معروف من قبل الثوار وجعله يدعي بأن الناس بحاجة ماسة لخدمات هذين الطبيبين في معالجة المرضى المخطرين، ويطلب منهم التكرم

بإطلاق سراحهما وأنه لامانع من استخدامهما لدى الثوار إذا استدعى الأمر ذلك. . . !
وعندما أطلق الثوار سراحهما مقابل عدد قليل من الليرات الذهبية فجاء يشكرا هذا الوجيه أثناء زيارتي له، وعانقاه والتأثر بادي على وجوجهما. تصلنا بين وقت وآخر مع العائدين من الجبل أنباء عن الحرب التي يخوضها الدروز هناك، إذ لم أعد أصدق ماتقوله الصحف عن هذا الأمر وصرت في هذا البلد أشك بأخبارها ولاأستطيع القضاء على حالة الشك هذه. فقد قيل لنا بأن الجنرال غاملان «GAMELLIN» طلب تعزيزات قوية لمتابعة المعارك التي كان يعرف مقدار قساوتها ففي بعض المناطق هناك يعتصم الدروز مع عائلاتهم في كهوف حجرية، حتى أن ملاحقتهم في منطقة «لجة» «Lejjah» الصخرية تعتبر كمحاولة البحث عن الإبرة الضائعة في كومة من التبن. هذا المساء كان عدد من الضباط يتحدثون عن مواضيع مماثلة مع أحد رجال الدين الأذكياء المتمرسين بقضايا هذه البلاد، فهؤلاء الضباط أرباب عائلات صالحين وبسطاء وشجعان وإنهم من تعداد الضباط الذين لم ينالوا أية ترقية بالقرعة أو لإنتقاء، وقد قال لهم هذا الراهب بلطافة لم تخل من بعض المكر إن بيته الريفي قد نهب من قبل الشركس فقالوا بحزم:

- لم يكن على رأسهم ضباط قادة.

أجاب الراهب مبتسماً:

- بلا، لكنهم لايطيعونهم.

فنظر الضباط إلى بعضهم البعض بارتباك، ثم اقترح احدهم قائلاً:

- إذن يمكن أن تتم حراسة البيت بمفرزة من الجند. . . !

فرد عليه الراهب:

- ذلك سيزيد الطين بلة.

كان هذا الراهب بلاشك يعرف بحادثة «أمير دمر» وآخرين غيره ولذا أوكل مهمة حراسة بيته إلى بستاني مسلم، لأنه وجد أن ذلك آأمن له، وقد سمعته ينهي حديثه مع الضباط بقوله:

- يجب أن تنتهي هذه الحرب. . . فقد طالت كثيراً. . . . !

ومن الواضح أن هذا هو رأي الضباط الشبان الشجعان أيضاً الذين سيذهبون إلى الجبل ويخاطرون بأنفسهم بينما يجلس المسؤولون الحقيقيون في الظل بكل هدوء.

٦ نيسان ١٩٢٦

أعلن في مختلف وسائل الإعلام عن المؤتمر العام للآثار لكن لن يجري هذا المؤتمر في دمشق بسبب أعمال الثوار فهم ينتظرونه الآن لكي يتابعوا القصف وتضج المدينة وخاصة في الصباح الباكر، وكي يعوض الثوار ذلك فهم الأن يتابعون هجماتهم على حي الصالحية فقد نزلوا من قواعدهم في جبل قاسيون وأمطروا حافلة «الترامواي» بالرصاص ثم دفعوها بعدما حلوا مكابحها لتنزل بسرعة مخيفة في منحدر المهاجرين.

٧ نيسان ١٩٢٦

هذا الصباح عندما كنت ذاهبة إلى المدينة، انطلقت فجأة، قريباً من المكان الذي كنت فيه، طلقات نارية عديدة توحي أصواتها بأنها ناشبة في داخل الحي نفسه، والقصة هي كالتالي لقد دخل خمسون ثائراً في وضح النهار إلى سوق «البزورية» القريب منا يالها من جرأة كبيرة عند الثوار. . . . ! وقد قاموا منذ مدة قصيرة باختطاف شقيق مدير الشرطة السابق وأحد أقربائه أيضاً في الطابق الأول في المبنى الذي يسكنان فيه وأراد أصحاب المحلات في البزورية أن يغلقوا مخازنهم خوفاً من اعتداء الثوار عليهم، لكن الثوار أمروهم بابقائها مفتوحة وأن لاخوف أبداً، وقاموا بتهدئة الأشخاص الخائفين باستخدام كلمات لطيفة صفق لها الكثيرون ولم يمس الثوار أحد قط بأي أذى. فقام جنود الحرس السوريين بإطلاق النار في الهواء وظهر الشركس «المناصرين لنا»فبدأ تبادل إطلاق النار مع الثوار وكان رئيس الشرطة خائفاً للغاية من هذه المناوشة لأن السيد «آليب» كان في ذلك الوقت يقوم بزيارة إلى «المتحف العربي» و «الاكاديمية» LACADEMIE وكانت سيارته تقف عند الباب فقام مدير الشرطة بإرسال بعض رجال الحرس بسرعة. ولكن الثوار لايريدون قتل هذه الفريسة الضخمة لأنها تجر عليهم مضايقات كثيرة.

٨ نيسان ١٩٢٦

اليوم وفي سوق الطويلة كان كل شارع مجاور محروساً بجنديين مسلمين من الشركس أو الأرمن. وفي سوق الحميدية كان الجنرال «أنديريا» يتنزه بكل حرية ماشياً على قدميه وبرفقته سيدة وضابط لكنهم لم يبتعدوا أكثر من محل «سركيس» لأن مركزهم قيدهم بالتنقل القليل فقط. وهذا المساء قيل لي بأن الخط الحديدي الواصل إلى درعا قد قطع من جديد.

٩ نيسان ١٩٢٦

هذا البلد جدير حقاً بأن يلهم «ادموند أبوت» "EDMOND ABOUT" ثان. إن وزير الداخلية، السيد "...P de F" الذي لايزوره أحد من المراجعين أو الزبائن، ومن قلة عمله في مكتبه ينتابه الملل بلاشك، فقام بالتنكر وارتدى زي «ملك الجبال» أي زي الشركس لكي يقوم مع بعض رفاقه بالقتال في بساتين الغوطة، كل ليلة، ثم يعودون في الصباح ممزقي الثياب متعبين، وقد تلقى هذا الوزير هدية من رفاقه العتاة كدليل على اعجابهم به وهي عبارة عن خنجر أخذوه من أحد الثوار.. وسيقول البعض بأن الرومانتيكية قد ماتت... !

١٠ نيسان ١٩٢٦

لقد امتلأ حي المهاجرين الآن بالثوار الذين نزلوا إليه من جبل قاسيون، ولهذا فإن «الميادنة» الذي التجأوا إليه وجودا أنفسهم مجبرين على العودة الى المدينة.

١١ نيسان ١٩٢٦

شاهد عائد من المجدل "MEJEL" التي احتلتها قواتنا، قال بأن المنطقة التي تقع بها هذه القرية قد أصبحت مقبرة جماعية للنساء والأطفال والكهول... وأن من بقوا أحياءً من الأهالي قد هربوا من قراهم بعد أن قصفت بالقنابل...! وأرادوا عبور نهر الأردن من قرية بانياس، لكن الثوار كانوا قد دمروا الجسر من قبل، ولذا قذفوا أنفسهم في الماء، فأخذهم التيار السريع وغرقواو ماتوا جميعاً، وفي تلك المناطق، عثر في النهر على مئة وأربعين جثة وإن التاريخ يبدأ من جديد معيداً نفسه، في تلك الأماكن، ألم يرو «يوسف» بأن اليهود قذفوا بأنفسهم في هذا النهر كي ينجوا من جنود القائد «ڤيسبازيان» "VESPASIAN" فغرقوا وماتوا فيه بالآلاف...!؟

يعُتقد بأن الفرنسيين سيحتلون «السويداء» خلال فترة لاتتجاوز العشرة أيام. وقد وعدوا أنفسهم بذلك، لكن يقال أكثر من هذا بأنهم سيتقدمون في الجبل، وأن الدروز سيهربون وهناك رتل من السيارات التموينية "CAMIONNETTES" سيغادر هذا المساء ليصل الى «إزرع».

١٢ نيسان ١٩٢٦

بدأت من جديد الاشاعات المقلقة تملأ المدينة، ومنها أن المسلمين سيغتنمون فرصة ذهاب الوحدات العسكرية الى جبل الدروز، لكي يثيروا أعمال العصيان بعد عيد الفطر. وبما أن المسلمين ليسوا ساذجين الى الحد الذي يكشفون به مسبقاً لرجال الأمن عما ينوون فعله، لهذا فإن هذه الإشاعات لايمكن أن تكون صادرة إلا عن بعض الأوساط التي اعتادت على تلفيق مثل هذه الأمور، وهي بالطبع الأوساط المسيحية. . . ! إن الكارثة على وشك الوقوع. إذ تجري الأحاديث والأخبار عن القطارات المنسوفة وعن ، والنقص في الطحين والقيام بمذابح للخلاص من هذه الأوضاع المأساوية ولكن هذه هي المرة العشرون في الأشهر الستة الأخيرة، التي أسمع فيها مثل هذه الاشاعات ومع ذلك مازال رأسي بين كتفي، ولم أضطر حتى الآن لأكل الفئران. .

١٣ نيسان ١٩٢٦

أتى عيد الفطر، لكنه هذه السنة حزيناً تماماً، فجميع المحلات مغلقة الآن، بينما كانت في السنة الماضية مزينة بأحلى الزينات، ولانجد بهجة العيد في وجه أحد، اللهم إلا بعض الأطفال الذين يمرحون ويلعبون بعض الشيء قرب محلات باعة السكر، ويلبسون ملابسهم المسرحية الصغيرة وهيئة الفقر والمسكنة تبدو عليهم رغم كل شيء وطوال النهار ظلت قذائف المدافع ذات العيار 75م تختلط مع طلقات العيد الخمس والعشرين التقليدية هنا، والتي تطلق عادة في وقت كل صلاة. وظلت المدافع الفرنسية تصب حممها على «الكسوة» حتى في هذا اليوم الذي يعتبر بالنسبة للمسلمين عيد الفصح لنا، وهذا ما أحزنني كثيراً. واحتفاءاً بهذا العيد، قمت ببعض الزيارات الكئيبة وقد ردوها لي حسب التقاليد المتبعة هنا وقد أذاع المندوب السامي «بيير آليب» أنه سيستقبل المهنئين بمناسبة العيد بصفته رئيس دولة اسلامية، وقد دعا رجال السلطة للقدوم وتهنئته، كما لو كان أحد الباشاوات الكبار. . . ! وهو يعتقد بأن هذا الأمر هو وسيلة ديبلوماسية، ولو أن بعض الناس يصرحون بأنه راغب حقاً وبكل نية صادقة في إحلال السلام في المنطقة، ولكن الدمشقيين شعب مرفه يملك حس الدعابة، وأنا التي لست دمشقية بالتبني، لا أقدر إلا أن أعتبر هذا التصريح مهلهلاً رثاً بعض الشيء. . . !

١٤ نيسان ١٩٢٦

أعلن بأن عصابة عكاش قدمت طاعتها للسلطة، وخضعت للنظام، وجاء بناء على وساطة أحد الحياديين وهو السيد "......D" البلجيكي، مدير حافلات «الترامواي» هنا، لكن هذا الإعلان لم يذكر رئيس العصابة، وقد نشر الجنرال «انديريا» تحذيراً لمالكي الكروم التي تحيط بالخط الحديدي الحجازي، بأن يمنعوا الثوار من الالتجاء الى كرومهم، والاختباء فيها بغية اطلاق النار على القطارات، وإلا فسيصار الى قلع هذه الكروم من جذورها وإذا حدث ذلك، فلن نتمكن في المستقبل من الحصول على العنب الكنعاني الذي لا يزرع إلا في تلك المناطق، وإذا قلع المشمس والعنب فما الذي سيبقى في دمشق. . ؟ وتم اليوم أيضاً جلب عدد آخر من الرجال الجرحى والأولاد القتلى، نتيجة عدد آخر من الاشتباكات التي حدثت في باب الجابية في الساعة الواحدة من هذه الليلة، وقد انطلقت البنادق من تلقاء نفسها، وهذا مايدل على أن أعصاب الجنود ثائرة تماماً، فهم يعتقدون بأن الخطر يهددهم في كل مكان، ولذا فهم يطلقون النار لأتفه الاسباب، ويالتعاسة ذلك الشخص الذي يقف في خط سير الرصاصات . . . !

١٥ نيسان ١٩٢٦

منذ ستة أشهر يتدفق السواح الى دمشق أفواجاً يأتون من النمسا وهنغاريا ويوغوسلافيا، حيث يبيعون هنا بطاقاتهم البريدية ويتقبلون الدعوة بمجرد غمزهم بالعين. . . هذا الوباء مع وجود الحرب. . . هو هو!! يشتد كثيراً هذه المرة. . . دعونا لانبحث كثيراً عن السبب، فيبدو أن اجهزة الاستخبارات التي تتجسس حتى على الفرنسيين الصالحين، قد وجدت ماتصبو اليه في هؤلاء العصافير المهاجرين، لأنها تسمح لهم بالذهاب أينما شاء لهم حتى الى جبل الدورز. وقد استطاع أحدهم أن يتحبب إلينا بكرمه الكثير إذ قال لنا بأنه قد وصل الى دمشق قادماً من القدس، وبأنه شاهد هناك «المسيو دو جوڤينيل» الذي لقي كما كان متوقعاً له، نفس الاستقبال الذي لقيه بلفور في دمشق «في شهر آذار الماضي» فقد أغلقت المحلات، وأضرب الناس، وعلت الاحتجاجات، وبهذه تتحقق القاعدة القائلة «اليوم لي وغد لك»[١]

وأكد محدثنا بأن «دو جوڤينيل» لم يعجبه كثيراً لأنه حقوقي زيادة عن اللزوم، بعكس

(١) وردت باللاتينية: "HODIE MIHI, CROS TIBI"

المسيو «ساراي» الذي يعتبر رجلاً نشيطاً حقاً، لأنه يجيد القصف بالقنابل. وعندما سمعت منه هذا التعليق سألته فقلت:

- أين تعلمت الاقتصاد السياسي؟

قال: - في برلين.

وقد أراد أن يزور حي «الميدان» رغم أن ضابطاً فرنسياً نصحه بأن يقلع عن فكرته هذه، ولكن كل شيء ممكن بالنسبة للحياديين، إذ أن سيدارة الطالب التي كان يرتديها، والتي تشبه في مظهرها قبعة النبلاء الألمان، كانت تمكنه من المرور في أي مكان، بدون أن يقوم أحد بتوقيفه، وقال إنه قد تمكن من الوصول حتى منطقة «القدم» بين عدد من البنادق الانكليزية التي كانت تسدد عليه من منزل أو من آخر. حقاً، إني أعجب الآن فيما إذا كان قد بقي أحد في الميدان... ! فاليوم حرق مسجد كان يتم اطلاق النار منه على الطائرات وكذا دمرت كل البيوت المحيطة فيه، وقد فرغ الحي من الناس ونهبت جميع البيوت التي كانت قائمة. ورأيت عن بعد انفجار قنبلتي طائرة، وقد سبب ذلك موت بعض المصلين. وغالباً مايكون الأولاد الأشقياء الذي يلعبون في الشوارع والأزقة، ضحايا لقلة سيطرة الجنود على أعصابهم و«عقولهم» فمثلاً، قام جندي بقتل ولد صغير مسكين كان يقوم بتفجير مفرقعات اللعب في عيد الفطر، وهذه عادة الأولاد التقليدية وقد حدث ذلك في حي المهاجرين وهناك ولد آخر صعد على شجرة في حي «باب توما» ليقطف بعض ثمار اللوز الطازجة فقتله أحد الجنود بالرصاص، ظناً منه أنه واحد من الثوار.

١٦ نيسان ١٩٢٦

زارني اليوم بعض الاصدقاء الشباب المسلمين، الذين يشبهون في أمور كثيرة شبابنا الفرنسي الذي ترعرع منذ بضع سنوات في العائلات الريفية المحترمة. ولهذا أشعر عندما أكلمهم بأني أرى من جديد أخوتي وأبناء عمي في أيام الطفولة.. لأنكم تشبهون هؤلاء فعلاً، ياعزيزي "N..." يامن كنت تقرأ معي قصة «النسر الصغير» وأنت ترتجف غضباً من خيانات «ميترنيش» "METTERNICH" يامن كنت تعزف لي برقة الألحان الفرنسية التي أفضلها على الناي...

وأنت أيها الأمير "A..." أنت الذي تجد اللذات في مناقشة الفلسفة، وكنا كلانا نحافظ

على آرائنا، وأصارحك بأن إدراكك السمح للحياة يؤثر تماماً، لأني أجد فيه بعد طول غياب، أحد التقاليد القديمة التي يمتاز بها العرق الذي أنتمي إليه. . و أنت أيضاً يادكتور . . . يا عنيف . . . "CH.." يامن تعبر روح السخرية عندك عن هذا التناقض المضحك الذي لمسته عند البشر، وخاصة عندما أرادوا من ابنتك الصغيرة أن تستظهر حياة القديسة «سان بونيفاس» "SAINT BONIFACE" في الوقت الذي تجهل فيه حياة أجدادها مثل الوليد وصلاح الدين كل مساء نسمع أزيز رصاص الرشاشات قريباً من باب شرقي، ويقال أنه يوجد في هذه الأيام الأخيرة مؤتمر للثوار في الغوطة، وإنهم سيقومون بمكافئة المحسن ومعاقبة المسيء تماماً كما تفعل فرنسا وإن لهؤلاء الثوار أبطالهم الذين اشتهروا في القتال بشجاعة وبسالة، وهاهم الشبان يتطوعون مع الثوار طمعاً بالوصول الى هذا المجد.

١٧ نيسان ١٩٢٦

هذا الصباح، استمر قصف القنابل عيار 75 م فوق الشارع المستقيم، أو . . . !! لقد دفعت الضريبة، هؤلاء الباعة العجيبون في دمشق، يحملون فوق رؤوسهم أطباقاً مليئة بالزهور، وقد بدأوا يظهرون في حيّنا الآن. قابلت اثنين منهم، كانوا يحملون شجيرات الورد الصغيرة التي تتفتح زهورها، أردت أن أشتري منهما زهرة صغيرة، فنظرا الي بعين الاحتقار، وقال كبيرهما للأصغر، وهو يخرج الكلام من بين أسنانه: «فرنساوية» "Franwaouia" ثم انطلقا في طريقهما بدون أن يعيراني أي التفاتة أو ينطقا بأية كلمة. !

١٨ نيسان ١٩٢٦

حدث مساء البارحة في وقت متأخر قصف عنيف بالقنابل وفي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم، سمعت انفجارات ثقيلة، وثبت لي نبأ تهديم مسجدين قديمين في حي الميدان، لأنه تم اطلاق النار من واحد منهما على الضباط. ويقال إنه لايوجد بين الفرنسيين في دمشق إلا شخصين يمكن أن يبكيا بسبب ذلك وهما السيد دو لوري "M. de lorey" وأنا.

١٩ نيسان ١٩٢٦

بدأ اليوم من جديد قصف عنيف لحي الميدان ومنطقة برزة، وإن الرشاشات التي وصلت حديثاً قد بدأت تستخدم وأسمعتنا صوتها الذي يشبه قرقرة النارجيلة إذ تنشر الآن سبحاتها

وكأنها لعبة ينبغي تجربتها. بدأ يتفشى مرض في المدينة، وهو حمى تدوم ثلاثة أيام، ومن الصعب أن يعالج المرء نفسه بنفسه، ولم يعد يوجد أطباء في المدينة، هرب أغلبهم ولم يبق إلا بعض الأطباء المسلمين، وهؤلاء أقل ثروة من غيرهم مما يجعلهم بمنجى عن دفع «الهبات المجانية» للثوار والتي هي مفروضة على الأطباء الآخرين.

٢١ نيسان ١٩٢٦

أصدرت الحكومة منشوراً عممته على مكاتب موظفي الدولة يحضهم على الامتناع عن التفوه بأية كلمة تتعلق بشؤون الجيش وتحركاته وقضايا الحرب طيلة هذا الصباح ظلت الطائرات تروح وتجيء وتقصف القرى المجاورة، وساهمت في القصف المدافع الثقيلة، وعادت قصص الاعدامات بالشنق تطفو على ساحة الأحداث من جديد، وقد نفذ حكم الاعدام شنقاً اليوم بخمسة من ثوار جدد وإذا أردتم زيادة في التفاصيل فها هي: لقد تم بناء مشنقة خاصة قادرة على شنق مجموعة أشخاص دفعة واحدة، وإن أكبر المعلقين كان عمره لايتجاوز السادسة والعشرين وها نحن نرى التعقل، لا . . بل الانسانية، وقد يظهر من عند حكامنا، إذ منع تصوير الاعدامات هذه المرة، وصودرت آلات التصوير أيضاً، وقدشوهد الراهب "N..." وهو يستعيد آلة تصويره، بعد أن صودرت منه وتم الاحتفاظ بالفيلم، حتى أن المصور «ستيروني» الخاص بتصوير أمور القصر، لم يمنح هذه المرة أية ميزة خاصة، لقد أصبح المشنوقين وصور التدمير والخراب موضوعان مثيران للشغب.

يظهر أن للمراقبة البريدية بعض الفوائد، وذلك حين يقوم أفرادها بتسجيل الانتقادات الواردة في الرسائل بكل أمانة، وجمعها، ولاشك سينتهي بي الأمر أخيراً الى المصالحة مع هذه الرقابة.

من المقرر أن ينفذ حكم الاعدام هذا المساء ببعض الأسرى المهمين، وذلك رمياً بالرصاص في مبنى القلعة، وبين هؤلاء بلاشك: ذلك الشاب الطويل، «الوجيه» الذي شاهدت رجال الشرطة يقودونه قرب الجامع الأموي الكبير في أحد الأيام الأخيرة. . إن صورته لا تفارق خيالي، وهو يلبس الزي الكاكي الأصفر ويضع على رأسه «سُلُك» ذو المكعبات البيضاء والحمراء كالتي يرتديها بعض البدو هنا وكان مكبل اليدين بالأغلال، وهيأته توحي بالحزن وهو يقاد بين سجانيه كمحارب أسطوري قام بارتكاب الأخطاء فعاقبته الآلهة

بتسليمه لأيدي الجان الملاعين، ولم يعطه شبابه الغض الوقت الكافي ليضع على وجهه قناعاً من اللامبالاة، لكن حساسيته ظهرت بوضوح كامل، إذ كان يبكي تحت الحجاب الذي يضعه على رأسه.

٢١ نيسان ١٩٢٦

غادر الجنرال أنديريا دمشق متوجهاً الى جبل الدروز وقد أوردت جريدة «لاسيري» هذا الخبر بطريقة مضحكة، حيث بدأت بالعبارة التي تنتهي بها عادة الكلمات التأبينية وهي: «وداعاً أيها الجنرال... ! وهذه العبارة تجعل القارئ يخرج منديله من جيبه... وتنهي الصحيفة خبرها بعبارة رثاء شائعة كثر استعمالها وهي: «إن بعضاً منا يذهب معك..!» وهنا يتهدج الناس الذين أخرجوا مناديلهم من جيوبهم بالبكاء وتذرف دموعهم، وقد أشار الكاتب الى اسمه بالحرفين: "G. B.." وفي عيد الفصح، أدرجت الصحيفة نفسها نبأ يقول:

«إن المعجزة قد تحققت في دمشق»

وتعني هذه العبارة أن صانع المعجزات الجديد هو السيد «بيير أليب»، وقد حقق جمع المواطنين بصلاة واحدة شرّفها المندوب السامي الفرنسي بحضوره. وهذه العبارة هي صورة طبق الأصل عما نشرته الصحيفة، وإن هذا الكلام لايتلائم مع الحقيقة ولامع رأي الشعب.

٢٢ نيسان ١٩٢٦

اشتكى إلي أشخاص مستقيمون بسطاء من فداحة الضرائب التي تثقل كاهلهم، بعد أن أوصلتهم الحرب الى هاوية الدمار، فمستخدم يربح على الأكثر سبع ليرات ذهبية شهرياً، ويعيل أسرة فيها أربعة أطفال يجد نفسه ملزماً بدفع ثلاثين ليرة ذهبية في السنة، أي مقدار ثلث دخله، كضرائب وغرامات مثل الضريبة الشخصية وضريبة الاستخدام، وغرامة التعويضات عن القصف والحوادث... الى آخر ماهنالك إن كل المواطنين منزعجون متذمرون لذلك، وصديقتنا السيدة "Z...." التي تمكنت من بناء منزل بسيط بصعوبة، تدفع عنه ضريبة توازي أجرى بيت جديد، وهذا بصرف النظر عن الضريبة الشخصية التي ترتفع الى عشر ليرات سورية، وأهالي دمشق يشعرون بشيء يسحقهم بدون أن يأتي أحد لنجدتهم وأن المسيحيون هم الذين يقولون ذلك هذا وقد ابتدأ الجنرال ڤاليبه "VALLIER" يثبت

حكمه في دمشق، فابتداء من الصباح الباكر قصفت الطائرات والمدافع بكثرة، وكان القصف المدفعي ينطلق من «حصن غورو» ومن معمل الزجاج، وقد رافقه أزيز رصاص الرشاشات وهدير المصفحات التي كانت تقصف بدورها. . .! وعند كل انفجار كانت تسمع أصوات عواء يائسة كانت تطلقها الكلاب الضالة الجريحة. . وكان هذا شيء مأساوي مفجع. وفي الساعة السادسة صباحاً احتدمت معركة عنيفة، يقال أن قرى حرستا وبرزة والقابون قد تهدمت بكاملها من جراء القصف وفي الساعة التاسعة عادت المعزوفة المزعجة، وقد سُمِعت معها أصوات انفجارات قوية منتظمة.

٢٣ نيسان ١٩٢٦

عادت مواكب «تغلات فالاسار» "Teglath PHalasiar" لتسير في شوارع المدينة، حيث رأينا اليوم واحداً منها وقد جاء هؤلاء النازحين من القرى المهدمة حديثاً ويسيرون أرتالاً وجماعات، فها هي الحمير الصغيرة المستسلمة التي تحمل أثاثاً منهوباً، وتجهيزات منامة ووسائد ومفارش كالعادة، وهذا مايؤكد أن الشركسي يعتقد أن شرفه قد أهين إذا لم ينهب. . .! في الساعة الواحدة من صباح هذا اليوم هوجم الحي اليهودي من قبل عصابات الثوار، وروت لنا إحدى السيدات من ذلك الحي بأن الثوار دخلوا على بيتها عن طريق السطح والسلالم، وقالت بأنهم نزلوا الى باحته الداخلية وفتحوا الباب، وقد سمحوا لها ولزوجها بكل أخلاق ونبل أن يرتديا ملابسهما، قبل يواجهوهما ويطلبوا منهما دفع الضريبة المعروفة، ولقد أجابت بأنها لاتملك أي مال فقاموا عند ذلك بتهديدها، ثم تدخلت جارتها في الأمر، فأسروا بعض الرهائن، وعصبوا عيونهم وكانت النسوة يصرخن، تماماً كما فعلت جداتهن في الماضي عند «احتلال القدس» وفي هذه الليلة تحولت كل الجدران الى «حائط المبكى» ولم يظهر أي جندي في تلك المنطقة.

٢٤ نيسان ١٩٢٦

يجري الكلام الآن عن قرب عودة بعض أصدقائنا المنفيين الى السلطة، والحق أن الأسلوب الذي نعامل به هذه البلاد يذكرني بلعبة الطابات التي يلعبها القرويون في الأعياد الريفية عندنا، حين كان يتم اسقاط بعض الدمى، ثم لا تلبث أن ترتفع بضع لحظات حتى تسقط مرة أخرى بتأثير الضربات التي تنهال عليها، لكن لاأعرف هل أن هذه اللعبة تستهوي

السوريين أم لا . . . . !؟. تم منع توزيع صحيفة «لو فينيكس» "le PHE´NIX" التي تصدر في مصر باللغة الفرنسية، وترأس تحريرها «السيدة سانت بوان» 'Mme Saint Point" وهي إحدى حفيدات الشاعر الشهير «لامارتين» وصديقة الشرق الأولى، وقد ارتكبت هذه الصحيفة الخطأ الذي لايغتفر، وذلك حين قالت الحقيقة الناصعة الغير مزيفة، متمشية في ذلك مع تقاليد ذلك الشخص الذي تخلد روحه في السماء، ولأنها أيضاً نشرت احتجاجاً على قصف دمشق بالقنابل، بقلم «كلود فاريير» "Cloude Farére" وإن كل الشرفاء لايستطيعون إلا أن يصفقوا لهذا الكلام.

٢٥ نيسان ١٩٢٦

أعلن عن احتلال السويداء من قبل قواتنا.

٢٦ نيسان ١٩٢٦

روى الكوماندان "G...." بأن السويداء قد طوقت بجيش تعداده من 5 الى 6000 درزي، وأن المعركة قد استمرت ست ساعات ويقال أن خسائرها كانت 300 جريحاً و50 قتيلاً تغديت اليوم مع شيخ درزي من الحرمون اسمه "K. A.S..." وهو شخص لطيف وكريم، ترى من أي عرق هم زعماء الدروز هؤلاء. . . !؟ وكان العشاء مسلياً جداً، وكان الشيخ يقشر البرتقال ويقدمه لي على الطريقة الشرقية.

وأثناء تناولنا الوجبة، وصل الى الفندق ضباط متعبون من الحرارة والمسير الطويل، وقام الشيخ بكل لطف، بإرسال برتقالة مقشرة لواحد منهم، إذ كان الضابط قد خرج بلباس النوم، ولم يرد عليه حتى بكلمة شكر، وكان الباقون ينظرون نظرة عدائية وبسوء نية واضحة الى ابنة وطنهم هذه التي تجرؤ على مصادقة ومجالسة أهل هذه البلاد. . . ! الشيخ "K..." من أهالي مجدل شمس "Medjel cham" وهو رجل مستقيم تماماً، وتم نفيه الى تدمر ثم أعطى وعداً بألا يقاتلنا أبداً، فأطلق سراحه وقد حافظ على وعده بكل دقة رغم أن بيته قد أحرق وأن بعض أقاربه وذويه قد قتلوا في المعارك. . . ! وها هو الآن ينتظر في دمشق مع عائلته وولده الجميل الذي يشبه ملك صغير وقد سمح لي بأن أرسم سيفه القديم الرائع الذي وصفه مازحاً أنه صائم منذ تسعة أشهر، وقدنذر على نفسه وعداً، مثل ايزابيل ملكة «كاستيل» بأن لايبدل عمامته قبل أن أن يعم السلام بين أبناء وطنه، ولذا اعتذر لي عن «وساخة» عمامته بعض

الشيء، وهو يعتقد بأنه من الخطر على الفرنسيين أن يدخلوا الى الجبل بعد أن التجأ الدروز الى «لجة» "Lejjah" المنيعة وقد أكد لي الدروز بأنهم لايمكن أبداً أن يسلّموا الدكتور شهبندر الى الفرنسيين لأنه ضيف عندهم تسري في دمشق الآن اشاعة تقول أن هذا الأخير، أي الدكتور شهبندر، قد قطع يد رسول سوري كان يحمل له مقترحات الصلح مع الفرنسيين[1] وذلك بعد أن خدره بالكلورفورم، وأظن أن هذه الإشاعة بعيدة عن التصديق، ولو أن هذا العقاب هو الذي يفرض عادة على الخونة عند الدروز. . !

٢٧ نيسان ١٩٢٦

هذا الداماد نامي بيك، الذي سيعين رئيس الحكومة السورية. .

ويقول الناس بأن هذا الشخص لن يكون أكثر من واجهة يحكم ورائها الفرنسيون.

إن عقلية الجنرال «اندريا» وطريقته هذه المرة مع الدروز تبدو بسيطة، وإن نداءه قد صيغ بالأسلوب الصحيح تماماً: فقد ضمن لهم الحياة والأموال، ورجا الفلاحين بألا يتركوا قراهم ليتمركز فيها الأشقياء. كما وطلب ارسال وفد الى قواتنا العسكرية بمجرد وصولها كل قرية، وخاطب الدروز قائلاً:

«أخلو الطرق، حافظوا على الأمن العام. . . ! ولاتصغوا للكلام السيء. . . ! اتركوا العصابات وعودوا الى منازلكم. . . !» ومع هذا فهناك شك في أن يصدقه الدروز إذ أن قلوبهم عميقة الجراح، وأخيراً هنأ الجنرال حامية السويداء، وأدى مراسيم الاحترام للموتى بشكل مؤثر. هذا وقد افتتح اكتتاب لاقامة نصب على طريق بغداد لفارس الصحراء «ديكار بانتري» "DESCAR PENRIES".

وإن جريدة لاسيري تتغنى بمدح «الداماد» الذي يحثه السيد «دو جوڤينيل» دوماً بعبارات مشجعة ويقول له:

«هيا. . . ! هيا. . . ! وطّد السلام. . . ! أطفىء النار التي عمت البلاد كلها. . . !»

والحقيقة أن مهمة جندي المطافئ هذا صعبة جداً. وصلت أخيراً تعزيزات عسكرية جديدة، وذلك لأن حلب مهددة رغم الجهود السلمية التي يبذلها الجنرال بيلوت

(١) الدكتور شهبندر في مذكراته يقول: أنا لم أفعل ذلك، لو أن هذا الرسول قد وصل إلي لكنت قطعت رأسه أصلاً بدلاً من يده.

"BILLOTTE" إنها تقتدي بدمشق بتحصيناتها ومصفحاتها هذا المساء عاد إلينا رحالتنا الذي كان يتجول في أماكن مجهولة، وقال بأنه سيذهب الى عمان كي يمر من جبل الدروز. ولذلك سينضم الى قافلة أسلحة سترسلها اللجنة السورية- الفلسطينية، الى الثوار. وقال بأن الرصاص كان يهز أرجاء السوق الطويلة» و«الشارع المستقيم» وأنه شهد ذلك بنفسه هذا اليوم. أنذر الجنرال ڤالييه اليوم، الفلاحين وأهالي حي الميدان، بتحذير خطي نشرته الصحف العربية، يفرض عليهم دفع تعويضات قدرها. ألف ليرة ذهبية، وذلك دية عن الضابط الذي أطلق عليه النار من الجامع منذ وقت قصير وفي حال عدم تنفيذهم ذلك، فستقوم الحكومة بقطع مياه الفيجة عنهم، وهي المياه الوحيدة الصالحة للشرب في مدينة دمشق. وكرد على هذا الانذار قام الثوار هذا المساء بقطع التيار الكهربائي عن المدينة كلها. وطول هذه الليلة ظل يُسمع القصف الكثيف وأزيز الرصاص.

٢٨ نيسان ١٩٢٦

طوال هذا النهار ظلت تعلو أصوات الطلقات النارية وانفجار القنابل التي تطلقها المصفحات، إذ بين الساعة التاسعة والساعة الحادية عشرة من هذا الصباح، جرى قصف عنيف بالقنابل، وهذا لاشك استقبال «للداماد» الذي سيصل غداً. ويقول البيان الرسمي الذي صدر عن الخسائر في السويداء أن قواتنا خسرت سبعة ضباط وحوالي مئة جندي جريح. لكن زوجة أحد الضباط اعترفت لنا. من ناحيتها، بأنه قد قتل عشرون ضابطاً. . . ! وإذاً، إذا كان من المستحيل هنا، في البلد الذي تجري فيه الاحداث، معرفة الحقيقة، فكيف يكون الحال في فرنسا؟

٢٩ نيسان ١٩٢٦

ابتداء من الساعة الواحدة في صباح هذا اليوم ابتدأت معركة عنيفة بين الثوار والجيش، وقد فقد السكان عادة النوم ليلاً منذ ستة أشهر، أما أنا فإني أخصص الليل للعمل بصور كتابنا هذا، وبهذه الطريقة أستفيد حتى من قصف القنابل.

ولكي يستريح السكان في النهار، فقد بدأت المدافع الثقيلة منذ الساعة السادسة صباحاً ويمكن للمرء أن يرى من فوق سطح منزله الرمي على القرى. . وخاصة قرية «كفر سوسة».

لقد أصبح من المستحيل القبض على الثوار في الغوطة لأنها أصبحت غابة عذراء. وفي

الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ذهبت الى محطة البرامكة لكي أشاهد وصول «الداماد أحمد نامي».

وهناك كان الحضور قليلون، هم الموظفين الرسميين الملزمين بالحضور، . . . ! وقد وصل رجال الشرطة وورائهم موكب الداماد، جاؤوا من الشارع الذي يذهب وراء المحطة الى التكية، والذي كان مقفراً تماماً، وهذا مامكنني من تلقي تحية لطيفة من «السيد دو جوڤينيل» وابتسامة حلوة من السيد «بيير آليب». وكان هناك بعض جمهور الحضور على ضفة بردى ولم يكونوا معادين ولا مناصرين كثيراً، وقد جاء الناس بلا شك ليتسلوا ويُذهبوا الغم عن انفسهم، ويبدو أنهم كالفرنسيين يملكون خبرة سياسية كافية. فقد بدوا لامبالين الى حد كبير.

وأول ماقام به الداماد، بأن ذهب الى المشفى لزيارة الجرحى، وكان نداؤه للسوريين مؤثراً حقاً إذ قال:

«لقد تألمت ولازلت أتألم لجميع ماتتحملونه من آلام، وأريد أن أعمل لتقريب الفرنسيين من السوريين» ويقال هنا بأن «السيد دو جوڤينيل» قبل المفاوضات ضمن ثلاثة شروط وهي:

- قبول الانتداب الفرنسي على سوريا، على شكل معاهدة مدتها ثلاثون سنة.
- اجراء استفتاء يحدد به السوريين أنفسهم شكل وبنود دستورهم المقبل.
- التوصل بالمفاوضات السلمية الى فتح منفذ لسورية على البحر المتوسط.

وهذا المساء صدرت صحيفة «لاسيري»، وظلت أخبار جبل الدروز فيها باللون الأبيض وظل القصف المتقطع يشغل المدينة طيلة النهار. وفي أحد المخازن كان وجيه سوري يعلق على وصول الداماد ويقول:

«وصل فخامته. . . ! وسيسلموه السلطة. . . . ! وأخيراً أصبح لنا ملك. . . . !»

٣٠ نيسان ١٩٢٦

استقبل الداماد اليوم وجهاء المدينة والموظفين الهامين. . وبعد ذلك ذهب لزيارة الجامع الأموي الكبير، وقد نسي الجنود، الذين لم يتعرفوا عليه بعد، أن يتخذوا وضعية الانتباه عند مروره أمامهم.

من المؤسف أن «السيد دو جوڤينيل» ارتكب اليوم خطأً بسيطاً هو نوع من عدم اللباقة.

يقع فيها عادة كثير من الفرنسيين الذي يجهلون التقاليد المرعية هنا: فبعد لوم شديد تعرض له من عائلة أورثوذوكسية لبنانية تقيم في بيروت وتتمتع بنفوذ واسع بواسطة ثروتها وأملاكها، وقرر أن يقوم بزيارة للبطريارك المونسينيور «حداد»، ولكنه اختار لذلك بمنتهى الذوق يوم «الجمعة الحزينة» الذي ينعزل به رجل الدين ويقضيه بالتأمل والصوم والصلاة. . . ! وقد نظر الناس الى هذه الخطيئة الكبيرة باهتمام. إن مايؤلمني حقاً وبشكل كبير هو أن مسؤولينا يعاملون أهل هذه البلاد باحتقار كبير واستخفاف ويظهر أن ممثلينا هؤلاء يملك كل واحد منهم شخصيتان: الاولى هي شخصية النبل والتظرف التي تظهر في صالونات باريس ومجالس السيدات، والثانية هي شخصية الجلافة والقسارة أو شخصية الفلاح كما يقولون هنا وبهذه الشخصية يواجه الفرنسيون كل السوريين هنا كائناً من كان السوري الذي يتعاملون معه، دون الانتباه الى طبقته أو انتمائه. . وهذا الوضع يعتبر في الشرق غباء حقيقي واضح، حيث لايزال للتهذيب أهمية كبرى في العلاقات الاجتماعية، تلك الأهمية التي زالت من مجتمعنا نحن الفرنسيين مع الأسف. . !

نشرت صحيفة لاسيري اليوم بيان رسمي عن الخسائر في جبل الدروز يقول:

إن عدد القتلى الفرنسيين هو ٨٤ وعدد القتلى الدروز هو ١٠٠٠

ومن ناحية أخرى فقد أخبرني جندي فرنسي شاب كان يعمل في مصلحة النقل، بأنه اشترك بنقل 350 قتيل فرنسي، على ظهور الحمير والجمال، وكان يجري تبديل العاملين بالمناوبة كي تنقل جميع الجثث، وإن خبرتي في معرفة الحقيقة تجعلني أميل الى تصديق الجندي. وقد أضاف هذا قائلاً:

«إن استرجاع السويداء كان عملية شاقة للغاية، وكان الدروز الذين غنموا من حملة «ميشو» مدفعين عيار 75 مم يرمون على قواتنا بهذه القذائف الى أن تم تفجير هذين المدفعين وعند ذلك قام الدروز بالهجوم الميداني بالسلاح الأبيض بقسوة ووحشية، لدرجة أن كثيراً من جنودنا رفضوا التقدم أمام مشهد هذه المذبحة الفظيعة، وحينئذ، أخرج الضباط مسدساتهم، وقذفوا بالجنود السنغاليين الى ساحة المعركة، وكانت مشاهد المعركة مرعبة للغاية، لدرجة أن أحداثها المخيفة لازالت في مخيلة الجندي الشاب، ولكم أفكر بأن كل هذا كان من الممكن تجنبه. . لكن الذي حدث أخيراً هو أن تم ترفيع السيد كاربيللية الى قائد فوج.

لم تعد أسراب السائحات الأوروبيات ترى في المدينة، حتى أن الفرنسيات المقيمات هنا

لم يعدن يخرجن الى الأسواق، كي يعرضن ملابسهن الأوروبية الجميلة المستوردة من بازيس في الطريق. . . ! وأية تضحية كبيرة يضحين بها. . . !؟

١ ايار ١٩٢٦

جرى رفع نسبة الضرائب بشكل كبير، فقد زيدت ضرائب البساتين بنسبة ٣٠٠ ٪ وضرائب البيوت بنسبة ١٥٠ ٪ وضرائب المحلات بنسبة ٧٥ ٪ منذ فترة قصيرة نشطت هجرة شبه متواترة الى أميريكا، حيث يذهب الناس الفقراء ليلحقوا بأقاربهم هناك، وكان على كل شخص أن ينتظر أيضاً دوره، إذ حدد عدد المسموح بهجرتهم، ويئس الكثيرون من الحصول على بطاقة تسمح لهم بالسفر وهذه الأيام ترى تجار الأسواق يقفون أمام متاجرهم صامتين، ويحيونك من أبعد مسافة يرونك بها، آملين بأن تشتري منهم شيئاً، وهم يقبلون بكل الشروط الممكنة، ويعلنون عن بضائعهم بطريقة كلها ظرف، وقد قال لي أحدهم:

«اشتري يا سيدتي. . . !

هذه السكاكر تصلح للحفظ لمدة سنة

كاملة. . . !»

إن رئيس الشرطة وزوجته، أي المستشار والمستشارة، ذهبا بعد طول انتظار لقضاء عطلة الاستراحة. . . !

آه. . . ! كم تُسبك هذه الأخبار بعبارات لبقة. . . . !

٢ آيار ١٩٢٦ عيد الفصح عند الاورثوذوكس

اليوم، وتمشياً مع العادات الدائبة، التي يقوم بها حتى المسلمين هنا تجاه المسيحين، كان على «السيد دو جوڤينيل» أن يزور البطريارك «غريغوريوس» فقد زاره في مدرسة العازاريين القريبة من مقره ولم يزر كنيسة الاورثوذوكس، فهل هذا ناجم عن سوء نية أم عن نسيان. . . ؟ وقد جرت هذه الليلة عملية هجوم قتل خلالها خمسة من الشركس المناصرين لنا، في الشارع هذا ويزداد الكره بين يوم وآخر لهؤلاء الأنصار المرتزقة الذين تفرضهم الحكومة على الشعب لكي توفر حياة جنودنا الفرنسيين.

أوه. . . ! كم هي مسلية تلك القصة التي رويت عن واحد من الأخوين عكاش. . . !

دخول الثوار الأبطال الى دمشق بعد استجابة فرنسا لمطالبهم

إنها تصف شخصية هذا الرجل الثائر وتجعلني أجده لطيفاً تماماً.

كان عدد كبير من الوجهاء يتفاوضون مع الفرنسيين لكي يتم العفو عنه من قبل السلطة، وحصل من هؤلاء على تصريح أمان. فتوجه عكاش بإحدى العربات من بيته في دمر الى دار المندوبية، ومعه «أفندي» "EFFNDI" يرتدي الطربوش.

ويقال بأن مدير شركة حافلات الترامواي وهو بلجيكي، قد كفل الثائر عكاش، فتقدم هذا الى بعض العسكريين من مختلف الرتب وهو يحمل بندقيته، ويغطي جسمه بأحزمة مليئة بالرصاصات، وقام جدل عنيف بينه وبينهم انتهى حين ضرب الجنرال "X...." بيده على الطاولة وصرخ بعكاش قائلاً:

- ستسلم نفسك دون أية شروط مسبقة وعندما سمع الثائر هذا العبارة رفع حمالة بندقيته وذهب الى الباب. وعانق الأفندي الذي كان ينتظره، ثم ركب العربة ليعود الى مقره على ضفاف نهر بردى... !(١)

وفي المساء، ودون أن يضيّع أي وقت، عاود عكاش اطلاق النار من جبل قاسيون على

(١) إن عدداً من الثوار رفضوا في ذلك الحين شروط الاستسلام التي فرضتها فرنسا وأشهر هؤلاء القائدان الدكتور شهبندر، وسعيد عكاش اللذين هربا الى مصر وعاشا هناك حوالي عشر سنوات، وعادا بعدها وجرى لهما استقبال شعبي كبير في عام ١٩٣٧، وقد اغتيل الدكتور شهبندر في عيادته واغتيل سعيد عكاش في سوق الطويلة.

الفرنسيين. . . !

من المؤكد أن الذئب لا يستطيع أن يصبح كلباً أليفاً، وقد كان يخاف منذ مشكلة الدروز من أن يخنقه الطوق الذي سيوضع في عنقه .

في هذه الأيام الأخيرة، قمت بتنظيم جرد كامل للكنيسة الأورثوذوكسية في قطنا، والتي يقال بأن الثوار قد نهبوها، لكن هناك قال لي كهنتها بأن الذين نهبوها فعلاً هم جنودنا الشركس، بعد أن أكدوا لأهالي البلدة أن بإمكانهم مغادرة القرية وسيبقون هم لحراسة الكنيسة، ولما غادر أهل قطنا قريتهم، قام الجنود الشركس بسرقة محتويات الكنيسة .

وكتعويض عن هذا الحادث، كان على الحكومة أن تدفع للقرية مبلغاً قدره ١٠٠٠٠ قرش سوري ويعتقد عموم الناس بأن المعونة التي يقدمها هؤلاء الجنود لاتساوي الأضرار التي يلحقونها بالهيبة الفرنسية .

٣ آيار ١٩٢٦

ذهبت هذا الصباح لأرسم مطرقة باب «البيمارستان»[١] العجيبة والأثرية القديمة، وهي دقيقة الصنع قام البواب العجوز، وصبي يسكن قرب الدار باحضار كرسي لي لأجلس عليه، وهذا يوضح دوماً بأن المبادرة الأولى التي تصادفك في دمشق هي مبادرة ود وخير ومجاملة، وبينما أنا أرسم بسرعة هذه المطرقة، دهشت حين سمعت خلف الباب الكبير صوتا جميلاً، هو صوت شاب يعطي درساً باللغة الفرنسية عن «الفعل» و«الفاعل» ثم فتح الباب نصف فتحة وأطل منه وجه شابة مسلمة صغيرة جميلة نادت رفيقاتها بعد أن رفعت منديلها عن وجهها، واجتمع حولي على الفور عدد من هؤلاء الفتيات، وقام البواب[٢] العجوز بتأنيب الفتيات، ويعتبر هنا بمثابة حارس «الساراي» الذي تقع على عاتقه مسؤولية سجن هذه الحمائم الجميلة بكل حرص. وعندئذ نادت الفتيات مُدرستهن، وهي فتاة شابة جميلة رفعت عن وجهها قليلاً ودعتني للدخول فلبيت الدعوة، واقتادتني الى قاعة الصف الصغيرة، حيث يوجد عدد قليل من الفتيات وقد كتبت على السبورة السوداء بعض الجمل الفرنسية، التي لاتخلو من

---

(١) وردت بالفرنسية: "MOURISTAN" مأخوذة عن الكلمة الدارجة في الشام مارستان وأصل الكلمة بيمارستان، ذات أصل فارسي، ومعناها «دار المرضى»

(٢) وردت كلمة بواب بالعربية: "boab" وشرحتها المؤلفة في أسفل الصفحة.

بعض الأخطاء، فقمت بإصلاحها وأنا أبتسم. يا إلهي... ! كم ارتبكت هذه المعلمة[1] الصغيرة الجميلة حين أبديت لها أخطاءها، وتورد وجهها الجميل... ! يالله... ! أي جمال، وأية بساطة يجتمعان في هؤلاء الفتيات المسلمات الشابات... !؟ اللواتي تربين على الطراز القديم إذا قارناهنّ بفتيات حي باب توما المسيحيات اللواتي يعتقدن بعجرفتهن أنهن سابقات لعصرهن. وقد رجتني هذه الفتاة بأن أعطيها بعض الدروس غداً أو في أي وقت أريد...

وبينما نحن نتحدث كصديقتين، كانت التلميذات الصغيرات يتطلعن إلينا بفضول وخجل ظاهرين على وجوههن... ! وكي أتمكن من الانصراف قمن بمناداة البواب العجوز الطيب «حجي... ! حجي.... ! "HADJI" وهذا الاسم الذي يطلقه المسلمون على كل من زار مكة، لكنه كان قد ذهب، مما جعلني أبقى طويلاً كأسيرة.... ! وعندئذ تساعدن كلهن وهن يضحكن على رفع الصخرة الحجرية الثقيلة التي كانت تسد الباب المتحرك فتسللت عبر مصراعيها مودعة بآلاف التحيات والضحكات والرجاء الحار بالعودة. العودة... ! نعم بالتأكيد... ولم لا... !؟ فأنا لا أريد أكثر من ذلك، ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل أيتها الصديقات الصغيرات المسلمات المسكينات إذا كان لايعهد بأفكاركنّ الغضة إلا لمربيات حمقاوات يكن مسؤولات عن إدارة شؤون المعارف... ؟ ورغم ذلك فقد ختم عليهن الرضا وكأنهن ذهب مكفول وحُزْنَ على الأوسمة العلمية العالية... ! أما اللواتي يحببنكن حقاً ويُردن لكن كل الخير فهن غير موثوقات من الفرنسيين... !

لوحظ اليوم بأن الثوار قد أوقفوا اطلاق النار وذلك تضامناً مع عيد المسيحيين «الأورثوذوكس» وإن بعضاً من الثوار قاموا بتهنئة هؤلاء المحتفلين أيضاً. زرت اليوم بعض الأصدقاء الغرباء في حي الصالحية، وجلست في الصالة البسيطة والأنيقة في الوقت نفسه، وكان كل مافيها يدل علي أن أصحابها من المغتربين، وفي هذه الجلسة علمت بخبر مذهل لايصدق، وهو أن هذه الغرفة سيتم غداً هدمها تماماً، وأن البيت كله سيهدم نهائياً في الغد... ! وإن هكذا خبر مقلق ومخيف تماماً، فهو كما لو أنك تتحدث عن شخص وقيل لك بأنه سيموت غداً ! أو خلال ساعات... ! ويأتي هذا الهدم بناء على قرار أصدره «مجمّل دمشق» الذي كلف بشق طريق للسيارات حول المدينة، وسيقوم غداً هو بنفسه بتدشين مشروعه وذلك بضربة معول من يده، وهذه القضية تقلق أهل دمشق كلهم هذه الأيام. وقال السيد «دو جوڤينيل» بأن مبلغ الغرامة يجب أن يصرف في تجميل دمشق، لا في مثل هذه

(١) وردت كلمة معلمة بالعربية: "MALEMMA" وقد شرحتها المؤلفة في أسفل الصفحة بالفرنسية.

الأعمال التي تجعل الدمشقيين يشعرون باستياء شديد نحوها. والحقيقة أن هذ المشروع هو عمل تخريبي لأن دمشق ليست بحاجة لشوارع خارجية متحلقة متخصصة لتسير عليها سيارات الموظفين وبعض الباشاوات. . . ! ومعروف أن مقدار الغرامة هو مئة ألف ليرة قد خصصت لهذا المشروع. إن هذا المشروع سيقسم المدينة الى أقسام أخرى صغيرة ويفصل بيوت الحي الواحد عن بعضها ويفصلها عن البساتين، ويجعلها تستنشق عوضاً عن عطور البساتين الفواحة، غبار هذه الطرقات الممزوج بدخان حرق البنزين، ولاينقص دمشق بعد ذلك إلا مترو وحديقة ملاهي. . . ! يقولون طرقات خارجية متحلقة حول دمشق. . . ! هذا جميل . . . ! ويحمل الطابع المحلي الخاص بهذه المدينة أيضاً. . . ! من المؤكد أن الدمشقيين لم يُستشاروا أبداً قبل اتخاذ هذا القرار، وإلا لكانوا قد اعترضوا كلهم على ذلك، وها إني أسمع اعتراض كل هؤلاء المتمسكين بحياتهم البسيطة، والمحبين لشوارعهم الهادئة وبيوتهم التي تشبه الجنات الصغيرة بمياهها وأزهارها. وإني أسمع اعتراض اولئك الذين يمتطون عرباتهم ذات الحصانين، ليغنوا في ضوء القمر أغانيهم الشعبية عند سفح الجبل الكبير العتيد وأولئك الذين يركبون حميرهم بكل بساطة ويذهبون الى دمر ليتنزهوا هناك. وكل هؤلاء يعلمون جيداً أن هذه الطرقات الجديدة لم تفتح لهم، ولكن لكي يستخدمها في النزهة بعض الأجانب أو كي تستخدم في مكافحة العصيانات والقضاء على الثوار الذي يحاصرون أو يهددون المدينة. . . ! أهالي دمشق كلهم ليسوا بحاجة الى هذا التقدم الذي لايمثل إلا صورة عن البشاعة الفنية التي تتصف بها مدن الغرب. . . !

أيها الدمشقيون. . . ! إذا تركتم الفرنسيون يفعلون ذلك، فإن شامكم القديمة ستصبح بعد عشر سنوات كمدينة «لوڤالوا- بيررة» "LEVALLOIS- PERRET" ويعم الآن قلق كبير وخاصة عند سكان البيوت المهددة بالهدم. . وكثير من هؤلاء قد غادروا بيوتهم أوطردوا منها بدون تعويضات، ولذا تجنس قسم كبير منهم بالجنسيات التركية أو الانكليزية أو الأميريكية [١] وإنما فعلوا ذلك كي يقوم قناصلهم بالتباحث مع السلطة بخصوص قبض أثمان أملاكهم المصادرة.

(١) حدثت في تلك السنوات هجرات سورية عديدة كما يبدو من هذه الوثائق، وحاز كثيرون على جنسيات أخرى.

٤ أيار ١٩٢٦

روى لي شهود عيان معلومات عن زيارات السيد «دو جو ڤينيل» لبعض مدارس المدينة، ففي مدرسة الحقوق [١] كان الطلاب الشبان يتنزهون في الباحة عندما دخل السيد «دو جو ڤينيل» فجأة، وتابعوا نزهتهم وكأن شيئاً لم يحدث، ولم يصفق أحد حسب العادة المتبعة هنا للترحيب بالضيف الهام، رغم أن المدير حضهم مراراً على ذلك. . . ! وأثناء المحادثة التي دارت سأل الضيف مدير المدرسة عن سبب قلة الطلاب، فأجابه هذا بقوله:

- بسبب الظروف المضطربة. . . !

فقال الضيف بلهجة غاضبة:

- لاخوف على أحد في المناطق التي يتواجد فيها الفرنسيون، ولذا يجب أن يحضر الطلاب جميعاً بنفس الكثافة التي كانت سابقاً. .

وقد زار المدرسة السلطانية وهناك بقي جميع التلاميذ جالسين عند دخوله، حتى بعد أن أشار المعلم لهم بالوقوف. . ! ثم وقف التلميذ "S...." وعمره ١٢ سنة، وهو ابن لأحد الشهداء الذين شنقهم الأتراك من قبل، وقال بجرأة كبيرة مخاطبا السيد «دو جو ڤينيل»:

- أنتم الذين علمتمونا حب الحرية، ومع ذلك فإنكم تقتلوننا الآن حين نطالبكم بها. . !!»

وإن هذا القول يدل على أنه رجل شجاع يتمتع بمقدار من المنطق، نتمى أن يملكه كثير من الكبار. ومن الطبيعي أن السيد «دو جو ڤينيل» لم يُسَّر من سماعه هذه الملاحظات في دمشق، فذهب مهدداً متوعداً بعد أن قال للمدير:

«أأسف على اهتمام تلامذة مدرستكم بالسياسة أكثر من اهتمامهم بالعلم. . . !»

وأحب هنا أن أوضح معنى عبارة «الاهتمام بالسياسة» التي تلصقها السلطة، بمناسبة أو بدون مناسبة، بالناس الذين يدافعون عن العدالة والمنطق، ففي السرايا نفسها، حيث اعتاد الموظفون عدم اظهار الكره للحكومة التي تشغلهم وتدفع لهم رواتبهم، قوبل السيد «دو جو ڤينيل»، لما ذهب إليها بصمت مطبق. . . !

وهناك تفصيلات أخرى مسلية، حيث كان كل موظف يقول لزميله:

«صفق. . . ! صفق. . . !»

ولكن لم يقرر أحد منهم أن يصفق، ويظهر أن الناس قد تألموا الى أبعد الحدود، حتى

---

(١) وهي كلية الحقوق حالياً.

وصلوا الى حد إظهار الكره لفرنسا بهذا الشكل العلني . . . !

أرانا أحد الاصدقاء رسماً كاريكاتورياً هذا المساء، يمثل حاجب يجلس عند باب غرفة الفندق، وفي داخل الغرفة، يجلس الداماد على حقائبه، وهو محتار في أن يفتح حقائبه ويخرج أمتعته، أم يغلقها نهائياً لمغادرة دمشق، ويجيب على سؤال خادمه بخصوص «أية بدلة؟! "costume" فيقول الداماد «حضر لي بدلة السفر!»

٥ أيار ١٩٢٦

حمل لنا أشخاص عائدين من بيروت بعض الأخبار عن المشاكل الدرزية، لأننا في صحفنا هنا لانرى إلا أعمدة بيضاء ناصعة في الأمكنة التي يجب أن تتحدث عن الدروز.

تقول الأخبار الواردة بأنه تم نقل كثير من الضباط الجرحى، كما أن مستشفيات المدينة قد امتلأت بالجنود الجرحى الذين كانت السيارات الصحية تنقلهم دون انقطاع.

وقد علمت من ناحية أخرى، بأن الدروز قضوا فصل الشتاء كله وهم يحصنون مرابضهم، حسب خطة مدروسة، بعد أن علموا بأمر هجوم قوات السلطة عليهم في الربيع، وقد حفروا الملاجيء، تحت الأرض، وزرعوا سقوفها بغية اخفائها، وكانوا يختبئون فيها لكي يظهروا في أماكن لايتوقع أحد وجودهم فيها، فيباغتون العدو، ولاتوجد أية أخبار عن الجنرال «أنديريا» وجيشه وقد انقطعت الأخبار منذ ثلاثة أيام، حتى أن الناس يعتقدون بأنه محاصر الآن في السويداء، ولم تنشر الصحف الرسمية أية أخبار وكانت تكتفي بهذه العبارة:

«إن معنويات جنودنا جيدة . . . !»

ينشغل أهالي دمشق كلهم الآن بالحديث عن القصة البطولية التي تصدق عن الكابتين المغربي «عطاف» "ATTAF" [1] أحد ضباط فوج السباهي وقد هرب من الجيش الفرنسي، ورفض القتال فتم إعدامه بطلقات مسدس، وإن الذين يعرفون هذا الضابط يضحكون كثيراً من هذه القصة . . . !

وطوال هذا الصباح، ظلت الطائرات تقصف القرى التي يعتصم فيها الثور، ومن ناحية أخرى فرض الجنرال «ڤاليية» غرامات مالية فادحة على قرية «كفر سوسة» وقرية القابون

(١) ضابط في الجيش الفرنسي تعاون مع الثوار لأنه مسلم وعربي مثلهم، وكان يقود فوج من جنود السباهي "SPHIS" فانضم الى الثوار لكنه أعدم بالرصاص.

الصغيرة التي لايسكنها إلا عدد قليل من الناس، وتعتبر هذه الغرامات كبيرة جداً وقد فرضت على كل «رأس» مواطن يسكن هاتين القريتين، في حين خربت أملاكهم بيوت ومزارع، وكل شيء... وبالطبع لم يدفع أحد من هؤلاء شيئاً، وهذا ماجعل السلطة تقوم بقصف قريتهم بالقنابل الثقيلة. إن الناس في ثورة يائسة الآن، ويخشى أن تنفجر ثورة الحقد، المستعرة بعد أن تجاوز رجال السلطة كل حقد. هذا المساء بكت خادمتي مريم، وهي فتاة نازحة من جبل الشيخ، عندما كانت مارة في الساحة قرب غدير الماء، وذلك حين سمعت طائرة تئز فوق رأسها، إذ ذكرها ذلك بذلك الطيار الذي قتل والدتها منذ حوالي شهرين في مجدل شمس. وقد شاركتها أنا بدوري البكاء أسفاً على ذلك الحزن الذي سببه لها واحد من مواطنينا. ونحن النساء الأخريات قد ذرفنا كثيراً من هذه الدموع الدامية، ولذا يجب علينا أن نتفهم هذه الدموع. وأخيراً أريد أن أقول كلمتي من كل قلبي، ومن فيض ذكرياتي:

«فلتسقط الحرب...!»

إن الدور الذي يجب أن نقوم به كنساء هو أن نمنع الحرب...! وأن نعلم أبناءنا كره الحرب...! وأن يصنفونها ضمن الأعمال الخارجة عن كل القيم والقوانين...!

٦ أيار ١٩٢٦

ذهبت اليوم الى ثانوية السلطانية المشهورة لكي أدرس الفسيفساء فيها كي أجري التصوير اللازم لكتابي هذا، ومن المحتمل أن مديرها قد ظن بأنني جاسوسة، وقد ظهر هذا واضحاً على وجهه، إذ اجتمعت فيه سمتا القبح والذكاء مثل «ميرابو»"MIRABEAU" فقد وصلت عقول الناس هنا الى حد لم يعودوا فيه يصدقون اخلاص أي فرنسي، حتى أن أصدقائنا القدامى يظهرون شكهم في ذلك أيضاً...! وإني أعذرهم لأن من يتألم كثيراً لايمكن أن يظل عادلاً. ومن العبارات المبطنة التي قالها المدير تمكنت من معرفة رأيه إذ قال:

«كانت فرنسا محبوبة تماماً هنا قبل الاحتلال، وإني أعرف فرنسا أخرى من خلال ثلاث سنوات عشتها هناك» ولقد سهي عن قول كلمة كان يريد قولها وهي: إنك حرة في فرنسا لأنك فرنسية...!» نعم...! أنا حرة بالتأكيد، حرة بكل ما يملك كياني الخاص من قوة، ولكن لاأحد سواي يعرف فداحة الثمن الذي أدفعه لقاء حريتي هذه....

٧ أيار ١٩٢٦

منذ الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم، والقنابل تتساقط على حي «الميدان» وبالطبع فإن سبب القصف هو أن سكان هذا الحي لم يستطيعوا أن يدفعوا التعويضات التي فرضتها السلطة وهي مبلغ ألف ليرة، وكان قصفاً رهيباً جداً، إذ أن الأرض كانت تهتز بعنف، واستمرت الحرائق حتى هذا المساء، وكان الناس ثائرين جداً الى حد الانفجار بالصراخ، وقد جاء حوالي خمسين شخصاً من أهالي الميدان، وهذا يدل على أنه قد بقي فيه أحياء. . . ! جاء هؤلاء المساكين الى فندق ڤيكتوريا لكي يقدموا احتجاجاً «للداماد»[1] الذي كان عليه بدوره أن يقدم احتجاجاً الى السلطات العسكرية، فإن مركزه صعب تماماً لدرجة أنه ينطبق عليه قول: «بين نارين».

٨ أيار ١٩٢٦

بعد أن عاد «فارس الخوري» من منفاه في جزيرة أرواد عهدت إليه وزارة المعارف العامة، فصرح هذ الوزير «بأن مطاليب الأمة السورية كانت موجودة ومطروحة قبل اندلاع الحركة الثورية الحالية، وستبقى هذه المطاليب حتى إذا سحقت الثورة بالقوة أيضاً» ومن ناحية أخرى، فقد كانت مشكلة «الميدان» رهيبة حقاً، حيث قال لنا أحد الرهبان أنه قد شاهد مئة جثة معروضة في ساحة «المشيرية» وبهذا يصبح عدد القتلى حوالي 300 قتيل. وكعادتي قمت اليوم بمقارنة الرواية الرسمية بالرواية الشعبية، وإنها لاتتشابه أبداً. . !

أوه. . . ! أيها المؤرخون، يامن تؤرخون المستقبل، إني: أكتب هذه الصفحات لكم أنت، وأنتم مكلفين بالعدل، فأنا هنا في مكاني لي عينيّ وأذنيّ وهذا هو الرأي الشعبي. «قام بعض الميادنة والدروز المتحالفين معهم الذين عادوا من الجبل، بالاحتفال بانتصاراتهم هناك، فنصبوا الزينات في حي الميدان والغوطة، فتركهم الجنود يعودون الى بيوتهم ويشعلون أنوار الزينة، وفجأة وفي اليوم التالي سحقوهم، ولم يتمكن الناس من الخروج من منازلهم بعد أن أختبأوا فيها حيث كان جنودنا لهم بالمرصاد، ويطلقون النار على كل من يظهر لهم في الشوارع، وكانوا لايتركون أحداً يجتاز هذا الحصن المحاصر، وقد بلغ عدد البيوت المهدمة حوالي المئتين، أي أن مقدار الدمار أوسع من ذلك الذي حدث في حي الدرويشية في شهر تشرين الأول الماضي. وقد قضى هؤلاء الميادنة المساكين الذين استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم من الموت، فقد قضوا الليل يبكون على منازلهم التي تحترق ويرون ألسنة اللهب ترتفع منها، عن بعد.

---

(١) عين الداماد رئيساً للحكومة السورية، ويبدو أنه من أصل تركي.

وهذه هي الآن الرواية الرسمية عن الحوادث أهديها الى المؤرخ «فوستيل دو كولانج» "FUSTEL DE COULANJES" جديد، وهو من هواة تمحيص النصوص: «علم الجنرال ڤالبية بأن عدداً كبيراً من الثوار قد اجتمعوا في الميدان، وراحوا يحضرون لهجوم فاتخذ تدابير عسكرية للقيام بحملة تمشيط في صباح السابع من آيار، على أن تكون عملية وقائية تنفذ بعد آخلاء النساء والاطفال، فاصطدم الجنود مع بيوت محصنة تماماً كالقلاع، فجرت معركة عنيفة قتل فيها خمسون ثائراً، وكان على الجيش أن يعمل بفعالية وبدون تردد أو تأخير»

وثمة نص رسمي ثاني يتعارض مع هذا النص في بعض النقاط، وهو نداء وجهه «الداماد» وقال فيه إنه يأسف لأن يبدأ عهد حكومته في هذه الأحداث وأن الفرنسيين قد وعدوا بألا يقصفوا المدينة مرة أخرى أبداً قبل أن ينذروا أهالي الميدان مسبقاً. واليوم أيضاً، عاد من جبل الدروز أشخاص نعرفهم ولكنهم ولم يتكلموا أبداً بهذا الموضوع. . . . !

١٠ آيار ١٩٢٦

كان الثوار يجمتعون في احدى الطواحين قرب المدينة، وكان أن طلبت الحكومة من صاحب الطاحونة بأن يطردهم ولكن كيف بإمكانه أن يفعل ذلك، إذا كان الجنود أنفسهم قد عجزوا عنه. . . !؟ وكان الرد بأن قصفت الطاحونة وهدمت تماماً وانضم الى جمهور الفقراء مسكين جديد. . . !

١١ آيار ١٩٢٦

يجري الكلام في كل مكان عن السلام. . . ! لكن لا أحد يصدق ذلك طالما أنه هناك غم وضغط. ويقال أن السيد «دو جوڤينيل» أعُطي الصلاحيات الكاملة لمعالجة الأمور.

١٢ آيار ١٩٢٦

أعلن عن استسلام «ابراهيم بك الأطرش».

و«محمود أبو فخر»، وهما من قادة الحركة في السويداء ويسود الاعتقاد بأن حكومة الداماد ليست أكثر من حكومة مؤقتة.

١٣ آيار ١٩٢٦

نشرت احدى الصحف البيروتية موضوعاً مشوقاً للغاية بعنوان: «دمشق في النهار، ودمشق في الليل» ونحن الذين نلعب مرغمين دور المشاهدين في هذه الملهاة المأساوية "Tragi- Comédie" نفضل مشاهدة غيرها الآن، لأن تمثيلها قد استمر طويلاً.

١٤ آيار ١٩٢٦

حدث هذا الصباح قصف مدفعي، وذلك كي لا ننسى هذه العادة ويبدو لي أن السلام الذي بُشر به سيكون صعب التحقيق. لأنه يتطلب اعطاء الأمان العام للثوار في الوقت الذي تطالب فيه السلطات العسكرية بتسليم 75 قائداً منهم..! ومن اللامعقول أن تعطى الحرية المطلوبة من جهة، ويعاقب أولئك الذي ناضلوا من أجل تحقيقها من جهة ثانية. يضاف الى ذلك أن منظر المشنقة جعل أكثر الثوار و زعماء الثوار يترددون في إلقاء سلاحهم. صدرت اليوم صحيفة «لوريان» وقد قصت منها ثلاث صفحات كانت تتحدث عن اشتباكات منطقة الميدان...!

١٥ آيار ١٩٢٦

حدث اليوم أمر مضحك للغاية، فقد فرضت الرقابة أيضاً عل فقرات «التوراة» وتفصيل الخبر هوأن صحيفة «الأحرار» "AHRAR" قد أدرجت مقالاً قالت فيه بأنها ستكتفي بنشر مقاطع من المزامير «يوشع» "ISAïE" لأنها لاتستطيع أن تقول شيئاً مهماً، وقد تبين لنا بعد قراءة هذه المقاطع بأنها لم تكن سيئة للغاية ومع هذا فقد حذفتها الرقابة...! أوه...! لكن انتبهوا...! «المارسييز» "La Marseillaise" يغوي، ويجب منع الناس من أن يغنوه هنا.

١٦ آيار ١٩٢٦

روى لي أحد الوطنين، وكان صديقاً لفرنسا، بأنه إذا ظلت هذه الطريقة التي تتبعها السلطة فإن الحرب ستدوم سنة أو سنتين اضافيتين.

وحول التنقلات فقد تم منع نقل أي أثاث أو أي شيء الي خارج أسوار المدينة، خشية أن يتم تزويد الثوار بها، وقد منع الجنود صديقي "...M. C" من المرور عبر الأسوار لأنه كان

يحمل بعض المؤن بينما كان ذاهباً الى عمله في منطقة المهاجرين، وقد أصبحت الحياة لاتطاق بالنسبة لأهل دمشق. وقال صديق عائد من الميدان بأن هذا الحي قد تهدم لدرجة أنه قد زال نهائياً من خارطة الأحياء الدمشقية، وهو الآن يشبه مدينة «بومباي» إذ تهدم فيه حوالي 300 بيت وأخذت القطط والكلاب تحاول الخلاص والنجاة بنفسها. . . ! وجربت السلطات العسكرية مدفعاً حديثاً في قصف «الميدان» وهو يرمي أحدث وأقوى القنابل، هذا ومن المقرر أن يرحل السيد «دو جو ڤينيل» بتاريخ ٢٧ آيار، وهو يريد أن يوطد السلام قبل مغادرته البلاد، وهناك خلاف بينه وبين السلطات العسكرية حول السلام، فالسلطات العسكرية لاتقبل أن تجري أية مفاوضات قبل أن يلقي الشعب سلاحه.

١٧ آيار ١٩٢٦

هل يجب أن نصدقه. . . !؟ إنه بعيد التصديق. . . ! فقد أعلن بأن السيد «دو جوڤينيل» قد وافق على الشروط التي وضعها الثوار. . . ! وأن الاستعدادات تجري الآن لاحتفالات السلام، وستقام غداً الزينات والمسيرات الاحتفالية في حديقة البلدية. . . ! أما أنا. . . ! فإني لا أثق كثيراً بمظاهر السعادة الجديدة هذه، ولهذا فإني سأترك للدمشقيين فرصة الفرح والتمتع بهذا السلام وأرحل. . .

وأخيراً جاء السلام، ولهذا سأرحل. .

سأرحل بعد أن أنهيت أخر صفحة من كتابي هذا. . .

فأنا مثل العصفور السجين الذي رأى باب قفصه قد فتح، بعد أن بقيت في هذا السجن الكبير عشرة أشهر كاملة. . نعم عشرة أشهر محاصرة ضمن الأسوار المغلقة. . في هذا الفخ الذي يسمى دمشق أعمل كثيراً وأنام قليلاً، وأعاني وأكابد من آلام لايعرفها إلا أولئك الذين يحبون وطنهم كثيراً، والذين أتوا الى هنا ليخدموه ثم شاهدوه يفقد حب وتقدير هذا الشعب شيئاً فشيئاً. .

ولكني صمدت ولي الفخر بذلك.

نعم. . . ! لقد صمدت وحدي، لكن بقوة في داخلي هي قوة العدالة وحبي لها، ومحاولتي للوصول الى الحقيقة كي أتمكن من إعلانها.

لقد كنت كمن سجن نفسه باختياره، وذلك كي يمكن للتاريخ الحقيقي أن يكتب، ولكي يسمع الناس صوت فتاة سورية، هي سورية بالتبني على الأقل لأنها فرنسية، وهناك أهلي وأبناء وطني.

وغداً سأذهب، مبتدئة رحلة جديدة طويلة في بلاد العاصي بلاد سورية الشمالية، موطن أحلامي عندما كنت على مقاعد الدراسة.

وها أني يواجهني هذا السؤال، وأنا أختتم كتابي هذا، ترى هل كان باستطاعتي عندما كنت أقرأ تاريخ السلوقيين، في الصف الخامس في احدى المدارس الابتدائية، التي تقع في شارع «جي لوساك» في باريس، إني سأذهب ذات يوم، لأرى الآثار التي خلفها الاسكندر في سوريا وأني سأعيش في مدينة الخلفاء العظماء، مدة طويلة في دمشق تحت القنابل....!؟

تمت ترجمة الكتاب بعون الله.

Alice POULLEAU

A DAMAS
sous les Bembes

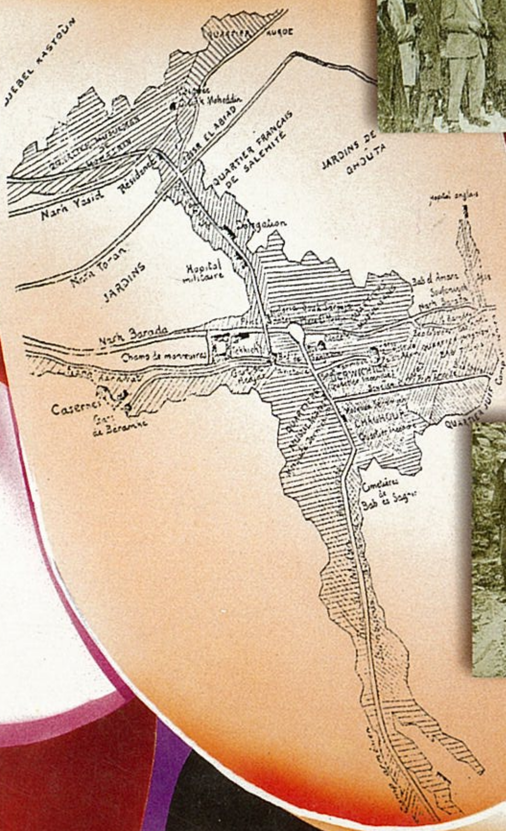

TRADUIT PAR :
DR. IHSAN HINDI

DAR DANIA
SYRIA - DAMAS - TEL 2225226